نَدى عبد الصمد

وادي أبو جميل

قصص عن يهود بيروت



دار النهار

الطبعة الأولى، كانون الأول 2009
ص ب 226-11، بيروت، لبنان
فاكس 561693-1-961
darannahar@darannahar.com
ISBN 978-9953-74-260-1

المحتويات

مقدمة

عرفت الطائفة اليهودية في لبنان الحديث ذروة ازدهارها في العشرينات من القرن الماضي. فمع إعلان دولة لبنان الكبير عام 1920 حظيت بحماية كفلها القانون أسوة ببقية الطوائف. وقد حظيت الطائفة اليهودية كما غيرها من الطوائف اللبنانية بالعديد من الامتيازات، باستثناء الامتيازات السياسية، إذ لم يخصص أي مقعد نيابي ليهود لبنان في قوانين الانتخابات المتوالية.

لكن يهود لبنان سبق أن انتخَبوا مندوبين لانتخاب أعضاء المجلس النيابي وفق قوانين الانتخاب التي عمل بها بين 1922 و1934. لحظ قانون 1922 لانتخاب المجلس التمثيلي الأول الذي وضعه حاكم لبنان الكبير القومندان ترابو عن حي المرفأ «منتخب ثانوي» عن «الإسرائيليين» وعن حي ميناء الحصن «منتخبين ثانويين»، ففاز عن المرفأ هنري فارحي وعن ميناء الحصن البير لزبونه وإدمون ساسون. وفي انتخابات 1925 للمجلس التمثيلي الثاني، انتخب ابراهيم سلمون عن المرفأ، وابراهيم حكيم، وهارون فارحي عن ميناء الحصن. وفي العام 1927، وبعد اقرار الدستور، انتخب عن المرفأ مراد خابية، وعن ميناء الحصن ثلاثة مندوبين ثانويين هم توفيق لينيادو وكامل حلواني والدكتور يوسف عطية وذلك تمهيداً لانتخاب أول

مجلس نواب وفق الدستور الجديد.

في الثلاثينيات من القرن الماضي طلبت الطائفة اليهودية، ممثلة برئيس مجلسها جوزيف فارحي، من الرئيس إميل إده منح مقعد نيابي لليهود. ثم رفع الطلب إلى المندوب السامي الفرنسي دو مارتيل الذي لم يبد حماسة[1].

بقي تمثيل الأقليات بمجموعة ينتمي إليها اليهود واللاتين والأشوريون.. قائماً في المجالس التمثيلية طيلة حقبة الانتداب باستثناء الفترة الممتدة من سنة 1934 إلى 1937 عندما خفض عدد النواب إلى 25 نائباً.

غداة الاستقلال، وفي مطلع الخمسينات صدر قانون الأحوال الشخصية الذي ينظم إدارة شؤون الطوائف وأتباعها، ومن بينها الطائفة اليهودية. وجعل تنظيم شؤون الطوائف السلطة القانونية في يد مجلس الطائفة بحيث لم يعد الحاخام الأكبر صاحب السلطة الأولى. وكان فرمان صادر عن السلطة العثمانية عام 1911 قد اعترف بوجود الطائفة اليهودية وأعطاها الحقوق التي منحت للطوائف الأخرى، ثم، وفي عام 1913 شُرّع المجلس اليهودي[2].

تألف المجلس اليهودي في لبنان من أعضاء منتخبين، هم رئيس وأمين صندوق ونائب رئيس وأعضاء مفوضون. أما الانتخابات فكانت تجري وفق لائحة ترشيحات.

لمجلس الطائفة مصادر دخل عدة. أبرزها مردود الكنيس في بيروت[3] والمناطق، منها عاليه وبحمدون ودير القمر. ويعتبر التزام اليهود بدفع جزء من مداخيلهم أحد مصادر الدخل الأساسية، بالإضافة إلى الرسوم التي يتقاضاها المجلس على معاملات الزواج والطلاق والأمور المتعلقة بالأحوال الشخصية كتسجيل وثيقة وفاة أو ولادة. وكانت ممتلكات اليهود الذين لا ورثة لهم تذهب تلقائياً إلى المجلس اليهودي بحسب تنظيم الأحوال الشخصية الذي يسري على كل الطوائف.

(1) Shulze, Kirsten E, *The Jews Of Lebanon: Between Coexistence And Conflict* Sussex Academic press, 2009

(2) موقع يهود لبنان «الرسمي». www.jewsoflebanonproject.org

(3) كان حي اليهود وكنيسهم يقومان في «بيروت القديمة» بين سوق «النوريّة» والمسجد العمري الكبير. وفي نهاية القرن التاسع عشر، انتقل اليهود إلى وادي ابو جميل وما لبثوا أن بنوا كنيسهم الجديد فيه.

مع حلول نكبة فلسطين، ازدادت الهجرة اليهودية من الدول المجاورة إلى لبنان، الذي بات البلد العربي الوحيد الذي زاد عدد اليهود فيه بعد النكبة[4].

بالمقابل كان عدد الذين غادروا إلى إسرائيل في تلك الفترة قليلاً، وسط ازدهار متنام عرفته تلك الطائفة في لبنان حينها ولا سيّما مع انخرط أبنائها في عالم المال والأعمال وفي الصحافة. فكانت جريدة **العالم الإسرائيلي** التي صدرت مطلع العشرينات وتولى رئاسة تحريرها إلياهو مَنّ. ثم وبعد العام 1948 تغير اسمها إلى **السلام**.

كما تولى توفيق مزراحي نشر مجلة باللغة الفرنسية عنوانها، «تجارة المشرق» *Le commerce du Levant* قبل أن يبيع امتيازها.

حصلت الهجرة بعد حرب سنة 1967 ومع اندلاع الحرب الأهلية سنة 1975. وقد غادر آخر حاخام أكبر لبنان عام 1978 وهو شحود شرام بعد أن تولى منصبه خلفاً ليعقوب عطية سنة 1960 وقبله تولى شؤون الحاخامية بانزيون ليتشهان وهو من اليهود الأشكيناز، وقبله شابطاي باحبوط، وقبله سالومون تاغر، وقبله يعقوب مسلتون الذي عين بعد رابي دانون الذي تولى منصب الحاخام الأكبر بين سنتي 1908 و1909[5].

(4) راجع كتاب *The Jews Of Lebanon*.

(5) موقع www.wikipedia.com/jewsoflebanon.

أول كنيس بني في لبنان الحديث كان كنيس عاليه سنة 1890 ثم كنيس بحمدون عام 1915[6]. لكن بعض المقالات عن تاريخ اليهود في لبنان تتحدث عن كنيس بني في بيروت ودمر في زلزال العام 502. أما كنيس بيروت الحالي في منطقة وادي أبو جميل فقد بدأ بناءه عام 1920 بتمويل من أحد اليهود من آل ساسون. لكن أعمال البناء توقفت بعيد بدئها لأسباب مالية. ولم تستأنف إلا سنة 1925 بعدما تأمن التمويل اللازم من أبناء الطائفة في لبنان، لبناء ما بات أجمل سيناغوغ يهودي في الشرق الأوسط ويعرف بكنيس ماغين أبراهام[7].

وإلى جانب الكنيس الرئيسي في وادي أبو جميل، كان هنالك أكثر من كنيس في بيروت. فقد كانت بعض المجموعات تستأجر منزلاً وتحوله إلى كنيس. فاليهود الذين أتوا من الشام كان لهم كنيس في شارع جورج بيكو، وقربه كان هنالك كنيس للذين أتوا من حلب بالإضافة إلى كنيس لليهود من أصول إسبانية.

أسس المجلس اليهودي جمعيات عدة لمساعدة اليهود في لبنان ومتابعة شؤون المعوزين منهم. منها مستوصف أو عيادة كانت تستقبل المرضى وتزورهم. وقد أدارتها امرأة من الطائفة تدعى أفلين شوا. حتى أن المجلس كان يغطي، عن طريق تلك الجمعية، تكاليف استشفاء مرضى يهود معوزين. وكانت تبرعات متمولين يهود تأتي مباشرة لتلك الجمعية بإشراف المجلس اليهودي للطائفة.

عرف المجتمع اليهودي في لبنان جمعية «ميتان با» وهي جمعية تقدم المساعدات المالية للمعوزين والمعدمين من أبناء الطائفة.

أما جمعية «قطرة الحليب» فقد أسستها نساء الطائفة من العائلات الغنية.

(6) الموقع «الرسمي» ليهود لبنان.

(7) موقع Wikipedia.

مهمتها تأمين مواد غذائية للعائلات المحتاجة. وكانت هذه الجمعية ترعى أيضاً إقامة مآدب للأطفال في مدرسة التلمود توراة خلف الكنيس في بيروت، في مناسبات دينية خاصة باليهود.

لكن الجمعية الأبرز كانت تلك التي تعنى بتأمين تكاليف تزويج البنات للعائلات المعوزة أيضاً لتشجيع الزواج وإبقائه ضمن الطائفة. فتقدم المعونات المالية المتعلقة بمراسم الزواج والتزاماته، ولا سيما أن أهل الفتاة هم الذين يدفعون مبلغاً من المال أو ما كان يسمى بالدوتا وهو نفسه «المقدم» عند الطوائف الأخرى. وكان هذا المبلغ يرتفع وينخفض كلما زادت أو نقصت «مزايا» تلك الفتاة. فإذا كانت جميلة ومتعلمة ومن بيت ثري ينخفض المبلغ[8].

كما أسس يهود لبنان جمعيات شبابية عدة كانت تعمل على إبقاء الأواصر بين الشباب، من خلال نشاطات في نادي «مكابي» لليهود، والذي صدر قرار بحظره بعد سنوات قليلة على تأسيس دولة إسرائيل. وكانت لتلك الجمعيات منشورات داخلية دورية باللغات العبرية والعربية والفرنسية، عن أخبار الطائفة والجمعيات المرتبطة بها وعن نشاطات النادي. من هذه المنشورات **الصوت الإسرائيلي** التي صدرت سنة 1936 **والمنتدى** التي صدرت سنة 1941[9].

(8) المعلومات عن الجمعيات مصدرها مقالة نشرت على الأنترنيت لأحد يهود لبنان «فريد ازاروط» بعنوان Les Juifs du Liban.

(9) *Jews of Lebanon: Between Coexistence And Conflict*.

هذا الكتاب

إنه كتاب عن يهود من لبنان عاشوا في غالبيتهم في حي اليهود في منطقة وادي أبو جميل في وسط بيروت، أو ما كان يعرف بوادي اليهود.

كل الشخصيات الواردة في هذا الكتاب شخصيات وجدت بالفعل. رُويت رواياتها على لسان أصدقائها أو جيرانها كما يتذكرها هؤلاء. وهو كتاب يستند بالتالي إلى وقائع حصلت بالفعل وصيغت بأسلوب روائي لا يغير في حقيقة أحداثها ووقائعها الرئيسية شيئاً. إلا أن أكثرية الأسماء الواردة في تلك الروايات جرى تغييرها لحساسية الروايات، وبطلب من الرواة. لكن قصصاً عدة وضعت أسماء أصحابها الحقيقيين.

هذا الكتاب هو كتاب عن ذاكرة اللبنانيين، عن يهود لبنان وعاداتهم وتقاليدهم. وقد استند إلى مقابلات مع ناس سكنوا في وادي أبو جميل وعايشوا تلك الفترة وكانت لهم قصصهم مع هؤلاء.

وهو حصيلة عشرات المقابلات التي تقاطعت عند بعض الشخصيات فكانت تلك الوقائع.

أما الجامع بين قصص يهود لبنان فهو أنهم غادروا بسرية تامة، وانقطعت بعد ذلك أخبارهم. أما من قال إنه راحل أو حاول الاتصال بعد الرحيل فقليل جداً نسبة إلى العدد الأكبر الذي جرى الحديث عنه على أنه رحل وانقطعت أخباره..

غالبية القصص في هذا الكتاب تتوقف عند الرحيل، من دون أن تكمل

لتروي ما حل بهؤلاء منذ لحظة رحيلهم. وما هو متداول أن عدداً كبيراً غادر إلى إسرائيل، لكن العدد الأكبر غادر باتجاهات أخرى. إلا أن الثابت هو أن الطائفة اليهودية في لبنان لم يبق منها سوى بضع عشرات. أما عدد اليهود الفعلي الذي كان في لبنان فبلغ ذروته سنة 1958 ويتراوح بين اثني عشر ألفاً وخمسة عشر ألفاً، على اعتبار أن عدد اليهود في لبنان زاد بعد نكبة فلسطين، مع هجرة يهود من سوريا والعراق إليه، ثم تراجع بعد حرب 1967 إلى ثلاثة آلاف ومئتي شخص، بينهم ألفان من حاملي الجنسية اللبنانية[10]. لكن الأرقام الرسمية حول الأعداد غير متوفرة.

إنه كتاب عن الذاكرة وعن الماضي، وعن طائفة عاشت ونسجت رواياتها. وهو كتاب عن مكان كانت له قصة، وكان فيه أشخاص، عاشوا واندثروا، لكنهم اندثروا بملء إرادتهم ولظروف خارجة عن إرادة الجميع، فقد مرت عليهم كما مرت على غيرهم من أبناء الطوائف الأخرى ظروف حتّمت عليهم الرحيل. لكنهم كأقلية قرروا عملياً إنهاء وجودهم باكراً. رحلوا بشكل جماعي وعلى مراحل، دفعهم لذلك خوف من انعكاسات الصراع في المنطقة.

أما السؤال عما إذا كان هذا الخوف زُرع في نفوسهم من قبل من شجعهم على الهجرة أم أنه خوف زرعته الظروف بفعل تداعيات الصراع مع إسرائيل؟ أم هو نزعة لبنانية للهجرة طلباً للرخاء؟ يبدو أن الإجابة عليه تخطتها الوقائع في يومنا هذا، ولا يستطيع أي من الاحتمالات تغيير النتيجة في شيء.

فاليهود اللبنانيون طائفة اندثرت من لبنان من دون أن يعني ذلك أن يهود لبنان تبرؤوا من انتمائهم إلى وطنهم أو الأغلبية منهم على الأقل. ومن

(10) الموقع الرسمي ليهود لبنان www.thejewsoflebanonproject.org.

دون أن يعني ذلك أنهم لم يعودوا طائفة من طوائف لبنان الثماني عشرة. لكنهم بالمعنى الفعلي أصبحوا جزءاً من الماضي وجزءاً من الذاكرة فقط، بعد أن كانوا جزءاً فاعلاً من حياة لبنان واقتصاده.

..... إلى قصص هؤلاء...

سليم مزراحي وماري السمن

لم تفكر ماري يوماً أن لها حياة خارج منطقة المزرعة حيث ولدت.

كان منزل والدها الصغير جزءاً من بناء قديم من طبقة واحدة. وكانت تحب هذه المنطقة والحي الذي تقطن فيه، فهو قريب من وسط العاصمة وقريب من البحر حيث كان والدها يأخذها مع شقيقها للتنزه كل يوم أحد عندما يسمح الطقس بذلك. كما أن الشارع حيث يقع منزلها، فيه أشجار على الجانبين، ومنازله متباعدة ومحاطة بحدائق صغيرة مزروعة بشجر الكاوتشوك والصبار والدفلى. كما أن الدكاكين الصغيرة المنتشرة فيه كانت كافية لتأمين كل المستلزمات من دون الحاجة إلى الابتعاد عن الحي. أما مدرستها فلم تكن تبعد كثيراً عن بيتها، وغالبية التلامذة فيها من أبناء المنطقة، ما كان يسهل عليها الحصول على موافقة أمها لزيارتهم.

كان هذا هو محيطها ولولا نزهة الأحد لما كانت اضطرت لمغادرة منطقة المزرعة. لكن وفاة والد ماري المبكر غيّر حياة العائلة، فاضطر الشقيق الوحيد إسبرالى ترك الدراسة وبدء العمل.

وفي السابعة عشرة من عمره، وبعد وفاة والده،اضطر إسبر للعمل في جبل الباطون في ورشة بناء قريبة، قبل أن يصبح عامل بناء فمعلماً بعد سنوات قليلة.

في تلك الورشة تعرف الى طانيوس، معلم الباطون، وقد كان لطيفاً وودوداً ويحثه دائماً على المطالبة بحقوقه، حتى بات ممثل العمال في العلاقة

مع مدير الورشة. وقد راجعه مرة لزيادة بدل إسبر اليومي عندما عرف أنه يتقاضى أقل من غيره من العمال الذين يقومون بعمله نفسه.

كما دعا إلى التوقف عن العمل لما بدأ المشرف على الورشة يتأخر في دفع بدل أتعابهم اليومي.

التزامُ إسبربالإضراب، وتصحيحُ بدل أتعابه اليومي وطدا علاقته بطانيوس.فدعاه لزيارته في منزله بعد نجاح الإضراب وحصول العمال على كل متأخراتهم. ثم تكررت الزيارات وأصبحت متبادلة.

وفي أحد لقاءات إسبر بصديقه عرّفه طانيوس إلى عدد من الأشخاص، قدمهم على أنهم عمال أعضاء في الحركة النقابية.

بين هؤلاء لفت نظر إسبر شاب اسمه عادل، هو رئيس نقابة عمال الأخشاب. كان عادل ملماً بالمواضيع السياسية، يتحدث بانفعال ظاهر، وكثيراً ما كان يشعل سيجارة من أخرى بلغت جمرتها إصبعيه.

لم يكن عادل يفسح المجال كثيراً لغيره في الحديث. كان شديد الحماس لبرنامج التحرك الذي وضعه رئيس الاتحاد مصطفى العريس لفرض قوانين عمل منصفة بعد مضي عام على جلاء الانتداب الفرنسي من لبنان، من دون أن تضع الحكومة تشريعات تضمن حقوق الطبقة العاملة. وكان المطلوب تأمين مشاركة أكبر قدر ممكن من العمال في تلك التحركات. فقانون العمل الذي صدر عام 1947 والذي شرّعت بموجبه النقابات وحُدّدت من خلاله ساعات العمل، لم يأخذ طريقه إلى التطبيق بعد، لأن الدولة تتلكأ والقطاع الخاص مستفيد من غياب الرقابة عليه.

ومن دون مقدمات نظر عادل إلى إسبر المنصت كغيره من الحضور، واقترح عليه الانضمام إلى نقابة عمال البناء.

في تلك الجلسة عرف إسبر أن صديقه طانيوس هو رئيس النقابة. راح إسبر يجول بنظراته على الحضور، وتوقف لثوان عند طانيوس الذي كان

يحدق فيه منتظراً جوابه.

لكن إسبر أبدى تردداً لأسباب عائلية، وطلب بعض الوقت للتفكير، واعداً بالرد على هذا الاقتراح خلال اجتماعهم القادم.

عاد إسبر إلى منزله محتاراً في أمر الانضمام الى النقابة والالتزام بالتحركات العمالية. فهو عندما توقف عن العمل في الورشة، أضرب خجلاً من صديقه، لأنه لو خسر عمله لكان وضع نفسه وعائلته في مأزق كبير. وقد شكر ربه ألف مرة لأن الأمور حُسمت لصالح العمال.

بقي إسبر على تردده وتغيب عن اللقاء الثاني متحججاً بتوعك والدته. فهو لم يكن يريد أن يرفض الانضمام، لكن حجم المخاوف كان أكبر من رغبته تلك، الى أن طرد من ورشة العمل لمجرد تغيبه يوماً واحداً بسبب المرض، ما ترك أثراً كبيراً في نفسه وأشعره بظلم أرباب العمل وبغياب الحماية له.

بقي إسبر شهراً كاملاً عاطلاً عن العمل، واضطر الى الاستدانة من صديقه طانيوس لإعالة عائلته. وعندما سمع أن الدولة أقفلت مكتب الاتحاد بالشمع الأحمر واعتقلت رئيسه مصطفى العريس، قرر المشاركة في التحرك الاحتجاجي، وبعدها بأشهر قليلة انضم إلى النقابات. وبشكل مواز بدأ يحضر اجتماعات التثقيف لأصدقاء الحزب الشيوعي. وهي اجتماعات تهدف إلى الإضاءة على أفكار ماركس وأنغلز ولينين. ثم قرر الانتساب بعد أن انتخب رئيساً لنقابة عمال البناء بدل صديقه طانيوس الذي بات يتابع أكثر من نقابة. ومع الوقت بات إسبر يستضيف بعض الاجتماعات الحزبية في منزله. فالحزب الشيوعي يومها كان حزباً سرياً محظوراً، واجتماعات أعضائه، حسب انتمائهم المناطقي، كانت تتم بصورة سرية.

لم تكن الوالدة راضية عن مسار ابنها، لكنها لم تستطع إزاء إصراره شيئاً. حتى أن ماري كانت تنصت إلى تلك الأحاديث عندما كان الاجتماع يتم

في منزلها، وتلخص لوالدتها ما كانت تسمعه. وكانت أم إسبر تهز رأسها مستغربة الحديث المتكرر عن بلدان بعيدة مثل الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، متعجبة من هذا الاهتمام المفاجئ لابنها بما وراء البحار.. كان إسبر يطلب من أمه وشقيقته الجلوس في غرفة جانبية عندما كان يستضيف الاجتماع الحزبي عنده، لكن المنزل صغير وغرفه متلاصقة، ما جعل ماري تعرف بتفاصيل تلك الأحاديث والقرارات التي كانت تبلّغ للمجتمعين أو تتخذ في الاجتماع.

ما إن كانت الاجتماعات تنتهي حتى يبدأ نقاش إسبر مع شقيقته. فهي ومنذ أن بدأت تعمل مساعدة للخواجة أنطوان، خياط الحي، كانت تشعر بالغبن والظلم، لكنها لم تكن قادرة أن تفعل شيئاً إزاءه ولا سيما عندما كان يعطيها عملاً للمنزل بعد ساعات العمل الطويلة في المحل. وفي أحد الأيام طلبت من أخيها أن تنتسب إلى نقابة عمال الخياطة، وباتت تحضر الاجتماعات الخاصة بهذه النقابة حتى أصبحت هي الأخرى تستضيف بعضها في منزلها.

وعندما كان أحد المسؤولين الكبار يحضر الاجتماع، كانت تخرج عن الموضوع النقابي لتناقش في السياسة ولا سيّما بعد قرار الحزب الشيوعي الموافقة على قرار تقسيم فلسطين.

لم تكن تستطيع أن تستوعبه، ولم تقتنع في تلك الفترة بمبررات موقف الحزب الشيوعي هذا. كانت تستمع إلى التبريرات لكنها لم تكن مقتنعة، لأنها تعتقد أن الشيوعيين وهم طليعة المجتمع حسبما كانوا يقولون، عليهم أن يكونوا طليعيين في رفض إقامة دولة على أراضي الغير وتهجير أهلها.

يذكر أصدقاء ماري أنها كانت سمراء، قصيرة القامة، نحيلة، كثيرة الكلام حتى أن من كان يعرفها يقول إنها لم تكن تعرف الصمت ولم تحبه يوماً.

وعلى نفس مسار شقيقها، بدأت ماري تحضر اجتماعات الأصدقاء، ثم قدمت طلب انتساب إلى الحزب الشيوعي اللبناني، وتركت العمل النقابي كلياً بعد أن توقفت عن العمل لخلاف مع الخواجة أنطوان.

لم تتغيب ماري عن أي من الاجتماعات الحزبية، وبدت شديدة الحماس. في تلك الاجتماعات كانت تناقش التطورات السياسية الداخلية، وكانت تطرح توجهات الحزب إزاء تلك التطورات، كما كانت تصاغ البيانات لتوزع على شكل منشور.

كانت المناشير متعددة المضمون، مع جامع واحد بينها هو الهجوم على الدولة «المتآمرة» و«المتجاهلة لحقوق العمال والفلاحين». لكن طبيعة العمل اختلفت عندما بدأت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وكانت منطقة الشرق الأوسط مسرحاً أساسياً فيها. فقد سعت واشنطن لإقامة أحلاف بين دول المنطقة في وجه السوفيات. يومها تركز عمل الحزب الشيوعي على التحرك ضد تلك السياسات، خاصة أن السلطة اللبنانية كانت موالية لواشنطن ولا سيّما في عهد الرئيس كميل شمعون.

شهدت شوارع بيروت تظاهرات عديدة ضد الولايات المتحدة والأحلاف ورفضاً لدخول لبنان بها. وكانت ماري تشارك في جميع التحركات الاحتجاجية في الشارع، كما كانت تتولى توزيع المناشير، على الرغم من أن العملين محظوران وعلى الرغم من التوقيفات التي تعرض لها بعض المشاركين.

في منزل ماري عُقدت اجتماعات عدة لمناقشة سير تلك التظاهرات، أبرز تلك الاجتماعات ربما عقد في خريف سنة 1954. كان الاجتماع حاشداً، فقد جرى التحضير له بشكل جيد لأن مسؤولاً رفيعاً سيحضره نسبة إلى أهمية القضية.

في هذا الاجتماع نقل المسؤول الحزبي إلى المجتمعين قرار الحزب الشيوعي، بالتنسيق مع رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي كمال جنبلاط، بالتصدي لحلف تركيا – باكستان والتظاهر الواسع رفضاً للضغوط الأميركية التي هدفت إلى إدخال لبنان في تلك الأحلاف بعد الإلحاح الذي نقله سفراء واشنطن إلى المسؤولين في عدد من دول المنطقة بينها لبنان.

وضع المسؤول الحزبي «الرفاق» في أجواء أبعاد هذا الحلف ونظرة الحزب له، وصولاً إلى ضرورة منع تحقيقه عبر إطلاق تحرك في الشارع ضده.

ناقش المجتمعون كيفية استنفار الرفاق وتأمين حشد واسع. كما تم الاتفاق على أماكن الالتقاء. وأوكلت إلى عدد من «الرفاق»، بينهم ماري، مهمة توزيع المناشير بعد أن حددت الأحياء الشعبية كمكان أساسي للتوزيع.

تجمّع الرفاق في نقاط اتفقوا عليها مسبقاً في بيروت، واتجهوا إلى منطقة الأونيسكو حيث التجمع الأساسي، سيراً على الأقدام وبمجموعات صغيرة.

عرفت قوى الأمن الداخلي بقرار التظاهرة ومكان انطلاقها، واتخذت إجراءات أمنية مشددة في محاولة لمنعها، لكن الجموع اخترقت الطوق وتابعت مسيرتها.

وبعد دقائق على انطلاقها جاء القرار بقمع التظاهرة.. كانت صفوف المتظاهرين قد احتلت عشرات الأمتار في الشارع الخلفي للأونيسكو في بيروت لجهة المزرعة. وعندما بدء الطوق الأمني يكبر، وبدأت العناصر الأمنية تتراصف للتقدم باتجاه الصفوف الأمامية لوقف التظاهرة وتفريقها، علت الأصوات الداعية إلى التماسك، وأطلق المتظاهرون نشيد التظاهرات المعروف يومها «رصوا الصفوف، رصوا الصفوف درب النضال طويل...».

تراصف المتظاهرون، شبكوا أيديهم وتلاصقت أكتافهم وتقدموا. كانت القوى الأمنية قد اصطفت بشكل متراصّ أيضاً ورفع عناصرها العصي، وبعضهم حمل بنادق الكرابين التي كانت سلاح القوى الأمنية في تلك الفترة. ومع اقتراب المتظاهرين من القوى الأمنية، سُمع الضابط ينادي على جنوده للاستعداد ثم السير، وبدأ الصدام.

انهال الجنود على المتظاهرين بأعقاب البنادق والعصي، وكان الصراخ يتعالى مع إصرار المتظاهرين على التراصف. واشتدّ قمع القوى الأمنية، بحيث بات صوت طلقات نارية يسمع في المكان. عندها تفرق المتظاهرون وتراجعوا باتجاه أزقة وشوارع فرعية، محاولين الإفلات من قبضة القوى الأمنية التي نشرت عناصر خلف المتظاهرين لتوقيفهم.

تمكنت الغالبية من الإفلات وأوقف العشرات، بينما بقي في ساحة المواجهة شخصان مرميان أرضاً، هما حسان أبو إسماعيل من الحزب الاشتراكي الذي قُتل على الفور ومصطفى نصر الله من الحزب الشيوعي وقد أصيب بالشلل التام بعد أن استقرت رصاصة في عموده الفقري. كما أدت المواجهات إلى سقوط عدد كبير من الجرحى.

كانت ماري بين الموقوفين. فقد وقفت في طليعة التظاهرة وتلقت ضربات العصي وأعقاب البنادق. حاولت بداية حماية رأسها من تلك الضربات فوضعت يديها حول رأسها وانحنت وتسمّرت في مكانها، لأن الصوت المنادي برص الصفوف كان لا يزال يصدح. وعندما توقف لم يعد من مجال للهرب. طوّقتها القوى الأمنية مع مجموعة من حوالى عشرين شخصاً. لم تشعر إلا بالضربات تنهال على يديها اللتين تلفان رأسها، حتى عندما شعرت بذراعين تطوقان خصرها وتشدانها إلى الخلف، ظنت أنها وقعت في قبضة القوى الأمنية، لكن الضربات تتالت ومحاولة التراجع من قبل الشخص الممسك بها أيضاً، تعثرا عدة مرات إلى أن وقعا أرضاً وأدركت

عندها أن الشاب الذي كان يحاول سحبها من تلك الدائرة كان مدنياً. ثم رُفعت من شعرها وثيابها ورُميت في الجيب العسكري. نظرت حولها بحثاً عن الشاب الذي جرها فلم ترَ أحداً غير رجال الشرطة، فأيقنت أنها وقعت أسيرة توقيف جديد.

لم تسعَ ماري لمقاومة القوى الأمنية عندما أحكمت القبض عليها. أدركت أنها لن تستطيع شيئاً، وحاولت أن تخفف من غضبهم بأن استسلمت بالكامل، لكن صراخ المتظاهرين كان ما يزال يتسلل إلى أذنيها وكذلك شتائم القوى الأمنية.

ومن زاوية قريبة من المواجهة، تابع الشاب الذي حاول إنقاذ ماري، سير العربات العسكرية التي نقلت العشرات من الموقوفين إلى سجن الرمل في الظريف، بينهم تلك الفتاة التي لم يكن يعرف اسمها حتى.

عاد إلى منزله في وادي أبو جميل فرحاً لأنه تمكن من الإفلات من قبضة القوى الأمنية في اللحظة الأخيرة، لكن صورة هذه الفتاة وهي تتعرض للعصي والضرب والاعتقال بقيت في ذهنه.

وفي أول اجتماع حزبي دُعي إليه، سأل هذا الشاب عن مصير الموقوفين في سجن الرمل. فأبلغ أنهم سيقوا للمحاكمة، وأن تحركاً في الشارع يجري التحضير له احتجاجاً على استمرار توقيفهم. لكن السلطة اللبنانية قررت وقف التعقبات بحقهم وإطلاق سراحهم قبل أن تنطلق التظاهرات وربما منعاً لحدوثها، بعد أن حُددت ساعة الصفر لها ووُزعت مناشير في عدد من أحياء العاصمة تندد باستمرار التوقيفات، وتدعو للتحرك احتجاجاً.

إعتبر الحزب الشيوعي يومها أنه حقق انتصاراً بأن فرض الإفراج عن موقوفين من دون محاكمة، وبأن تحركاته الاحتجاجية بدأت تخيف السلطة. ودُعيت كوادر الحزب إلى اجتماع عام بالمناسبة في منطقة الخندق العميق.

حضر الشاب الذي حاول إنقاذ ماري إلى مكان الاجتماع في الموعد

المحدد. وبدأ توافد الأعضاء تباعاً ومن بينهم ماري.

دخلت وسلمت على معارفها من بين الحضور، وقد أحيطت باستقبال خاص بعد تجربة التوقيف والمحاكمة. كانت الرضوض ما تزال واضحة على وجهها. وعندما وقعت عيناها على عيني الشخص الذي لف ذراعيه على خصرها ابتسمت له وانسحبت من حلقة كانت تقف فيها، ثم تقدمت منه وعرّفت عن نفسها، محاولة تذكيره بهويتها للتأكد مما إذا كان هو فعلاً هذا الشاب. وقف ومدّ يده للسلام وهنأها بسلامة العودة وعرف عن نفسه على أنه سليم مزراحي من فرع الحزب الشيوعي في وادي أبو جميل.

أخبرته كيف أنه لم يفارق تفكيرها بينما كانت قيد التوقيف، وأنها احتارت لأمره بعد أن أدركت أنه ليس من القوى الأمنية، وأنها بقيت تحاول أن تتذكر ما إذا كانت تعرفه. بدوره أخبرها معايشات ذلك اليوم، وكيف كان قربها في التظاهرة وقد لفت نظرَه حماسُها وصراخُها المتواصل، وكيف تراصفا عند بدء محاولة تفريق التظاهرة ثم حاول إخراجها معه من الدائرة.

توقف الحديث هنا لاكتمال نصاب الاجتماع، فجلسا على كرسيين متلاصقين. وبعد انفضاض الاجتماع عادا إلى حديث تلك التظاهرة، ولما خرجا سألها عن عنوان منزلها وعما إذا كانت تريد أن يرافقها، هزت رأسها موافقة لأن شقيقها إسبر لم يكن مدعواً ضمن هذه المجموعة وهي تفضل ألا تعود بمفردها ليلاً. وفي طريق العودة استرجع الإثنان مجدداً لحظات الاعتقال والمواجهة مع القوى الأمنية.

أخبرته ماري تفاصيل أيام التحقيق معها، وسيل الأسئلة التي طرحها المحقق حول انتمائها إلى تنظيم محظور، ومشاركتها في نشاطات غير مرخصة، وعن هوية المسؤول عنها وأماكن الاجتماع وكيفية التبليغ لها، وأين تُطبع المناشير ومن يصوغها وكيف توزع.

روت له كيف تعرّضت للضرب أثناء التحقيق من قبل المحقق، وكيف

كان يصفعها مع كل سؤال كي تدلي بأسماء الناشطين في الحزب، وكيف أُهينت عندما شعر المحققون أنها تدلي بأسماء غير صحيحة وبمعلومات غير دقيقة.

أخبرته أيضاً كيف سيقت الى المحاكمة، وكيف دهشت عندما لفظ القاضي التهمة الموجهة إليها بأنها قامت بنشاط تخريبي يمس أمن الدولة والأمن العام، ويطعن بعلاقات لبنان بدول صديقة.

ثم لم تُعْطَ مجالاً للرد أو التعليق كما أنه لم يكن في المحكمة محام للدفاع عنها.

سيقت مع عشرة من «الرفاق» اتُّهموا بالتهمة نفسها، وهي مكبلة اليدين والرجلين. وروت له أنها ضحكت كثيراً عندما تعثرت ووقعت أرضاً، وأن أحد الرفاق حاول مساعدتها على الوقوف. لكنها وبعد يومين على المحاكمة، وبينما كانت في زنزانتها مع فتيات غالبيتهم من المنحرفات والمتهمات بجرائم قتل وسرقة، دخلت آمرة السجن وأبلغتها بقرار الإفراج عنها. لم يكن لديها ما تخرجه من الزنزانة، فهي أصلاً لم تستقبل أي زائر منذ اعتقالها قبل أسبوع وعلى مدخل السجن سُلمت ساعتها، وطُلب منها التوقيع على تعهد بعدم ممارسة أي نشاط محظور بعد اليوم.

أخبرته أنها وقعت هذا التعهد، إذ لم يكن أمامها خيار آخر، وخرجت من سجن الرمل عائدة الى منزلها سيراً على الأقدام لأنها لم تكن تملك المال لركوب الترامواي أو الحافلة. وعند وصولها إلى المنزل فوجئت أمها وشقيقها بالإفراج عنها لأنهما لم يعلما قبلاً أنها ستغادر. كان سليم يزور السجن يومياً في محاولة لرؤية شقيقته من دون أن يؤذن له بالدخول.

روت ماري كيف بكت أمها عند رؤيتها ولعنت الأحزاب وساعة الدخول إليها. وطلبت منها التوقف عن أيّ نشاط. ولما سألها سليم عن قرارها إزاء رغبة أمها قالت له إن مجيئها إلى الاجتماع اليوم تأكيد على نيّتها

بالاستمرار.

عندما أنهت ماري روايتها عن تلك التجربة، أخبرها كيف تمكن من الإفلات من قبضة القوى الأمنية بفضلها هي. فشراستها ومقاومتها للقوى الأمنية، لحظة قمع التظاهرة، دفعت الجندي الذي كان يمسك به إلى مساعدة زميله لاعتقالها، عندها انسحب مسرعاً إلى شارع فرعي، حيث وقف مختبئاً في زاوية استطاع من خلالها مراقبة ما كان يجري في ساحة المواجهة.

أخبرها أنه رآها تُساق إلى داخل العربة العسكرية مع غيرها من الشباب، وأن الشاب الذي قُتل بقي أرضاً في حين أن أحد الجرحى كان ما يزال أرضاً أيضاً، لأن الرصاصة التي أصابته أقعدته. وروى لها كيف كان عدد من الجرحى يحاولون الخروج من دائرة المواجهة للإفلات من التوقيف، وغالبيتهم كان الدم يسيل من رؤوسهم بفعل ضربات رجال الأمن، وأن أحدهم أصيب برصاصة في يده وآخر في رجله. قال لها إنه صُدم من تعاطي القوة الأمنية بهذه القسوة مع تلك التظاهرة، وأنه على طول الطريق الفاصل عن منزله كان يحاول أن يستوعب ما رآه، فعدد القتلى كان يمكن أن يكون أكبر بعد أن بدأ إطلاق الرصاص باتجاه التظاهرة، وأنه كان يمكن أن يكون هو بين القتلى لأن أحد جرحى الرصاص لم يكن بعيداً عنه.

عندما وصلا إلى منزل ماري لم يكن الحديث قد انتهى بعد. وقفا طويلاً قرب المبنى. أخبرته قليلاً عن عائلتها، وسألته عن عائلته فقال لها إنه لا عائلة لديه في لبنان، إنما بعض الأصدقاء فقط. فهو يهودي عراقي، وأهله ما زالوا هنالك وهو هرب من الاضطهاد الذي لحق باليهود بعد النكبة.

وأخبرها سريعاً كيف انتمى إلى الحزب الشيوعي العراقي عن طريق أحد الأصدقاء الذي نجح في تجنيده في صفوف الحزب، وأنه عندما قرر المجيء إلى لبنان أعطاه هذا الصديق اسم أحد القياديين في الحزب للاتصال به في محاولة للانضمام الى صفوف الحزب الشيوعي في لبنان. فُرز بداية إلى

العمل النقابي، وضُمّ إلى فرعية نقابية في وادي أبوجميل، حيث حُددت صلته التنظيمية بالنقابي الشيوعي ميشال حنينة الذي سكن وادي أبو جميل والذي كان يستضيف غالبية الاجتماعات النقابية والحزبية لأعضاء الحزب والنقابيين في فرعية الوادي.

أخبرها عن صعوبة أيامه الأولى في لبنان حيث لم يكن يعرف أحداً، وكيف أنه اختار وادي أبو جميل للسكن لأن فيها أغلبية يهودية يمكن له من خلالها إيجاد عمل وتأمين إقامة، فاشتغل بداية حداداً عند شخص من آل خوري. لكنه في ما بعد استأجر محلاً صغيراً قبل مستشفى السان تيريز في الوادي، وعلى مقربة من كنيسة الكبوشية، وراح يصنع مسكات حقائب صغيرة وبروشات كانت في تلك الفترة على الموضة بكل زخرفاتها وألوانها.

بدا سليم راغباً في إخبارها المزيد، لكن الوقت تأخر، وهي تستعجل الدخول إلى المنزل لأن اعتقالها جعل والدتها شديدة التوتر عند أيّ تأخير. واتفقا على لقاء قريب، بعد أن ألح عليها سليم لزيارته في محله في شارع جورج بيكو في وادي أبو جميل، عصر اليوم التالي، وقبل اعتقالها ثانية، كما قال لها ممازحاً.

في اليوم التالي قصدت ماري محلّ سليم بالفعل، بقيا قليلاً ثم خرجا في نزهة باتجاه كورنيش النورماندي على البحر، وهو من أجمل الأماكن في العاصمة وأشهرها. يقصده العشّاق للنزهة وكذلك العائلات، وكان ينتهي في آخره عند شارع الزيتوني الذي بقي حتى الحرب واحداً من أشهر شوارع العاصمة، حيث كانت تمتد على جانبيه الكباريهات التي كان يقصدها لبنانيون وأجانب.

كررت ماري الزيارات، وكررا نزهات الكورنيش بحيث باتا على موعد يومي ولا يفترقان. فقد كانا يذهبان سوياً إلى الاجتماعات الحزبية

وإلى النشاطات، حتى باتت علاقتهما محور اهتمام «الرفاق» ولا سيّما عندما أصبح سليم صديق إسبر شقيق ماري ويزوره في منزله.

لكن أحداً لم يكن يفكر أنهما قد يرتبطان. فمعارفهما المشتركون يعرفون أن سليم من الطائفة اليهودية وأن الزواج خارج الطائفة أمر غير مألوف. أما ماري فقد كانت وحيدة أهلها، وزواجها من يهودي ليس بالأمر السهل أيضاً لأن الزواج المختلط أصلاً كان استثناء في تلك الفترة.

لكن سليم قرر المضي في علاقته، وفاتح ماري برغبته الزواج منها.

لم يكن ذلك مفاجئاً لماري، فقد سبق أن فكرت بالأمر قبل أن يفاتحها سليم برغبته، لكنها كانت تفضل ألاّ يطرح الموضوع كي لا تضطر إلى مواجهة عواقبه. وأسرّت له أن رغبة الارتباط به سبق أن راودتها، لكنها استبعدتها نظراً لصعوبة خطوة كهذه عليه وعليها.

لم يقتنع سليم بالمبررات، وحاول إقناعها بالعمل على تذليل العقبات عبر إقناع الشقيق ومن ثم الأم. بحثا في احتمال تغيير طائفته علّ ذلك يخفف الأمر على والدتها، لكنه سيفقد عندها مساعدات الجمعيات اليهودية له وهي مساعدات ستصبح أكثر من ضرورية إذا كوّنا عائلة.

علّق الإثنان الحديث في الموضوع بعد أن طلبت ماري وقتاً للتفكير بمخرج يتعلق بها، على اعتبار أن لا مشكلة عند سليم، إذ يكفي أن يقول إنه سيتزوج على الطريقة اليهودية حتى ينال رضا أهله..

لم يكن سليم مزراحي مالكاً لمنزله الواقع قرب الكنيس اليهودي غير بعيد عن باب إدريس، في طريق ضيق مقطوع في آخره. كان يستأجر بيتاً صغيراً في الطابق الأرضي من مبنى مؤلف من طبقتين. وهو المنزل الذي سكنه سليم منذ قدومه إلى لبنان من العراق طلباً للاستقرار والعمل بعدما ضاق حال اليهود في العراق، بينما كان الوضع في لبنان بالنسبة لليهود ما زال مثالياً، مقارنة مع بقية الدول العربية.

صحيح أن الحزب الشيوعي الذي كان سليم مؤمناً بأفكاره كان محظوراً في لبنان، إلا أن اليهود لم يكونوا مضطهدين في لبنان كما كان الحال في العراق.

لم يحمل سليم معه من العراق مالاً يكفي لأكثر من أشهر معدودة، وبمساعدة أصدقاء وجد شقة فارغة في وادي أبو جميل، وتمكن سريعاً من توطيد علاقته بصاحبِ الملك، حتى باتا يتبادلان أخبارهما الشخصية، ومن ضمنها علاقته بماري. وبات سليم يزور جاره برفقتها باستمرار وكثيراً ما كانت هموم العلاقة وصعوبة الزواج تطرح في تلك الجلسات.

كانت ماري قد تفقدت منزل سليم بعد أن اتخذا قراراً نهائياً ببدء الإجراءات العملانية للزواج ووُضع الأهل أمام الأمر الواقع.

لم يكن حال سليم يسمح باستئجار منزل أوسع من منزله الصغير والغريب في تقسيمه. فمدخله من مطبخه ومنه يتفرع ممرّ ضيق يؤدي إلى غرفة جلوس ثم وعبر باب فاصل إلى غرفة النوم الكبيرة.

حتى الفرش المتواضع الذي كان فيه كان يناسب المرحلة الأولى من الزواج علّ الأحوال تتحسن مع الوقت.

لم يكن في منزل سليم أية رموز دينية، فهو ليس من الممارسين للشعائر الدينية لكنه أصرّ على رغبته بالزواج في الكنيس وعلى الطريقة اليهودية، بحجة أن ذلك يخفف على الأهل في العراق حزن إتمام المراسم في غيابهم.

في البداية، أخفت ماري قرارها عن والدتها خشية ردة فعلها، فهي كانت كبيرة السن وتحلم لابنتها بزواج كنسي وعائلة تتربى على صورة السيد المسيح، علّ ماري تهدأ وتترك العمل الحزبي وتتفرغ لتربية العائلة.

فوجئت الوالدة وشقيقها في البداية عندما أبلغتهما بقرارها الزواج من يهودي. كانت مفاجأة الشقيق أقل لأنه كان على معرفة بسليم، وبينهما علاقة ودّ. وهو ربما كان على دراية بالعلاقة التي تربط شقيقته بصديقه الذي بات

في الفترة الأخيرة، قبل إعلان قرارهما الزواج، يتردد كثيراً إلى منزل آل السمن بحجة زيارة شقيق ماري.

لكن الوالدة عادت ووافقت بعد ذلك عند إصرار ابنتها وتشجيع ابنها، بشرط أن يكون زواجاً كنسياً، إلا أن ماري أصرت على زواج على الطريقة اليهودية لأن في ذلك تخفيفاً لعناء أهل سليم.

لم تكن ماري تطرح فكرة الزواج للنقاش، كانت تتحدث عن قرار اتخذته، فإما أن يجري برضا الأهل وإلاّ فبدونه.

وهكذا غيرت ماري دينها وتحولت إلى الطائفة اليهودية. لا يذكر أحد من الأصدقاء الطقوس التي اعتُمدت في هذا السياق، وما إذا كان الأمر اقتصر على معاملات إدارية. ما يذكره أصدقاؤها أنها أخبرتهم بتخلّيها عن دينها لأنها في الأساس لا تقف عند تلك الشكليات، ولم تأبه يوماً للعادات والتقاليد ومنها الممارسات الدينية. فهي منذ أن نضجت لم تدخل لا كنيسة ولا كنيساً إلا في مناسبات خاصة وعائلية. لكنها رفضت عرساً يهودياً كاملاً، وأصرت على مراسم عرس ليوم واحد. واستبعدت كلياً السير في مراسم الاحتفال قبل يوم من العرس وفق تقاليد الزواج اليهودي، وهو احتفال يجري في الكنيس أيضاً، تنزل خلاله العروس عارية في بركة ماء ثم يجري تجفيف جسدها بمناشف يرسلها العريس.

دُعي الأهل والأصحاب والرفاق في الحزب إلى العرس. وخرج الاثنان إلى باحة الكنِيس بعد انتهاء المراسم وتقبلا التهاني. كانت المراسم مراسم عرس عادي. وقد لبست ماري فستاناً أبيض عادياً ووضعت منديلاً على رأسها.

لم توقف نشاطها الحزبي بعد الزواج وباتت ملحقة بفرعية وادي أبو جميل حيث انضمت إلى الاجتماعات في منزل «الرفيق» ميشال، وإن كان التزامها قد تراجع مع الوقت بعد أن كبرت العائلة وانتقلت أمها وشقيقها للعيش

معها في منزلها في الوادي. فأمها كبرت وباتت بحاجة للرعاية، وشقيقها لم يتزوج لكن عمله يجعله دائم الغياب عن المنزل.

أما سليم فقد بات مضطراً لمضاعفة عمله لتأمين متطلبات العائلة، فعمله هو مصدر الدخل الوحيد، لأن ماري كانت متفرغة لتربية الأطفال بعد أن رزقا بسبع بنات وصبي كان آخر العنقود.

ومع ولادته قررا التوقف عن الإنجاب لأن الصبي كان المرتجى منذ الولادة الأولى، من دون أن توقف ولادة البنات المتتالية مسعى إنجاب صبي يحمل اسم العائلة.

تطور الوضع الداخلي في لبنان ورُفع الحظر عن عمل الحزب الشيوعي اللبناني، وانتهت مرحلة العمل السري. وذلك بعد أن عاد الحزب عن قراره تأييد إعلان تقسيم فلسطين أسوة بالاتحاد السوفياتي، وبعد أن أطلق الحزب، تثبيتاً لنهجه الجديد، حملة لدعم الشعب الفلسطيني ضد «القرار الدولي الجائر بالتقسيم ورفضاً لدولة قامت على أراضي الغير».

كانت الأحداث تتسارع في لبنان وكذلك في المنطقة، وكانت التحركات الاحتجاجية تتوالى رفضاً لقيام دولة إسرائيل وتضامناً مع الشعب الفلسطيني الذي لجأ آلاف منه الى لبنان، كما إلى عدد من الدول العربية.

لم تشعر ماري بالقلق إزاء ما يجري لأنها كانت مقتنعة أن مسار التغيير قائم والحركات الثورية لا بد أن تنتصر في النهاية وتستلم السلطة. يذكر أصدقاؤها أنها كانت تردد دائماً بنفس الحماسة القول الشائع «إذا ما كبرت ما بتصغر».

ولكن تلك الحماسة بدأت بالتراجع بعد حرب 1967. فالأجواء تغيرت في لبنان، وحالة العداء لليهود أخذت تتصاعد، وماري بدأت تخاف على بناتها وابنها الوحيد ماركو.

أما نصائح الجمعيات اليهودية التي كانت تشجع على الهجرة فقد

أصبحت أكثر وقعاً عندها.

فقد كانت تلك الجمعيات تغدق الوعود لحث الناس على الهجرة ومنها وعود تزويج البنات ودفع تكاليف تلك المراسم ومتطلباتها لأنها على عاتق أهل البنات عند اليهود.

كان سليم قد أخبرها أن الحاخام زاره في المحل ونصحه بالمغادرة لانسداد الأفق بالنسبة لليهود في لبنان، واضعاً أمامه جملة مغريات إذا ما قرر الانتقال مع عائلته إلى إسرائيل. من هذه المغريات دفع تكاليف نقل الأثاث ووعد بمنزل في إسرائيل ومعاش شهري إلى حين تأمين عمل وتعويض مادي فوري.. لكن الأهم بالنسبة إليه كان الوعد بدفع تكاليف زواج بناته عند بلوغهن السن، ودفع الدوتا التي كانت على عاتق أهل البنات عند اليهود.

تلك المغريات أثارت اهتمام ماري، وبدت ميّالة للبحث بتفاصيلها مع زوجها ومع الوكالة. لكنها في البداية لم تتجرأ على البوح بهذا الميل، ولا سيّما أن سليم لم يبد أيّ استعداد للبحث بالموضوع. كان يتحدث عنه فقط من باب إخبارها تفاصيل ما جرى معه. فهو وانسجاماً مع موقفه المعارض لقيام دولة إسرائيل، لا يمكن أن يكون واحداً من الذين يساعدون في تكريس واقع قيام تلك الدولة، لا بل ما زال مقتنعاً بوجوب النضال إلى جانب القضية الفلسطينية. كما أنه علماني ولا يمكن أن يقبل بقيام دولة طائفية مثل الدولة اليهودية في إسرائيل.

لكن سليم، وبعد أشهر قليلة، عاد وتراجع عن موقفه الرافض وبدا منفتحاً ومستعداً للبحث في شروط الرحيل، فحالته المادية بدأت بالتراجع لأن المحل لم يعد ينتج ما يكفي لتلبية حاجات العائلة.

لقد راح عدد الذين يقصدون محلاً يملكه يهودي يقل بفعل بوادر المقاطعة، تلبية لدعوة تيارات قومية عربية برزت في تلك الفترة ولاقت

تأييداً شعبياً واسعاً. كما أن مقاطعة المحلات اليهودية جاءت ترجمة لحالة التعاطف مع الفلسطينيين والتي كانت جارفة.

هذا بالإضافة لكون غالبية التجار والحرفيين الذين كانوا يتعاونون مع سليم ويشترون منتجاته قد هاجروا، ولا سيّما تجار الجلود والحرفيون الصغار الذين كانوا يصنعون الجزادين النسائية والحقائب الرجالية، وبات مدخول المحل يقوم تقريباً على مردود أرباح المبيع لأفراد غالبيتهم من الطائفة اليهودية وهؤلاء أيضاً تراجع عددهم.

طُرحت كل هذه الهموم والهواجس في مداولات العائلة عند البحث عن المستقبل وأفق الوضع في لبنان، لكن تلك المداولات كانت تتم بسرية حتى عن الجيران والأهل والرفاق، ولم يكن إلا عدد محدود من الأصدقاء يشارك العائلة هواجسها.

كان التردد كبيراً ولا سيّما أن الذهاب إلى إسرائيل خيار يعني أن لا عودة إلى لبنان في المدى المنظور، نتيجة مسار الأمور من سيئ إلى أسوأ، ويعني أيضاً أن هذه الخطوة لا يمكن الرجوع عنها بعد إتمامها إذ لا مجال للندم لاحقاً. فالوكالة اليهودية كانت تجبر المغادرين على توقيع عقد يلزمهم البقاء ثلاث سنوات في إسرائيل ويمنعهم من المغادرة إلى أية جهة. أما في حال قرروا المغادرة بعد انتهاء السنوات الثلاث، فقد كان عليهم أن يسددوا التكاليف التي تكبدتها الوكالة لنقلهم إلى إسرائيل، حسب ما قال سليم لأحد أصدقائه عندما حاول استمزاج رأيه. ومن بين هذه التكاليف، تذاكر السفر وتكاليف الشحن والإقامة في قبرص، قبل الانتقال إلى وجهتهم النهائية في إسرائيل.

كانت ماري راغبة ببحث تلك العروض، وهي التي حاولت إقناع سليم بتليين موقفه والنظر بواقعية إلى الأمور، لكنها في الوقت نفسه كانت قلقة على أهلها. إذ كيف لها أن تترك والدتها المسنة وشقيقها الأعزب لمصيرهما

وتغادر؟ وفي الوقت نفسه كيف لها أن تواجه مغريات الوكالة اليهودية ووعودها للهجرة في وضع كوضعهم؟

فالذهاب إلى إسرائيل يعني أن العودة إلى لبنان ستصبح مستحيلة. وقرار الذهاب إلى إسرائيل يعني عملياً قراراً بالقطع مع الماضي. لكنه، قبل أي شيء آخر، قرار بالابتعاد عن الأم والأخ إلى أمد قد يطول وربما إلى الأبد. هذه الحقيقة جعلتها تستبعد الفكرة عدة مرات، لكن مصير بناتها أعاد احتمال قبول الرحيل إلى إسرائيل إلى دائرة البحث الجدي.

فبناتها يهوديات، وهي رغم قناعاتها الشخصية اللامبالية إزاء الطوائف والتقاليد، لا تستطيع أن تزوجهن إلا من يهود، فكيف يمكن أن يتم ذلك مع الهجرة المتواصلة للشباب اليهود، ومع تراجع الوضع المادي للعائلة، ما يجعل الدوتا التي يمكن عرضها لأهل العريس منخفضة القيمة ما يعني أن «مستوى» العريس المادي والعائلي لن يكون هو نفسه في حال كانت العائلة تعيش رخاء مادياً.

يذكر أصدقاء ماري أنها كانت تقول لهم دائماً إن لدى بنات اليهود علامة على الجبين. هذه العلامة تشير إلى العائلة التي ينتمون إليها، وما إذا كانت غنية أم فقيرة، فإذا كانت الفتاة اليهودية جميلة ولكن وضع أهلها المادي ضعيف، فهذا يعني أنها ستحظى بعريس على مستوى وضع أهلها العائلي، أما إذا كانت قبيحة وغنية فهذا يعني أنها ستحظى بعريس جميل ومتعلم.

بدأت زيارات مندوبي الوكالة تزداد، والضغوط النفسية أيضاً إلى أن قرّ الرأي برفض تلك المغريات على الأقل حالياً، والبقاء إلى جانب الأم التي يعني لها رحيل ابنتها الموت الحتمي كما أبلغتها عندما تناقشتا في احتمال السفر.

أُبلغ مندوب الوكالة بقرار الرفض وأسبابه بعد أن استلم صوراً عن هوية سليم وماري والأولاد. غاب المندوب أسابيع وعاد عارضاً نقل والدة

ماري إلى إسرائيل، وتأمين الترتيبات لذلك بما فيها تأمين منزل أكبر من المنازل التي يجري توزيعها على العائلات المغادرة. مع وعد بالسعي لتأمين انضمام الشقيق إلى عائلته في مرحلة لاحقة وفي مهلة أقصاها ستة أشهر.

لم يعد العرض قابلاً للرفض.

ترددت ماري وسليم على الكنيس عدة مرات لإتمام معاملات الرحيل وملء الاستمارات اللازمة ومتابعة التفاصيل. وبسرّية تامة جرى توقيع العقود.

وضعت ماري عائلتها أمام الأمر الواقع. أبلغت أمها وشقيقها أنها قررت المغادرة لأجل البنات، وأنهما سيذهبان معها، في مرحلة أولى الوالدة ثم الأخ الوحيد.

لم تترك لهما مجالاً لنقاشها.. كانت الوالدة أمام خيار الابتعاد عن ابنتها والأحفاد ربما إلى الأبد أو الابتعاد عن الأهل والمحيط، والانطلاق في حياة جديدة تجهل كل شي عنها. وهكذا حصل...

لا أحد من أصدقاء العائلة المقربين يعرف ما إذا كان سليم أو ماري قد زارا إسرائيل قبل قرار الهجرة للاستطلاع. لكن ما يتذكره الأصحاب أن ماري أبلغت عدداً محدوداً من المقربين بأنها قررت الذهاب إلى إسرائيل، وأنها ربطت ذلك بضيق الحال وخشيتها على مصير بناتها في لبنان.. فيما تولى سليم إبلاغ مسؤوله الحزبي ميشال بقراره.

رحلت العائلة، ماري وزوجها وبناتها السبع وابنها الوحيد والأم.. كان ذلك بعد حرب العام 1967.

لم تحاول ماري الاتصال بأحد من أصدقائها أو معارفها السابقين. ولم ترسل أية رسالة. كان الأصدقاء قد سمعوا عن مكتب في قبرص يتلقى الرسائل من إسرائيل فيعمد إلى تغيير مظروفها لإخفاء مصدرها ثم يرسلها إلى لبنان وكأن مصدرها قبرص، لكن ماري، كما تقول صديقتها جانيت ابنة

النقابي ميشال، لم تستعمل هذه الوسيلة وإلا لكان أحد سمع منها شيئاً.

كانت جانيت من القلائل الذين عرفوا بقرار ماري وسليم، والهواجس التي كانت تقلق العائلة. وهي تتحدث عن صديقتها ماري بحنين ترتسم معه ابتسامة وإصرار على إبراز مسكة حقيبة نحاسية صنعها لها سليم عند زواجها من أمين، وفصلت لها حقيبة ما زالت تخبئها حتى يومنا هذا للذكرى.

وتروي كيف أن والدها ميشال تعرض للتوقيف أربعة أيام على أيدي الأجهزة الأمنية، بتهمة التجسس لإسرائيل بعدما دلت التحريات أن عدداً من اليهود كانوا يجتمعون عنده في البيت في بناية سنو في وادي أبو جميل.

وقد خضع للتحقيق والضرب ولأسئلة متكررة عن علاقته بسليم وغيره من الذين غادروا إلى إسرائيل. كان ميشال قد أوقف مرات عدة سابقاً لاتهامه بالقيام بنشاطات معادية للدولة اللبنانية أيام حظر الحزب الشيوعي، لكن توقيفه هذا هو الأول بعد رفع الحظر عن الحزب.

يوم اعتقال والدها كانت جانيت في منزل ذويها مع والديها. اقتحم الدرك المنزل من دون استئذان. وأخرجوا والدها بالقوة، ثم عمدوا إلى تفتيش البيت. كما عمدوا إلى ضرب الجدران بأعقاب البنادق بحجة احتمال وجود سلاح مخبّأ فيها. وقد بقيت آثار الضرب بأعقاب البنادق فترة طويلة بعد ذلك على تلك الجدران بعد أن أدت محاولات البحث عن السلاح إلى اهتراء القشرة الخارجية للدهان وبروز الدهان القديم.

وفي أثناء التفتيش، أثارت صورة ملونة لرجل مسنّ ملتح انتباه أحد الجنود.

كانت تلك الصورة للكاتب الروسي ليون تولستوي وقد رفعها ميشال على أحد جدران منزله الأساسية في صدر قاعة الجلوس، كسلوك تحدّ وتأكيد على انتماءٍ ما للمكان الذي أتى منه الكاتب والذي شهد ثورة للفقراء

تريد أن توحد العمال في العالم. لم يكن ميشال يتجرأ على رفع صور لينين وماركس فالحزب كان محظوراً، وقد جاء البديل بالنسبة له صورة الكاتب الروسي التي بقيت مكانها حتى بعد أن بات استبدالها ممكناً.

تقدم الجندي بشكل تدريجي من الصورة في محاولة لتحديد هوية صاحبها، ولما عجز، سأل زوجة ميشال عمن يكون. ارتبكت الزوجة للسؤال خشية أن يزيد تحديد هوية صاحب الصورة وضع زوجها سوءاً فيُتهم برفع رموز محظورة.

فسارعت للإجابة بصوت حازم: هذا جدي.

نظر الجندي إلى زوجة النقابي، واستدار مرات عدة وحدق في الصورة، ثم خرج بعد أن علق على ما قالته بالقول: «العمى شو بشع جدك».

لم تكن زوجة ميشال تعرف أصلاً لماذا قرر شريك عمرها أن يضع تلك الصورة على ذلك الجدار؟ هل هي بديل للينين أو لستالين؟ هل لمجرد كونه آتياً من بلاد ثورة البولشفيك؟

تمتمت كلمات التذمر أمام ابنتها، واتجهت نحو نافذة منزلها الأرضي لرؤية زوجها الذي أُخرج من منزله مخفوراً ورُمي في العربة العسكرية للدرك.

إنتشر خبر توقيف ميشال في الحي، أما السبب فقد بقي مجهولاً.. وصل الخبر إلى أنطوانيت صديقة جانيت.

كانت أنطوانيت تشتري الخبز من فرن حمدان في الوادي عندما سمعت الجيران يتحدثون عن المداهمة، دفعت ثمن الخبز وهرولت مسرعة عند آل حنينه.

لم تكن جانيت ووالدتها تعرفان سبب التوقيف، فتهمة استضافة يهود غادروا إلى إسرائيل والعمالة لإسرائيل وُجهت أثناء المحاكمة، ولم تبلّغ للعائلة أثناء التوقيف. فالدولة اللبنانية لم تكن يومها ترغب في إثارة حملات

خارجية ضدها على خلفية التضييق على اليهود، ومنعهم من السفر، لذلك اختارت المتابعة والمراقبة وليس المنع. تذكر جانيت أنه في تلك الفترة أُثير الموضوع في الدوائر الرسمية وقررت الحكومة اللبنانية استدعاء ممثلي الطائفة للبحث معهم في أسباب الرحيل الكثيف لليهود.

لهذه الأسباب، أثارت التهمة استغراب العائلة والرفاق والأصدقاء، لأن السلطات اللبنانية كانت تتجاهل كل ما يجري على مستوى الهجرة اليهودية. كما كانت تتجاهل نشاط الوكالات والأفراد الذين كانوا يؤمنونها. فالسلطات اللبنانية، حسب الاعتقاد الذي ساد في تلك الفترة، كانت تعلم بتفاصيل إجراءات الرحيل. كما كانت تعلم بالسفر الذي كان كثيفاً في تلك الفترة، وتعلم أيضاً بالزيارات إلى إسرائيل عن طريق قبرص، لكن أي إجراء لم يتخذ لأن القرار في تلك الفترة كان بعدم العرقلة. فلماذا جرت ملاحقة ميشال وغيره بتهمة العمالة لمجرد وجود أصدقاء لديه من الطائفة اليهودية اختفوا، وربّما يكونون قد غادروا إلى إسرائيل؟ كما رددت جانيت وهي تخبر صديقتها عن تفاصيل توقيف والدها.

لم تفارق جانيت والدتها طوال فترة احتجاز والدها، وكانت أنطوانيت تتردد عليهما يومياً تقريباً للاطمئنان. وفي اليوم الرابع على الاحتجاز بدأت المحاكمة. سهرت أنطوانيت في تلك الليلة عند آل حنينه، وأمضت جانيت وصديقتها الليل يتحدثان عن ماري وسليم.

فأنطوانيت، هي الأخرى، من الأصدقاء المقربين من آل مزراحي، لأنها في الأساس جارة سليم منذ طفولتها وأصبحت صديقة ماري الحميمة بعد زواجها.

فهي ابنة صاحب الملك، شاغل الطابق العلوي في البناء الذي سكنه سليم لسنوات وتحول إلى منزله الزوجي في ما بعد، وهي ما زالت تحمل على كتفها وعنقها آثار حروق كادت أن تقتلها لولا تدخل سليم لنجدتها.

يومها كانت وحدها في المنزل، أمها تركتها لإتمام بعض المشتريات. وفي غيابها اندلع حريق وبدأ يلتهم الأثاث. صودف وجود سليم في منزله، هرول راكضاً إلى الطابق العلوي، خلع الباب ونقل أنطوانيت إلى مستشفى السان تيريز القريب، منقذاً بذلك حياتها.

روت أنطوانيت في تلك السهرة كيف صُدمت عندما أسرّت لها ماري بقرارها الرحيلَ إلى إسرائيل، وكيف زادت صدمتها عندما سمعت الجواب على سؤالها عن كيفية تحمّلها هذا القرار، ومن أين ستأتي بالإرادة لمواجهته؟

وأخبرت صديقتها جانيت عن الثقة العالية التي أُعلن فيها هذا الجواب، فقد كانت ماري جازمة بأنها ستعود للزيارة قريباً عن طريق جنوب لبنان. ذكّرت صديقتها أنطوانيت بقرب المسافة، وقالت لها إن الأوضاع لن تطول على هذا المنوال، وإن الزيارات لا بد ستستأنف، وقريباً، فالصلح آت.

كانت أنطوانيت تتابع يوميات شحن العفش إلى إسرائيل عن طريق قبرص، فهي الجارة الأقرب، وإبلاغها يخفف الإحراج، لأنها لو لاحظت تلك الاستعدادات من دون أن تكون قد أُخطرت، لكانت عتبت عتباً شديداً على سليم وماري لإخفاء خبرٍ كهذا عنها.

لم تعمم ماري خبر الرحيل على كلِّ أصدقائها المقربين، فهي خشيت أن تُتّهم بالخيانة. وأكثر ما خافت منه هو نظرة الشك التى سترتسم حتماً على وجوههم لو أخبرتهم أنها راحلة إلى إسرائيل. كيف لا وغالبية أصدقائها المقربين يعتبرون إسرائيل عدواً.

أما جرأتها في اتخاذ قرار بهذا الحجم فلم تكن هي نفسها في إبلاغ قرارها، خاصة إلى رفاقها في الحزب. ماذا ستقول لهم؟ أتقول إنها قررت الهجرة الى «أرض العدو»؟ وهي التي شاطرتهم الرأي على مر السنين حول النظرة إلى إسرائيل، «الدولة التي قامت على أراضي الغير من دون وجه حق؟».

وبماذا ستجيبهم، وهي تعرف تمام المعرفة أنها ستكتسب الجنسية الإسرائيلية، وستقيم على أرض جاهرت أنها «أرض فلسطينية لا يحق لأي كان أن ينزعها منهم».

ثم ماذا ستقول لهم عن ابنها ماركو؟ وهي تعرف، والجميع يعرف، أن التجنيد في إسرائيل إجباري وأن كل مواطن جندي؟ هل يمكن أن يتقبل أحد من الأصدقاء قراراً يمكن أن يصبح من خلاله ابن الرفيقة ماري والرفيق سليم مقاتلاً على الجبهات ضد العرب؟

فهل يمكن أن يتقبل أحد هذه الخطوة؟ لم تكن ماري تفكر في الجواب الحائر على أسئلتها، لأنها تعرفه، فالخيانة هي التهمة التي ستلصق بوجهها لذلك قررت ألا تفعل. وحاولت إقناع نفسها أنها لن ولا تأبه بما سيقال بعد رحيلها لأنها تخشى مواجهة هذه الاتهامات وجهاً لوجه.

تروي أنطوانيت كم بكت في يوم وداع ماري، على الرغم من تكرار صديقتها القول إن لقاءهما سيكون قريباً، وإن بين إسرائيل ولبنان حدوداً مشتركة ستكون بلا شك ممراً لاجتماعهما مجدداً.

توقعت ماري صلحاً قريباً، وإلا لما وقّع لبنان كما غيره من الدول اتفاقية الهدنة مع إسرئيل كما قالت لصديقتها. «فانتشار مراقبي الهدنة على طول الحدود مع لبنان، مؤشر إلى اهتمام دولي سوف يترجم حتماً تثبيتاً للسلام، والعلاقة التي تحكم لبنان بإسرائيل لن تقتصر على اتفاقية الهدنة لا بل ستتطور باتجاهات أخرى تسمح بالتنقل بين الدولتين».

سمعت أنطوانيت هذه التبريرات كأنها تسمع أحداً يهلوس قربها، لم تكن مؤشرات المنطقة تعطي كلام ماري أية مصداقية. صحيح أن الحزب الشيوعي اللبناني الذي كانت تنتمي إليه أيّد قرار تقسيم فلسطين لأن الاتحاد السوفياتي فعل ذلك، لكن الأصح أن الدولة اللبنانية لم تعترف بدولة إسرائيل، وأن التهديد والوعيد يصدران من كل أرجاء المنطقة.

حتى يومنا هذا، ما زالت أنطوانيت مندهشة من تفاؤل صديقتها في تلك الفترة وراضية أنها قرأت التطورات بشكل دقيق من دون أوهام. كما أنها ما زالت تتساءل عما كانت ستقوله ماري عن التطورات التي حصلت وجاءت معاكسة لكل توقعاتها.

لكن أنطوانيت متأكدة، كما تقول إن طريقة مغادرة اليهود لبنان كانت مؤشراً بحد ذاته إلى أن الأمور تتجه اتجاهات دراماتيكية وليس العكس، وإن ماري كانت تعرف أكثر من غيرها تلك الحقيقة.

فأنطوانيت، كما غيرها من سكان الوادي، كانت على موعد يومي مع خبر مغادرة عائلة أو اثنتين من الجيران وأحد سكان الحي، بصمت ومن دون ضجيج.

كان بعضهم يقول إنه قرر نقل السكن، ولكن في الواقع كانت الوجهة إسرائيل. ومن كان يهاجر الى أوروبا أو أميركا، كان يقول ويخبر نيته الهجرة وكان يُتمّ كل معاملاته علناً، فالقول الشائع إن من سافر من دون ضجيج سافر إلى إسرائيل، وإن كان كثيرون ممن أخطروا الأصحاب والجيران بنيتهم الرحيل، كانوا يقولون إنهم مهاجرون إلى أوروبا، لكنهم عملياً كانوا يغادرون إلى إسرائيل.

بقيت ماري في ذاكرة الأصدقاء وأحاديثهم، ولا سيما رفاقها في فرعية وادي أبو جميل والمزرعة. لكن الأصدقاء غالباً ما أتوا على ذكرها بشيء من الريبة والغضب، كما توقعت عندما اتخذت قرارها بالذهاب وبعدم البوح بما تخطط له، فالجو في الحزب الشيوعي، حيث غالبية أصدقاء ماري وسليم، كان مناصراً للقضية الفلسطينية إلى أقصى الحدود، وكانت دولة إسرائيل بالنسبة لهؤلاء دولة مغتصبة وعنصرية وغير شرعية.

مرت كل تلك السنوات ولم تغب ماري عن ذهن أنطوانيت. كانت تسأل نفسها دائماً «أما تزال صديقتها تحن إلى لبنان وتذكر الأصدقاء القدامى؟».

لكن جوابها كان أيضاً هو نفسه دائماً، بأنها لو كانت كذلك بالفعل لكانت قد حاولت الاتصال والاطمئنان، لكنها لم تفعل على الرغم من كل الظروف التي مرت على لبنان.

فالحروب الداخلية تتالت بعد أن اندلعت أولى شراراتها عام 1975 في وسط بيروت، وتحولت منطقة وادي أبو جميل إلى خط تماسّ ومرتعاً للمسلحين، ما اضطر أنطوانيت إلى تغيير مكان سكنها، وانتقلت مع عائلتها إلى منطقة كسروان المسيحية شرقي العاصمة اللبنانية بيروت.

غادرت أنطوانيت المنزل الذي تعرفت فيه بداية إلى سليم مستأجراً شاباً قادماً من العراق، وإلى ماري لاحقاً بعد زواجها. وباتت أنطوانيت بعيدة عن خطوط التماسّ، وبعيدة عن الأحداث، وامتنعت عن متابعة الأخبار وعن قراءة الصحف. فهي في الأساس ليست مسيسة ولا تعني لها السياسة شيئاً. لكن تطورات صيف 1982 أعادتها إلى الكرسي المقابل للشاشة الصغيرة. وباتت تنتظر مواعيد نشرات الأخبار لمتابعة تفاصيل الاجتياح الإسرائيلي للبنان. فالعملية التي أسميت عملية الليطاني كانت تهدف إلى القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان.

في أثناء الاجتياح، وبعد انطلاقه بأسابيع قليلة، وقفت أنطوانيت على شرفة منزلها في كسروان تتابع مرور الدبابات الإسرائيلية على الطريق المقابلة. كانت القوات الإسرائيلية قد اجتاحت لبنان وتمركزت في المنطقة الشرقية حيث نصبت مرابض مدفعية تولت قصف بيروت الغربية. وأمام هذا المشهد استعادت قول ماري عن اللقاء القريب. وبدأت تطرح أسئلة تروي مضمونها وهي تضحك، عما إذا كان هذا ما قصدته ماري عن لقاء قريب؟ هل كانت تعلم بأن إسرائيل ستحتل لبنان يوماً وتصل إلى هذا العمق، ثم تفرض عليه اتفاق سلام يفتح الحدود؟

وأمام مشاهد القتلى والدمار التي كانت تنقلها الشاشات، تملكها

الغضب من تلك الدولة وكل من فيها من دون استثناء.

ولم يخفّف غضبها مشهد تظاهر عشرات الآلاف من الإسرائيليين في قلب إسرائيل ضد اجتياح لبنان.

توقعت أن تكون ماري وسليم بين هؤلاء، وتمنت لو تتأكد من ذلك فيظهر أحدهما في تلك الصور التي نقلتها الشاشات اللبنانية وكتبت عنها الصحافة اللبنانية في صدر صفحاتها الأولى.

فتظاهرة تل أبيب كانت الأضخم، وشكلت ربما التحرك الوحيد ضد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، لأن غالبية الدول العربية لم تسمح لمواطنيها بالتظاهر احتجاجاً.

وعلى الرغم من تلك الوقائع، فإن حالة السخط لدى أنطوانيت منعتها من تغيير رأيها، إذ كيف يمكن أن يكون لها أصدقاء اختاروا جنسية والعيش في بلد يجتاح بلدهم الأم ويدمّره؟

وبينما كانت سارحة في تفكيرها الغاضب على ماري وزوجها، وهي تتابع حركة الشارع أمام منزلها من دون إدراك لما يدور فيه بالفعل، شد انتباهها جيب عسكري إسرائيلي عَبَر الطريق أمامها مسرعاً وتوقف مقابل منزلها حيث مطعم وجبات سريعة.

كانت أنطوانيت في تلك الساعة في ثياب النوم، وضعت عليها عباءة وأسرعت إلى حيث دخل الجنود الإسرائيليون.

وعندما دخلت تحول نظر الجميع إليها، حدق فيها الجنود باستغراب لأنها وقفت عند الباب فقط ولم تتقدم من الصندوق لشراء أي شيء.

ثم بدأت تنظر إليهم واحداً واحداً وتسأل باللغة العربية: «هل منكم أحد من آل مزراحي؟».

ولما شعرت أنهم لا يفهمون ما تقول، رددت فقط كلمة مزراحي، وكررت «مزراحي؟» «مزراحي؟» وكانت في كل مرة تنظر في عيني أحدهم

وتسأل، إلى أن أكملت الدائرة وانتهت من سؤال الجنود الأربعة.

لم تكترث أنطوانيت لنظرات صاحب المحل المتعجبة ومحاولته إسكاتها بتكراره القول بأنهم لا يفهمون العربية.

لم يجبها أحد من الجنود في المطعم لا بل لم يكترثوا لسؤالها ووجودها.

نظروا إليها عندما دخلت، ثم أداروا لها ظهورهم متجاهلين أسئلتها، وانهمكوا في التهام ساندويتشات الدجاج التي طلبوها.

ولما حاولت السؤال من جديد، كان الحديث قد تحول عنها عندما اعترض صاحب المحل على دفع الجنود له بدل ما طلبوه بالعملة الإسرائيلية الشيكل.

وخرج من خلف طاولة المحاسبة باتجاههم حاملاً العملة الإسرائيلية مردداً:

- No no.. dollars?

حاول إفهامهم أن ما قبضه من مال غير قابل للصرف، وأنه يريد ليرة لبنانية أو دولاراً.

وقفت أنطوانيت ثواني تتابع حوار جارها صاحب المطعم والجنود، ثم عادت إلى منزلها مستغربة فعلتها غير الواعية وغير المسؤولة، متسائلة عما كانت ستفعل لو كان بين هؤلاء فعلاً أحدٌ من آل مزراحي؟ وما معنى أن يكون هنالك أحد من هذه العائلة؟ هل بالضرورة أن يكون على معرفة بماري؟ كيف فعلت ذلك؟ فهي كادت أن تثير الريبة من فعلتها، لعل أحداً لا يعرفها، رآها وظن أنها على علاقة بجنود إسرائيليين تسأل عنهم فيتهمها بالعمالة؟ ثم كيف كانت ستتصرف لو كان ماركو ابن ماري بين هؤلاء؟ كيف كانت ستتعاطى معه؟ فهو جاء إلى لبنان في اجتياح وعلى ظهر دبابة وهي بالتالي لا يمكن أن تسامحه؟ لامت نفسها على فعلتها، فما نفع السؤال والبحث؟ فقد أصبح الأصدقاء في المقلب الآخر، المقلب المعادي تماماً، أما

الصلة مع الماضي فقد باتت بفعل كل تلك التطورات مستحيلة.

تحدثت أنطوانيت مع نفسها مثل المجانين وبعصبية، إذ كيف لها أن تسعى للسؤال عن هؤلاء الأصدقاء بعد كل الذي يجري في لبنان؟ فهم لم يسألوا عنها أصلاً، رغم كل ما جرى، حتى أنها باتت تشك في موقفهم وتعتقد أنهم ربما كانوا من المؤيدين.. ثم وعدت نفسها بأنها ستعتبر قصة صداقتها للذكرى فقط من دون أمل باللقاء أو رهان على احتمالات من هذا النوع.

خطر ببالها مرات عدة أن لقاءها تلك العائلة مجدداً أمر غير مستحيل خاصة عندما كانت تصادف مقالات في صحف بيروت تشير إلى سعي إسرائيل لفرض اتفاق صلح مع لبنان.

كانت تلك التوقعات قد تصاعدت مع التوجه لفرض انتخاب بشير الجميل قائد القوات اللبنانية في تلك الفترة، ونجل مؤسس حزب الكتائب، لرئاسة الجمهورية. كما أن هذا التوجه تعزز وبدأ الكلام الصريح عنه مع بدء الاجتياح الإسرائيلي. فبشير زار إسرائيل مراراً للبحث والتنسيق في كيفية مواجهة «الخطر المشترك المتمثل بالفلسطينيين» في حين كانت إسرائيل تريد أن يقوم في لبنان حكم حليف لها علّ ذلك ينسحب على بقية الدول العربية.

نظرت أنطوانيت إلى صديقتها جانيت في لقاء جمعهما بعد أعوام على اجتياح إسرائيل، وهي تروي تلك الحادثة، وتتحدث عن ملامتها لنفسها وكأنها تتوقع تعليقاً يعتبر ما فعلته طبيعياً. صمتت وانتظرت ما ستقوله صديقتها. لكن جانيت لم تعلق على ما سمعته، لا بل نظرت إليها مطولاً، وببرودة تعجبت لها أنطوانيت، قالت إن ماركو أتى إلى لبنان فعلاً جندياً في الجيش الإسرائيلي.

قدمت أنطوانيت رأسها إلى أمام، في حركة استغراب ودهشة، اقتربت من صديقتها حتى باتت جالسة على حافة الكرسي وفتحت عينيها بانتظار

المزيد.

بعد أسابيع قليلة على مواجهة أنطوانيت الجنود في المطعم المقابل لمنزلها، وصل الاجتياح الإسرائيلي إلى بيروت. وحوصرت العاصمة تسعين يوماً قبل أن تدخلها القوات الإسرائيلية.

وفي اليوم التالي على دخول القوات الإسرائيلية بيروت، كان وديع ابن سعيد الميكانيكي الذي لم يترك الوادي خلال الحرب يلعب مع شقيقه فادي على الطريق أمام منزله في شارع فرنسا.

كان الطريق فارغاً، فالحركة في بيروت شبه مشلولة، رغم هدوء المدافع. معظم السكان الذين غادروا لم يعودوا. ولم يبق إلا القليل القليل من أهالي بيروت الذين قرروا عدم مغادرة منازلهم، وبينهم سعيد.

كان الهدوء يلف المكان، ولم يكن يقطعه سوى ركلات وديع وشقيقه للكرة التي كانوا يلهون بها. فأجواء كرة القدم كانت ما تزال مخيمة في ذلك الصيف الذي شهد بطولة كأس العالم. يومها ربحت إيطاليا الدولة المضيفة الكأس وقدمته للشعب الفلسطيني احتجاجاً على اجتياح لبنان. لبس وديع قميصاً رُسم عليه العلم الإيطالي، وحمل رقم الهدّاف الإيطالي «روسي» واسمه الذي لمع في تلك الدورة.

كان سعيد على شرفته يدخن سيجارة ويتابع حركة الكرة، مطمئناً إلى أن ولديه أمام المنزل وتحت نظره. لكن هدير سيارة قطع عليه شروده. استدار إلى مصدر الهدير ليرى جيباً عسكرياً إسرائيليا يتقدم باتجاه الشارع وفيه ثلاثة جنود. توقف أمام المبنى تماماً.

رأى سعيد من شرفته جندياً إسرائيلياً يؤشر الى ابنه بالاقتراب. ارتعب، لكنه لم يقم بردة فعل خشية إخافة الجنود فيؤذون ابنه.

تقدم فادي من الجندي ولحقه شقيقه. لم يسمع سعيد من شرفته ما دار من حديث، فزاد ارتيابه ولم ينتظر أكثر للتأكد مما يجري، فهرول باتجاه أولاده

والجيب، واقترب وفي نظراته علامات الاستفهام.

أبلغه ابنه أن الجندي يسأل بالاسم عن بعض الجيران. وعندما استدار سعيد باتجاه الجيب ترجّل الجندي وتقدم باتجاهه وسأله بهدوء وهو يؤشر بيده إلى نافذة مقفلة في الطابق الأرضي وقد غطّى الغبار لونها الأخضر الأساسي: «هل ما زال ميشال يعيش في هذا المنزل»؟، ثم رفع يده باتجاه الطابق الأول وأكمل سائلاً: «بيت ميمو ما زالوا هنا؟» سال الجندي سعيد بالعربية وبقي ينتظر جوابه.

أبلغ سعيد الجندي الإسرائيلي أن ميشال في منزله الصيفي في ضيعته بكاسين، أما آل ميمو فهم بالفعل في الطابق الثاني.

ربط سعيد السؤال عن جاره ميشال بنشاط جاره الحزبي فلم يستغرب، لكنه ارتاب لسؤال العسكري الإسرائيلي عن عائلة ميمو. وهي عائلة تقطن الوادي منذ زمن بعيد، ومعروفة بعدم انتمائها إلى أي تنظيم سياسي، فلماذا السؤال؟

وبينما كان سعيد يتحدث إلى الجندي، محاولاً شرح هذه الوقائع والاستفسار عما يريده، هرع الفتى وديع على السلم راكضاً وقرع باب العائلة.

ولما فتحت حنة ميمو الباب، أخبرها أن جندياً إسرائيلياً مع مجموعة عسكريين يسأل عن عائلتها، لم يكمل جملته حتى أصبح الجندي خلفه حاملاً سلاحه وينظر إلى حنة مبتسماً.

كانت حنة، بفعل الجيرة مع الخواجة ميشال وعلاقة الصداقة التي تربطها بالعائلة، على معرفة بآل مزراحي. وكانت ماري تقصدها للزيارة من حين لآخر، كما أنها هي أيضا كانت تزور آل مزراحي مع جيرانها.

سارع ماركو لتخفيف هلع حنة البادي في عينيها وعلى وجهها، بالكلام بلغة عربية واضحة وبادرها بالسؤال: «تنت حنة»؟ وعندما هزت رأسها

مؤكدة أنها حنة قال لها:

«أنا ماركو ابن ماري وسليم هل تذكرين؟».

ماركو؟ سألت حنة مندهشة. «أنت ماركو ابن ماري وسليم؟».

ثم صمتت قليلاً وراحت تحاول استعادة صورة الأصدقاء القدامى الذين تعرفت إليهم عند جارها ميشال، وحدقت في وجهه محاولة التأكد من هويته، فهي لم تره منذ العام 1967. كان عمره يومها خمسة عشر عاماً، بعمر ابنها الصغير. احتارت كيف تتصرف معه، تراجعت قليلاً فاتحة أمامه مدخل المنزل، ومن دون أن تدعوه للدخول، تقدم الجندي باتجاه غرفة الجلوس، واختار كرسياً قرب الباب ووضع البندقية قربه دون أن يبعدها، ودون أن يرفع يده عنها وراح يخبرها عن العائلة.

قال ماركو، رداً على أسئلتها المتكررة، أنه على اتصال مع والدته، لكنه لم يكن يعرف أنه سيدخل بيروت. كما أنه لم يكن ليصدق أن الحي ما زال كما هو، وأن العائلة الصديقة التي كان يتردد عليها صغيراً ما زالت حيث هي.

كانت حنة قد سمعت من جيرانها أن ماركو دخل الجيش الإسرائيلي فعلاً. لقد سبق أن أرسل صورته بالثياب العسكرية إلى صديقه باسم ابن ميشال، وأخبره أنه أصبح جندياً في الجيش. كانت تعرف تلك القصة وتعرف أيضاً أن ماركو أرسل رسائل عدة لصديقه لعدة أشهر بعد أن غادر إلى إسرائيل قبل أن تنقطع الصلة كلياً.

فقد أخبر باسم الجيران المقربين أنه استلم منه رسالة أولى بعد أسابيع من الرحيل، أبلغه فيها أنه غير مرتاح، وأن هنالك ارتياباً من اليهود الآتين من الدول العربية. كما أن معاملتهم مختلفة عن معاملة اليهود الآتين من دول أوروبية. وقال له إن العائلة وجدت في البداية الحياة مستحيلة وصعبة.

وفي الرسالة الثانية أرسل له صورته بثياب الجيش، وأبلغه أنه يخضع

للتجنيد الإجباري، وأنه جندي في الاحتياط، وطلب منه أن يكتب له ويخبره عن أحواله. لكن باسم لم يفعل. خاف من الملاحقة وهو خاف حتى من استمرار تلك الرسائل عن طريق قبرص.

يذكر أنه حاول أن يرسل لصديقه هدية مع خاله إسبر شقيق ماري عندما التحق بالعائلة. فإسبر زار والد باسم ليخبره أنه سيلتحق بشقيقته بعد أن أبلغ أن معاملته أنجزت. يومها كان باسم في المنزل فأوصى بنقل سلامه لماركو.

لكنه عاد وقرر إرسال هدية صغيرة لصديقه مع خاله. وفي اليوم التالي حملها إلى منزل إسبر مقابل الكنيس، حيث كانت ماري وسليم يسكنان. قرع الباب وانتظر لكن أحداً لم يفتح. وبعد دقائق خرج أحد الجيران بعدما دق باسم على الباب بعنف، لعل إسبر لم يسمع.

وأبلغه ذلك الرجل أن جاره إسبر غادر في ساعات الفجر الأولى، وأنه انتقل إلى منزل آخر في بيروت لكنه لا يعرف عنوانه.. عرف باسم أن إسبر غادر إلى قبرص ومنها إلى إسرائيل مستغرباً كيف أنه لم يقل إن رحيله سيتم بهذه السرعة عندما زار والده قبل يوم فقط، وربما قبل ساعات على رحيله.

استعادت حنة تلك الرواية وهي تنظر إلى ماركو، وتذكرت أيضاً أن باسم نقل عنه قوله عندما ودعه إنه يستبعد أن يعود إلى لبنان يوماً لأن اليهود الذين يغادرون إلى إسرائيل سوف يلاحَقون من قبل السلطات اللبنانية في حال قرروا العودة. هزت حنة رأسها ودارت بعيونها متفحصّة الجندي الذي عاد، وبخلاف توقعاته، جندياً على ظهر دبابة جيش احتلال..

كان لدى الجندي الإسرائيلي أسماء عديدة لأصدقاء مقربين من أمه للسؤال عنهم، لكنه لم يجد في الحي إلا حنة، أما الباقون فغادروا، إما هرباً من الاجتياح وحصار بيروت، وإما بفعل أحداث العام 1975. فالحرب الأهلية انطلقت شرارتها الأولى من منطقة الفنادق على تخوم الوادي، وكثير

من معارف العائلة السابقين غادروا الحي. أما صديقه باسم الذي كان أول من سأل عنه فقد قالت له حنة إنه بات يعمل في الخليج بعد أن دمرت الحرب المكان الذي كان يعمل فيه بالوادي.

بقي سعيد الميكانيكي منتظراً في الشارع، مرتاباً من زيارة الجندي لآل ميمو، مستغرباً من أين أتى باسم بيت ميمو، من هو هذا العميل الخائن الذي زوّد الإسرائيليين بأسماء جيران أوادم لا يتعاطون السياسة؟

راح سعيد يحاول تحليل أهداف هذا العميل؟ هل لديه ثارات سابقة؟ هل أدان مبلغاً من المال لآل ميمو أو الخواجة ميشال وأراد استرجاعه فجاء هذا الجندي للضغط والابتزاز؟ أم ماذا؟ هل هو صاحب الملك يريد أن يخرجهما من دون تعويض علّه يؤجر منزله بسعر أعلى لاحقاً؟ وإلا لماذا لم يسأل الجندي عنه شخصياً إنما فقط عن هذين الشخصين؟ وهو المعروف بعدائه لإسرائيل وجهره بذلك؟

لكن سعيد سرعان ما اكتشف أن تحليله ليس في مكانه عندما أبلغه ابنه أن الجندي عرّف عن نفسه على أنه ماركو، وبادر حنة بسؤالها هل هي «تانت حنة؟».

احتار سعيد لما سمعه للتوّ. وأخذ يردد كلمة «تانت» ويقول سائلاً ابنه «تانت حنة؟» !«أنت متأكد ؟ هل هذا ما كان يقوله؟».

فهذه الكلمة لا تستخدم إلا بين المعارف، وتساءل من أين يعرف هذا الجندي جارته حنة؟

ثم خلص إلى استنتاج واحد أوحد أن «عائلة ميمو ودون أدنى شك عميلة للقوات الإسرائيلية وميشال كذلك؟».

الخواجة ميشال موجود الآن في بكاسين في الجنوب، من حيث دخلت القوات الإسرائيلية، «ولا بد أن يكون جاره ميشال قد نسج علاقات هنالك وجند حنة للعمل معه».

شعر بالاشمئزاز، وبرودة في جسمه، وكأن أحداً رمى عليه ماء بارداً. كما بدأ يشعر بلمعان في رأسه؟

بدا متوجساً إزاء ما يمكن أن يكون مضمون الحديث الدائر حالياً في الطابق الأول، فربما يكون عنه هو، لأنه، وفي أثناء حصار بيروت، وعندما كان يلتقي حنة في ملجأ بنك الريف القريب، في الطابق الثالث تحت الأرض حيث كان أهل الحي يختبئون هرباً من القصف وحيث كان اتحاد الشباب الديمقراطي التابع للحزب الشيوعي يديره، كان يعبّر عن غضب شديد من جرائم هذا «العدو». وتذكر أن حنة كانت قليلة الكلام، تنزوي ولا تتحدث، مع أنها معروفة بالحي بأنها «أم خبار».

نظر سعيد من حوله في الشارع الفارغ لرسم خطة الفرار، لأنه حتماً هو المقصود من هذه الزيارة، واقتنع أن الجندي الإسرائيلي سوف يعتقله مباشرة بعد نزوله من منزل حنة، لكنه خاف الهرب، فالجيب الإسرائيلي ما زال على الرصيف أمام المبنى وفيه جنديان ينظران ويحدقان فيه ما زاد من ارتيابه. ثم نادى على ولديه وطلب منهما الصعود إلى المنزل كي لا تحصل عملية توقيفه أمام أعين ولديه فيصدما.

وبينما كان يجادل ولديه بحدة، بعدما رفضا الامتثال لأوامره بالدخول إلى المنزل، مر الجندي الإسرائيلي الزائر بقربه من دون أن يلتفت إليه. تناول خوذته من المعقد الأمامي حيث كان يجلس ووضعها على رأسه ثم، وبينما كان يتحدث مع زميليه بالعبرية وهو يبتسم، لبس السترة الواقية من الرصاص وأحكم إقفالها، وصعد إلى الجيب الذي انطلق عائداً باتجاه الحمرا. وما إن اختفى الجيب الإسرائيلي حتى كان سعيد يقرع باب جارته بقوة.

أخبرته حنة قصة هذا الجندي، وقصة أهله المتحدرين من لبنان. فسعيد لم يكن من سكان الحي القدامى. كان قد انتقل إلى الوادي في السبعينات، قبل سنوات قليلة على اندلاع الحرب، وهو بالتالي لم يعايش فترة ما كان يعرف

بوادي اليهود، ولا يعرف أحداً من تلك العائلات التي سكنت الحي.

غضب سعيد غضباً شديداً، لام حنة لوماً شديداً على استقبالها لجندي محتل، شتم الجندي وعائلته «فهؤلاء أعداء لبنان وليسوا لبنانيين، ووقحون، من أين لديهم الجرأة للتعريف عن أنفسهم، ألا يخجلون؟ ثم يأتون للسؤال؟ ماذا لو أصابت إحدى قذائفهم بيوتنا؟ ماذا لو قتلنا فيها؟ ماذا لو دُمرت منازلنا، نحن جيرانهم السابقون؟! كيف يتوقع هذا اللبناني الأصل استقباله؟ ماذا عن القتلى الذين سقطوا في الاجتياح؟ وماذا عن الذين هُجّروا؟ وماذا عن الدمار الكبير؟».

كان سعيد يتحدث بغضب وبصوت منخفض خشية أن يسمعه أحد، ويشي به للجنود الإسرائيليين فيعودوا لاعتقاله بعد أن نجا من الزيارة الأولى.

كانت حنة تستمع وتهز رأسها من دون تعليق، فهي ما زالت متوترة ومندهشة من تلك الزيارة ومن أخبار من لم تسمع منهم منذ سنوات طويلة.

وقد زاد سكوتها غضب سعيد، كانت تنظر إليه ولا تسمع ما يقول، ولا تفهم ملامح وجهه الغاضبة وحركة يديه في كل اتجاه، وانزعجت من صوته المرتفع، الذي قطع عليها شرودها في ما أعاده هذا اللقاء من ذكريات.

خرج سعيد من منزل حنة وأقفل الباب وراءه بقوة محدثاً دوياً جعل حنة ترتجف في مكانها. قرر مقاطعتها والتوقف عن زيارتها، وبات عندما يصادفها في الحي يلقي عليها التحية ببرودة، هذا إذا وقعت عيناه على عينيها لأنه اتخذ قراراً بتجنبها كي لا «تشمسه» فيعتقد الناس أنه «عميل» مثلها وعضو في نفس شبكتها.

ولما عاد الخواجة ميشال من منزله الصيفي في بكاسين بعد هدوء الأحوال وبدأ فصل الخريف، زاره محمود، جلس وبدا جدياً ثم كرر على

مسامعه نفس عبارات الملامة التي واجه بها حنة، وبدأت نبرة صوته ترتفع عندما قابل ميشال حديث جاره بعدم التعليق.

بقي حديث الحي لفترة طويلة عن ابن سليم وماري الذي أتى مع الجيش الإسرائيلي وزار الحي للسؤال عن جيران أهله السابقين.

لم يعد الجندي الإسرائيلي ماركو مزراحي إلى الحي ثانية، ولا يعرف ما إذا كان قد خدم في لبنان فترة الاحتلال الإسرائيلي وما إذا كان ما يزال في الجيش.

عبادي تحوّل إلى حمداني

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، كان موسى في سن الخامسة عشرة.

في شبابه بدا ميالاً الى متابعة الشؤون السياسية، ليس فقط ما يتعلق ببلده إيران إنما خارجها أيضاً. وهو تعلم العربية الى جانب العبرية والفارسية، لأن إيران كما كان يردد والده على مسامعه، تقع في محيط عربي ولا يمكن لتاجر يريد أن يتوسع وأن ينجح من دون الإلمام بها، حتى ولو كان يتاجر بالورق..

فقد امتهن إسحق، والد موسى، صناعة الورق بعد أن ورثها عن أبيه. وكان حريصاً على تعليم ابنه منذ صغره أصولها، فصار يأخذه معه الى مصنعه في طهران أيام العطل.

كان إسحق قريباً من أوساط الشاه رضا بهلوي، فهو عرف كيف ينسج علاقات مع الدوائر العليا، ما سهّل عليه عمله ووسع دائرة تصريف إنتاجه حتى بات مصدر قرطاسية الدوائر الرسمية لفترة طويلة. لكن اندلاع الحرب العالمية الثانية غيّر حياة العائلة. فغالبية المواد الأولية كان مصدرها أوروبا، والحرب قطعت السبل أمام استمرار تدفق البضاعة ورفعت أسعارها بشكل هائل. فتراجع المبيع وتراجع إنتاج المعمل.

لم يأسف موسى لما يجري لأن القضاء على هتلر أمر تفرح له القلوب بعد أن نكّل باليهود في أوروبا. وعندما انتصر الحلفاء شعر بنصر شخصي

بعد أن اجتاحه شعور بالثأر لم يُشبعه سوى خبر انتحار زعيم الرايخ. لكن إسحق لم يشاطر ابنه الحماسة نفسها، فهو وبخلاف موسى لم يكن يرغب بانتصار الحلفاء. كما أنه لم يبد أي انزعاج أو انفعال عندما سمع بالتواتر أخبار تزويد الشاه لهتلر بالوقود. إلا أنه كان شديد القلق على عمله، فقد اضطر بداية لصرف قسم كبير من الموظفين، وفاتح من بقي من هؤلاء أنه قد يغلق المصنع نهائياً في حال استمر الوضع بالتراجع. وهذا ما حصل بالفعل بعد أن تصاعد التوتر بين الحلفاء وإيران على خلفية موقف رضا بهلوي الداعم لهتلر، فصرف من بقي من الموظفين وأقفل مصنعه بعد أن أطاح محمد بوالده رضا بهلوي وأجبره على الإقامة في الخارج.

فرض تطور الأحداث في إيران على عائلة حمداني البحث عن خطط للخروج من إيران، لكن رهان الوالد على إمكانية ترتيب الأمور واستئناف العمل جعله يفكر كأولوية بالبحث عن مخرج لابنه.

بدأ إسحق يتحرك قبل أن يبلغ موسى بقراره، فاتصل بأقارب له في لبنان وسألهم النصح. وفي جلسة عشاء وبعد إتمام الصلاة وقوفاً، نظر إسحق إلى ابنه وطلب إليه الخروج من إيران والبحث عن مستقبله في الخارج. دُهش موسى لما قيل من دون مقدمات. لم ينظر إليه والده وبدا غير منتظر لأي تعليق، وقف وتوجه إلى قبالة مرآة صغيرة وضعت فوق مغسلة في غرفة الطعام، ثبت قلنسوته على رأسه بإبرة، ولما عاد إلى الطاولة سأله موسى عن الوجهة وعما سيفعله. ومن دون أن ينظر إليه قال: «لبنان، ستذهب إلى لبنان» وأمام استغراب ابنه أخبره أنه تحدث إلى صديق له هاجر من إيران قبل عامين وهو مرتاح جداً، فلبنان بلد فريد بين دول المنطقة في الجمال والطقس والمجالات المفتوحة كما قال له. واسترسل الوالد في شرح انطباعات صديقه عن الحياة العادية والطبيعية التي يعيشها اليهود، وكيف يمارسون شعائرهم الدينية من دون أن يشعروا أنهم أقلية.

كان من حسن حظ موسى أن جواز السفر الإيراني بفعل اتفاق خاص بين إيران والدولة اللبنانية، صالح للإقامة في لبنان حتى أن السفارة الإيرانية في بيروت كانت تتولى منح جوازات سفر إيرانية لعدد من السوريين مقابل بدل مالي.

بدأ موسى ترتيبات الرحيل. وفي الدائرة الحكومية حيث تُقدم طلبات إصدار جوازات سفر، صادف إيرانيين كثراً يستعدون للسفر إلى لبنان. فاطمأن إلى أنه ليس وحيداً في مسعاه هذا. لكن ذلك لم يخفف قلق السفر إلى بلد للمرة الأولى، وإلى حيث يمكن أن يصبح بلد الإقامة الدائم مع أنه يعرف لغته كتابة وقراءة ومحادثة.

مضت أشهر قبل أن يتمم ترتيباته. فكان يلاحق أوراقه ببطء وكأنه يريد أن يكسب وقتاً أطول قبل هجرته الأولى هذه.

وصل موسى إلى لبنان براً بعد أربعة أيام على انطلاقه من طهران عن طريق العراق فسوريا. بات لياليه الأولى في أوتيل «تل أبيب» في وادي أبو جميل. فقد أعطي عنوانه من أحد أقاربه الذي زار لبنان للسياحة.ونصحه بالاتصال فور وصوله بيوسف باريانتيه أحد الشركاء الأساسيين في الفندق، إلى جانب شريكين من آل كوهين وآخر من آل صفرا. فالتسعيرة لليهود القادمين من الخارج خاصة. وطمأنه قريبه إلى أن الشركاء الثلاثة كانوا يتناوبون على التواجد في الفندق لمتابعة حسن سيره وهو بالتالي سيجد أحدهم عند وصوله. ومن باب الاحتياط أعطاه أيضاً عنوان بانسيون آخر يملكه واحد من يهود لبنان من آل سرور في شارع فرنسا، وإلا فقد نصحه بالتوجه إلى بانسيون يملكه يهودي أيضاً واسمه «سفير» يقع كذلك في شارع فرنسا في وادي أبو جميل.

وفي اليوم التالي لوصوله بدأ البحث عن منزل يستأجره وعن مكان محتمل لإنشاء مصنع. فقد حمّله والده بعض المال لتأسيس مصنع للورق

وهي المهنة التي لا يجيد غيرها. واتصل لهذه الغاية بمعارف له كانوا في طهران وبممثلي الطائفة في لبنان للبحث في ترتيبات الإقامة والاحتمالات وطلب التسهيلات. وسرعان ما أسس مصنعاً صغيراً في وادي أبو جميل واستأجر منزلاً بين وادي أبو جميل ومنطقة القنطاري قرب القصر الجمهوري القديم.

كانت البداية بطيئة، لكن الأمور تطورت بسرعة بعد أن بات موسى بائع الورق الأساسي لجمعيات ومؤسسات يهودية، وأحد التجار الأساسيين في السوق المحلي. وبعد أقل من عامين رد المعمل تكاليف تأسيسه وبدأ يسجل أرباحاً.

انتظم عمل موسى وتوسع، فقرر تغيير اسمه من عبادي إلى حمداني اعتقاداً منه أن العمل يسير بطريقة أفضل إذا كان اسم العائلة لا يشير إلى الانتماء الطائفي، وخاصة إلى انتماء أقليّ يهودي. فعائلة عبادي معروف عنها أنها من العائلات اليهودية وهي ليست كبعض العائلات التي تتوزع على الطوائف الأخرى مثل زيتوني وسرور وغيرها.

في السنوات الأولى لإقامته لم يفكر بالزواج لأنه كان أمام تحدي تثبيت وضعه، فطريق العودة إلى إيران ليست سهلة. لكنه وبعد انتهائه من مرحلة التأسيس والتوسيع قرر الارتباط. وفي زيارة تعارف لصديق أحد أقاربه التقى غمالو، فأُعجب بها وطلب يدها للزواج.

كان اللقاء مدبراً فواجبات الأصدقاء والمحيطين تأمين التعارف بين اليهود لتسهيل الزواج كي يبقى الشباب ضمن الطائفة.

كانت غمالو من جميلات الوادي. وقد أُغرمت قبل موسى بشاب ماروني اسمه يوسف من سكانه وقررت الارتباط به. لكن الزواج لم يتم. فقد عرقله رفض أهلها المطلق للفكرة ورفض أهله أيضاً. وعندما أخبرها أن أمه كادت تجن لنيته الزواج من غير مسيحية، قررت قطع علاقتها به، لأنها

أدركت عندها أن هذا الزواج مستحيل، ومجرد التفكير به دفع أهلها لمنعها من الخروج إلا مع شقيقها حتى لزيارة صديقاتها والذهاب إلى سهرات الحي.

تزوج موسى وغمالو بعد أسبوعين على لقائهما. كاد الزواج أن يتم قبل هذا التاريخ لولا أن والدها طلب مبلغاً كبيراً من المال كدوتا «لأن غمالو متعلمة وجميلة» كما كرر الوالد القول في جلسات المفاوضات لتبرير شروطه للقبول بتزويجها..

لم يستطع أهل موسى الحضور إلى لبنان للمشاركة في مراسم زواج ابنهم، فاقتصرت على أهل غمالو والأصدقاء.

عاش آل حمداني بين جيرانهم من الطوائف الأخرى بشكل عادي، وكوّنوا صداقات عدة يذكرها كثيرون حتى يومنا هذا. كانت غالبية جيرانهم من اليهود وقليل منهم من اللبنانيين.

بين العائلات اللبنانية عائلة من آل كوسا تقطن في منزل مستقل مقابل منزل آل عبادي، وتجمعهما ساحة صغيرة تؤدي إلى مدخل المبنيين.. ولآل كوسا ابنة وحيدة اسمها ليلى وُلدت بعد خمسة عشر عاماً على زواج والديها بعد أن ظنا أن «ليس لديهم نصيب في إنجاب أولاد». أما مصدر رزقهم فدكان صغير في القنطاري يعتاشون منه.

كانت حنة، والدة ليلى، من أوائل أصدقاء آل عبادي في لبنان بعد انتقالهم إلى منزلهم الزوجي القريب من منزلها، وأصبحت بعد ذلك صديقة غمالو المقربة كما باتت ليلى صديقة بنات عبادي، تلعب مع أصغرهن عند عودتها من المدرسة وبعد انتهائها من دروسها وتمضي كثيراً من الوقت في منزلهم.

لم تكن ليلى تعرف التفرقة بين الطوائف، وتعتقد أن كل الناس تذهب إلى الكنيسة. لكنها كانت دائمة التساؤل عن سبب عدم مرافقة بنات عبادي لها إلى بيت الرب يوم الأحد، فهم أقرب الناس لوالدتها، ولا يمكن إلا أن

يكونوا مثلها ملتزمين بما يطلبه يسوع المخلص، كما كانت تقول في سرها.

حاولت حنة أن تشرح الأمر لابنتها فأخبرتها أن أصحابها لا يمكن أن يذهبوا معها إلى الكنيسة. فهم من طائفة لا تطلب منهم ذلك، وأخبرتها أن لأصدقائها أنبياء يعبدونهم وصلاة خاصة بهم في كنيسهم.

لم تُعجب ليلى كثيراً بما سمعت. وكانت صدمتها كبيرة عندما علمت من خلال حصص دروس الدين المدرسية، أن المسيح الذي تملأ صوره غرفتها، صلبه اليهود في يوم عظيم لا تفوت إحياء ذكراه أبداً. وأكثر ما فيه من رهبة، زياح السيد المسيح في الكنيسة، حيث كانت تسير خلف نعش وترتل مع خوري الرعية وتستعيد عذابات السيد المسيح الذي صُلب على خشبة بعد درب الآلام الطويل الذي سلكه. وكانت عندما تعود إلى المنزل بعد تلك الصلاة في الكنيسة، تفضل الانزواء وعدم مقابلة أحد من جيرانها اليهود.

فاليهود جلدوا المسيح وصلبوه، وهي لا تستطيع في ذلك اليوم أن تتخطى تلك العذابات وتزور أصدقاءها، وتعجب كيف كانت أمها تقصد آل عبادي بعد انتهاء القداس لاحتساء القهوة.

كان آل عبادي من الظرفاء كما تصفهم حنة. كانوا في هذا اليوم يخرجون إلى شرفتهم وينتظرون عودة العائلة من الكنيسة بعد مراسم القداس، ويعمدون إلى مناداتهم والصراخ بوجههم بأن المسيح لم يأت للقول بما يعتقد اليهود.

صار هذا المشهد مكمّلاً لمراسم القداس، يتمتع به آل عبادي، ولم يكن أهل ليلى يغتاظون منه باستثناء ليلى التي كانت تستغرب هذا المزاح الثقيل وتستغرب أكثر ابتسامات أهلها، وأحياناً كثيرة ضحكهم عندما يشاهدون آل عبادي وقد اصطفوا على الشرفة بانتظار جيرانهم المسيحيين.

وأكثر ما كان يزعجها في ذلك اليوم، قهقهة الجيران الضاحكة عندما كانت هي تبدي انزعاجاً ظاهراً من هذا المزاح، وتدخل البيت مسرعة

ويداها على أذنيها لعدم سماع ما تعتبره خطيئة خطيرة تحتاج إلى اعتراف في الكنيسة لغفرانها حتى لمجرد سماعها..

كان يوم الجمعة الحزينة ينتهي ومعه ينتهي غيظ ليلى، فتعود العلاقة إلى طبيعتها في الأيام التي تلي، خاصة بعد عيد القيامة، يوم قام السيد المسيح من بين الأموات.

في هذا اليوم ترتدي ليلى أجمل ما عندها من ملابس، تخرج من المنزل مرفوعة الرأس، وتعود إليه كذلك، فرحة بتلك القدرة الإلهية، متمنية وجود آل عبادي على الشرفة لرؤية بسمتها ولا سيّما يافا، البنت الكبرى التي كان مزاحها مصدر الإزعاج الأكبر لليلى.

كانت يافا، وبطلب من حنة، تواكب ليلى من المدرسة وإليها، وتمسك بيدها عند قطع الطريق من منطقة القنطاري قرب كنيسة مار الياس، نزولاً حتى شارع وادي أبو جميل حيث مدرسة البوزانسون. ثم، وبعد انتهاء الصفوف، تذهب ليلى مع يافا إلى منزل آل حمداني في حال لم تكن حنة قد عادت بعد. فهي تساعد زوجها في محل السمانة الصغير ويتناوبان على الدوام فيه خاصة وقت الغداء. وكثيراً ما كانت ليلى تعود من المدرسة وتصعد إلى منزل آل عبادي مباشرة في حال تأخرت والدتها بالعودة.

لم تكن ليلى تمانع في تناول الغداء عند جيرانها، فمائدة آل عبادي شهية والطقوس المرافقة لها ممتعة. فقد كانت العائلة تجتمع حول المائدة، وعلى رأسها موسى معتمراً قلنسوة وكذلك الأولاد من الصبية. ثم يبدأ بتلاوات من التلمود وبهز الرأس إلى الأمام والخلف وسط صمت يلف غرفة الطعام وتمتمات العائلة المرافقة للصلاة. ثم ومع انتهائها يبدأ الجميع الأكل.

إن عمق العلاقة التى كانت تربط أهل ليلى بآل عبادي لم يحل دون شعورها بالإرباك، فصلاة الأكل ليست دائماً مختصرة أو أنها ربما كانت تشعر بطولها لأنها لم تكن ترفع عينيها بانتظار انتهاء سماع التمتمة التي كانت

تأتيها بلغة لا تفهمها، وبالتأكيد ليست اللغة التي كان الخوري يستخدمها في بعض القراءات في الكنيسة. وقد عرفت من أمها في ما بعد أنها لغة اليهود العبرية..

كانت ليلى تواكب الصلاة بالدعاء في داخلها ليسوع المسيح كي يسامحها لأن ما تسمعه قد يكون فيه ما لا يعجبه، وكانت تغمض عينيها وتردد جملة «يا رب سامح».

كان تحضير الطعام عند آل حمداني هماً بحد ذاته ومشروعاً بحاله. فالعائلة كبيرة و«ضرسها طيب» كما يقال لكن الهم الأكبر كان يوم الجمعة. ففي هذا اليوم وقبل غياب الشمس يجري تحضير الطعام ليومين، ليوم الجمعة وليوم السبت، لأن يوم السبت للاستراحة ولا تضرم فيه النار.

بعد أن أُنزلت في الأسواق موقدة بشمعة صغيرة بات تحضير وجبات الطعام يتم قبل غروب يوم الجمعة، أي قبل بدء الشاباط. فالموقدة التي صُنعت خصيصاً لليهود، تُضرم فيها النار يوم الجمعة وتبقى شمعتها الخفيفة مشتعلة حتى السبت، ما يضمن نضج الأكل ببطء من دون زيادة أو نقصان..

أما أكثر طبخة كانت تعجب لها ليلى فهي الرز بالحامض والبصل.

لم تكن أمها تعدّها، لأنها كانت أكلة خاصة باليهود. وهي عندما تأكلها عند آل حمداني كانت تضحك في سرها لأنها تتذكر والدها عندما سمعته يقول محتداً لأحد زبائنه «ما تعملّي رز بالبصل»، ولما سألته عن معنى استخدامه أكلة آل حمداني للتعبير عن غضبه ضحك وشرح لها المعنى الشائع لهذا القول على أنه للتعبير عن جمع ما لا يجمع وعن حالة من «التخبيص». حتى باتت ليلى تستخدمه عند الضرورة عندما عرفت معناه.

لم تكن أكلة الرز بالبصل والحامض هي الوحيدة الحاضرة أحياناً في أحاديث أمها مع بعض أصدقائها عند الكلام عن غرائب بعض العادات

والمأكولات عند جيرانها اليهود. فقد سمعت أمها يوماً تشرح لصديقتها أن اليهود لم يكونوا يأكلون ما يعتبرون أنه «روحان». فإذا عمدوا إلى قلي البيض لا يستخدمون الزبدة بل الزيت، لأن الزبدة روح والبيض روح، وروحان حرام أكلهما.

وإلى جانب الموقدة الخاصة، كان آل حمداني يملكون مطحنة خاصة للرز يستخدمونها في عيد الفصح أهم الأعياد عند اليهود، إذ كانوا يصومون أحياناً أربعين يوماً متتالية.

كانوا يطحنون الرز لاستخدامه في الكبة بدل البرغل. كما كانوا يمتنعون عن أكل الأجبان والألبان، ويشترون فطيراً خاصاً غير مختمر من فرن يملكه أحد أبناء الطائفة الشيعية هو فرن حمادة الذي كان يعد هذا الفطير طيلة فترة الصيام.

عندما ذهبت ليلى يوماً مع والدتها لشراء الخبز شاهدت صناديق خاصة أُرسلت من الكنيس لوضع الفطير الخاص فيها. كانت تلك الصناديق مقسمة من الداخل كي لا يتلاصق فيها هذا الخبز الخاص، ويتولى ابن صاحب الفرن توضيبها داخل الصندوق، فيصفّها ويعزل طبقاتها بأوراق. وعندما يمتلئ الصندوق يقفله ويرسله إلى الكنيس.

وأكثر ما كانت تفرح له ليلى في عيد الفصح اليهودي الذي يقع في شهر نيسان، ويسبق عيد الفصح عند الروم الأورثوذوكس بأسبوع، عندما تأخذها والدتها في نزهة في الوادي أيام العيد وتشتري لها الحلوى التي تصنع للمناسبة أيضاً، والتي كانت تباع على الطرقات المؤدية إلى الكنيس في بسطات تنتشر على طول الطريق فقط في تلك المناسبة.

وقد شرحت لها أمها يوماً أن هذا العيد هو من أهم الأعياد عند اليهود لأنه إحياء لذكرى خروجهم من مصر، وهو يُعرف أيضاً بعيد «بيساح» أي عيد الفصح اليهودي بالعبرية.. وبسبب استعجالهم الخروج، لم يستطيعوا

انتظار الخبز كي ينتفخ عندما أعدوا مؤونتهم، ومن يومها باتوا لا يأكلون خبزاً من العجين المختمر.. كما أنهم لا يعملون في اليوم الأول للعيد وفي آخر يوم فيه أي اليوم السابع، وتستمر الأعياد على مدى الأسبوع.

كان لهذا العيد بالنسبة لجيران حنة معنى خاص، فقد كانت العائلة تجتمع على المائدة كل يوم بحضور الأقارب والأهل. لكن عدد الحضور راح يقل شيئاً فشيئاً كل عامٍ مع بدء الرحيل.

في صباح يوم ماطر قرعت غمالو باب صديقتها حنة. كادت تطير من الفرح. فقد كانت الليلة الماضية مع موسى عند أصدقاء لهم وقد فاتحهم رب العائلة برغبة ابنه البكر آلان بالزواج من يافا. كانت يافا وآلان على علاقة منذ مدة، يلتقيان يومياً عند السادسة مساء في شارع فرنسا الذي يقع بين برج المر وكنيسة مار الياس والمؤدي في آخره إلى كنيسة الكبوشية وسط البلد. ففي هذا الشارع كانت تتم غالبية لقاءات التعارف.

كانت عائلة آل حمداني مثل كثير من العائلات اليهودية التي سكنت لبنان، محافظة. فالعلاقة قبل الزواج هي للتعارف فقط، أما الاختلاط بالطوائف الأخرى فلم يكن محبذاً لأن الارتباط بأشخاص من تلك الطوائف لم يكن مقبولاً قطعاً.

لكن غمالو لم تخبر صديقتها أن قراراً آخر اتخذته العائلتان إلى جانب قرار زواج ولديهما هو تأمين سفرهما مباشرة بعد الزواج. بقيت يافا بعد زواجها تتردد على منزل أهلها إلى أن اختفى أثرها. وقيل يومها إن يافا سافرت إلى فرنسا حيث أمّن آلان عملاً جيداً في مصرف صفرا.. حصل الشيء نفسه مع جميلة الابنة الثانية لغمالو، تزوجت واختفت.

أما الصبية الثلاثة فقد تزوج أكبرهم وسافر، وبقي الآخران مع أهلهما في لبنان.

بقيت علاقة آل كوسا بجيرانهم اليهود على حالها إلى أن اندلعت الحرب

وانتقلت حنة إلى مكان سكنها الجديد في منطقة الأشرفية شرقي العاصمة بيروت.

جاء الانتقال من منطقة القنطاري بعد أن شهد الحي معارك طاحنة بين مقاتلي حزب الكتائب وآخرين فلسطينيين. فقد سيطرت الميليشيات المسيحية بداية على منطقة الفنادق في آخر شارع القنطاري ووصلت إلى مشارف الحمرا، لكن سرعان ما تراجعت بعد أن شنت الفصائل الفلسطينية و«القوى الوطنية»، كما كانت تسمى آنذاك، هجوماً مضاداً فرض على الكتائب التراجع لترتسم خطوط تماسّ بقيت طيلة سنوات الحرب.

أما آل حمداني فقد بقوا في منزلهم أشهراً بعد اندلاع الحرب رغم صعوبة العيش على المحاور، ثم قررت العائلة التراجع قليلاً باتجاه الحمرا حيث استأجروا منزلاً. لم يعش موسى طويلاً بعد بدء الحرب، فقد أصيب بنزيف حاد ولم ينج منه رغم نقله سريعاً إلى المستشفى ودفن في مدافن العائلة في مدينة صيدا.

أدت حرب السنتين إلى إقفال مصنع آل حمداني في الوادي. وتعرضت غمالو لمضايقات من العمال. فقد ابتزوها للحصول على المال، كما حاول بعضهم إرغامها على التنازل عنه أو بيعه بأرخص الأثمان. وعندما رفضت نُهبت كل محتوياته.

كانت غمالو قد قررت، بعد وفاة زوجها، إدارة أعمال العائلة والبقاء. فالمعمل إذا ما هدأت الحال يمكن أن يعود إلى إنتاجه الجيد.. وهي مقتنعة كما كانت قبل وفاة زوجها بالبقاء على الرغم من إلحاح الجمعيات اليهودية، وعلى الرغم من إلحاح أولادها في الخارج أيضاً.

لم يبق لغمالو أهل في لبنان أو أقارب، فالأشقاء والأعمام وأبناء الأعمام وأبناء الخالات والخالات، كلهم رحلوا وتوزعوا في أرجاء العالم. وقد نصحوها مراراً وأصروا عليها ببيع كل شي والمغادرة، لكنها لم تُبدِ حماسة

كبيرة لأنها تحب لبنان وتريد أن تبقى فيه. وبقيت على تواصل مع بعض الأشقاء من خلال لقاءات كانت تتم في قبرص ولا سيما في عيد الفصح.

إنقطعت الاتصالات بين حنة وغمالو فترة طويلة بعد اندلاع الحرب. ولم يحصل أي اتصال إلا بعد عدة سنوات عندما أبلغت غمالو حنة أنها ستزورها، وقد تمكث عندها عدة أيام قبل أن تسافر لكنها تركت التفاصيل للقائهما.

كانت غمالو قد نقلت كل التحف الثقيلة من منزلها إلى منزل قريبة لها في فرنسا وحولت ما تملك من مال إلى فرع بنك صفرا في باريس. لم تخبر أحداً من الحي حيث تسكن، بأنها مغادرة. ويوم تركت الحي وضعت حجاباً على رأسها. قاد ابنها السيارة وقطعت العائلة معبر المتحف باتجاه المنطقة الشرقية إلى غير رجعة، تاركة وراءها المعمل المدمر ومنزلها المستأجر بما فيه من أثاث.

وفي اليوم التالي طلبت غمالو من حنة أن تأخذها إلى عنوان في منطقة الحازمية، هو عنوان مكتب كان ما يزال قائماً لتأمين رحيل من بقي من اليهود ومتابعة شؤونهم ومساعدة من قرر البقاء.

حصلت غمالو على العنوان من يهود آخرين مع رقم الهاتف، مع توصية بأن تتصل عندما تحتاج إلى أي شيء. لكنها لم تتجرأ على الاتصال بالمكتب من المنطقة الغربية خشية أن تكون الخطوط مراقبة، وقررت الانتقال إلى المنطقة الشرقية لهذا الغرض.

تولى المكتب تأمين جواز سفرها وتأشيرة دخولها إلى فرنسا مع ولديها. كما أودعت نسخاً من مستندات بأملاكها لتثبيت تلك الملكية ومتابعة الأمور عندما تهدأ الحالة.. وبعد أسبوع انتقلت إلى قبرص عن طريق البحر، ومنها إلى حيث انقطعت كامل أخبارها.

لم ترغب غمالو بالرحيل إلى إسرائيل، رغم وجود عدد من أشقائها

ومن أفراد عائلتها هناك. وعندما سألتها حنة يوماً عن السبب، قالت إن ما تسمعه من أهلها لا يشجع وإن الحياة في إسرائيل ليست تلك التي تُصوَّر لليهود في الخارج. وأسرّت لها أنها فكرت بهذا الاحتمال وفاتحت أهلها به بعدما بدأت مخاوف اليهود تتعاظم من ردة فعل ضدهم. لكنها لم تسمع منهم تشجيعاً لأن الغلاء في إسرائيل فاحش نتيجة ضريبة المجهود الحربي المرتفعة.

انقطعت أخبار غمالو بالكامل بعد رحيلها، على الرغم من وعدها بالتواصل عبر البريد أو عبر الهاتف. وقد يكون سوء حال الخطوط الهاتفية وعدم انتظام عمل البريد خلال الحرب بسبب الإقفال المتكرر للمطار، حالا دون اتصال غمالو بأصدقائها.

كبرت ليلى وتزوجت، وقرر حنا الابن الصغير الذي وُلد في منزل الأشرفية متابعة دروسه في الخارج، فالوضع في لبنان لم يكن مستقراً. وهو كما غيره من شباب جيله كان يسعى للخروج من البلد هرباً من التجنيد الإجباري الذي فرضته بعض الميليشيات، وهرباً من الحرب.

كانت الحروب اللبنانية قد تعددت أسبابها وتشعبت، بحيث فقد الناس الأمل بانتهاء قريب لها.

قررت حنة إرسال ولدها الى كندا علّه يستطيع أن يؤمن عملاً له بعد انتهاء دراسته فيبقى إلى حين الحصول على الجنسية كضمانة لمستقبله، كما كانت تردد أمام أصدقائها عند استغرابهم قسوة قلبها بعدما أخبرتهم أنها أبلغت ابنها ألا يفكر بالعودة إلا بعد الحصول على تلك الجنسية.

حصل حنا على الجنسية الكندية، لكن استمرار الحرب في لبنان حال دون عودته. كما أن تجارته الناجحة شجعته على البقاء. فقد فتح محلاً لبيع المواد الغذائية المستوردة من لبنان والتي تُصنع عادة في الأرياف، حتى بات مقصد اللبنانيين وغيرهم في كيبيك.

طالت الحرب وطال بقاء حنا، فقرر الاستقرار، تزوج وكوّن عائلة وبدل أن يأتي إلى لبنان، صارت عائلته تزوره كل عام أو عامين للراحة والابتعاد الموقت عن أجواء الحرب.

وفي منتصف التسعينات، وبينما كان حنا في محله دخلت امرأة ستينية لم يكن وجهها غريباً أبداً، لم تتحدث ولم تلق السلام حتى، ابتسمت فقط وبدأت تتنقل في المكان.

نظر إليها حنا وحدق فيها محاولاً أن يتذكر هذا الوجه، فهو أكيد أنه يعرفه، لكنه عندما عجز عن تحديد هويتها ظن أنه مخطئ، فهي ربما تشبه أحداً يعرفه.

كانت المرأة تحمل ما هو معروض على الرفوف، تديره بين يديها وتحاول أن تقرأ ما كُتب عليه.

تمنى لو تشتري شيئاً أو أن تسأله عن شيء لتعطيه مزيداً من الوقت للتعرف على هذا الوجه.

فجأة لمع اسمها في رأسه، تعرف إليها، إنها غمالو صديقة والدته.

رفع يده ووضعها على رأسه ثم نظر إليها مبتسماً، تردد في سؤالها عن هويتها الحقيقية فربّما كان مخطئاً. وبدا محتاراً لأمره، هل يسألها؟ هل يقترب منها وينادي باسمها؟ لكنه في النهاية قرر أن ينتظر قليلاً، فإذا اشترت أو سألته عن شيء تكون مناسبة للجزم بحقيقة هوية تلك المرأة.

تنقلت في زوايا المحل وحدّقت في غالبية ما هو معروض، ثم خرجت من دون أن تتحدث إليه ومن دون أن تشتري شيئاً أو تسأله عن شيء. كما أنها لم تلق تحية عليه عند خروجها. كاد أن يلحق بها لكنه امتنع لسبب يجهله كما قال لأمه.

رفع حنا سماعة الهاتف مباشرة بعد خروج غمالو واتصل بحنة، وعندما سمع صوتها في الجهة الأخرى، ومن دون سلامات أو مقدمات، سألها

بأن تحزر من دخل محله للتو؟ سمّت العديد من الناس لكنها لم تصب. ثم رفعت صوتها تعبيراً عن مللها من لعبة ابنها وطلبت منه أن يخبرها بهوية هذا الشخص المهم وغير العادي إلى درجة أن ابنها لم يلق التحية عليها ويسألها عن أحوالها قبل وضعها أمام تحدي الاستنتاج. وبعد إلحاح متكرر وإصرار مقابل بعدم البوح قال لها إنها غمالو.

وعلى الجهة الأخرى من الخط سمع حنا أسئلة متواصلة ومتكررة من دون انتظار جواب عن أحوالها وأخبارها، وعن شكلها؟ وعتباً على الصبي الذي لم يبادر إلى سؤالها أي شيء بعد أن تعرف إليها.

بعد أشهر ذهبت حنة إلى كندا في زيارتها السنوية لابنها، فاستعادا الحديث عن غمالو وقصة دخولها إلى المحل، وقررا البحث في دليل الهاتف عن اسمها فربّما تقيم في كندا.

ثم بدأت حنة بالاتصال بعد أن وجدت عدة أسماء مشابهة. طلبت رقماً بعد آخر علها تصل إلى غمالو. وفي المحاولة العاشرة ربما، سمعت صوتاً يشبه صوت صديقتها.

لمجرد أن قالت تلك المرأة «آلو وي»، ردت بالقول: «آلو؟ شو يعني نسيتيني؟» كررت المرأة عبارة «آلو..آلو..آلو..» ثم سألتها بالفرنسية عمن تريد؟ ضحكت حنة وطلبت منها أن توقف المزاح وتخبرها عن حالها، ثم سألتها عما إذا كانت قد نسيت اللغة العربية ولم تعد تتحدث إلا الفرنسية؟

بعد أن بقيت المرأة على الطرف الآخر تحاول الاستفسار بالفرنسية، ولما يئست أقفلت سماعة الهاتف بوجه حنة فأدركت عندها أن المرأة على الطرف الآخر من الخط ليست غمالو، ثم أوقفت محاولاتها.

وبعد عامين على زيارة حنة إلى كندا، دخلت غمالو مجدداً إلى محل حنا. ألقت التحية بهزة رأس مع ابتسامة.

انتظر دقائق وهو يتابعها بنظره، بينما هي تتنقل في أرجاء المحل كما فعلت

في المرة الأولى. ثم تقدم منها مبتسماً وعرض عليها المساعدة.

«لا شكراً» قالت له بالعربية ثم سألها عما إذا كانت من لبنان؟ فهزت رأسها بالإيجاب وبدت غير راغبة بالاسترسال، فقرر سؤالها وقبل أن تخرج من المحل هل هي «غمالو»؟ نظرت إليه مستغربة وحدقت في وجهه بضع ثوان، وقالت له «نعم هل نعرف بعضنا؟»».

هز حنا رأسه وعرفها عن نفسه. ابتسمت ابتسامة عريضة ونظرت إليه ثم قالت «طبعاً أذكر» وسألته عن حال والدته وصحتها وعن ليلى وجديدها.

أخبرها أنه عرفها عندما جاءت قبل عامين، وأنه نادم لأنه لم يعرّفها عن نفسه، وروى لها محاولة والدته الاتصال بها عندما أتت إلى كندا، وكيف تجادلت مع إحدى السيدات على الخط الآخر بعد أن اشتبهت بصوتها...

لم تكن غمالو مقيمة في كندا بل كانت تأتي لزيارة أقارب زوجها كما قالت لحنا. لكنها سبق أن عاشت فيها عدة أعوام. فقد غادرت غمالو لبنان إلى باريس لكن الحياة في فرنسا مكلفة. كان عدد من أفراد عائلة زوجها قد هاجر إلى كندا فقررت الانتقال إليها. عاشت في كندا عدة أعوام وحصلت على الجنسية لكنها لم تطق طقسها البارد وقررت أن تكون حياتها متنقلة بين دول إقامة أولادها المتعددة. وهي الآن تزور كندا كل عام أو عامين للقاء عائلة زوجها فقط وليس للإقامة.

وأخبرته أنها قصدت محله بالصدفة بعد أن أرشدها إليه أقاربها. وقالوا لها «إن في وسط البلد محلاً يبيع منتجات لبنانية جيدة تصلح هدايا وتصلح لاستعادة الذكريات». ولما سألها عن أسماء أقاربها، تذكّر أنهم من زبائنه، لكنه ظن أنهم من سوريا بسبب لكنتهم الحلبية ولم يعرف أنهم من يهود لبنان.

أخذت غمالو رقم هاتف حنة في لبنان من ابنها وطلبت منه إبلاغها أن تنتظر اتصالاً قريباً منها. وبعد عدة أسابيع فعلت ذلك بالفعل. رفعت حنة سماعة الهاتف وسمعت على الخط الآخر صوتاً نسائياً يسألها بأن تحزر هوية

صاحبه..

لم تمر المزحة على حنة فهي كانت تنتظر اتصالها. صرخت باسمها بصوت عال، وانهالت عليها بالأسئلة عن الأولاد والأحفاد وعن مشاريعها، وعما تفعله وكيف تعيش وهل هي سعيدة؟

أخبرتها غمالو بخريطة انتشار أولادها، فكل واحد منهم في بلد وهي تعيش معهم في بلدانهم الثمانية متنقلة بين منازل أولادها في القارة الشمالية والجنوبية وأوروبا.

أما وقت الراحة فهو في كندا صيف كل عام أو عامين. لكن غمالو كانت متشوقة لمعرفة ما حل بالحي القديم في وادي أبو جميل بعدما هدأت الحال.

سألت عن مشروع سوليدير والمنطقة المحيطة؟ وطمأنتها إلى أنها استرجعت كل أملاكها كما غالبية يهود لبنان عن طريق محامين أوكلوا بهذه المهمة. كما أخبرتها أنها تقاضت كل مستحقاتها.

إنتهت المكالمة بعد نصف ساعة على بدئها مع انقطاع الخط عند انتهاء رصيد البطاقة المدفوعة سلفاً. عاودت غمالو الاتصال بعد عدة أيام ووعدتها بالاتصال بها مجدداً وقريباً. أقفلت حنة الخط سعيدة باستعادة أجمل ذكرياتها وبتجديد التواصل بعد طول انقطاع.

أخبرتها غمالو أنها ترغب بزيارة لبنان عندما تسمح الظروف وخاصةً لزيارة ضريح الزوج في صيدا، وسألت عن صحة ما سمعته عن العبث بتلك المقبرة.

لم تعاود غمالو الاتصال، ولم تحاول حنة على الرغم من زياراتها الدورية لكندا، لأن غمالو في الأساس لا تملك رقم هاتف، فهي دائمة التنقل وغير مستقرة في مكان.

موسى زيتوني

بعد انتهاء دراسته الثانوية بدأ موسى البحث عن عمل يعتاش منه. كان أحد أقربائه يملك معمل قماش، ووعده بتسليفه كميات يسدد ثمنها عندما يبيعها، فلا داعي للدفع المسبق.

أُعجب موسى بالفكرة لأنه بذلك يمكن أن يبدأ فوراً ومن دون رأسمال، فهو قد أنهى للتو دراسته ولا يملك ما يساعده على الانطلاق. كما أن أهله ليسوا من ميسوري الحال ولا يمكنهم مساعدته.

اتفق مع قريبه وراح يبحث عن مكان يستأجره. كان موسى قد فكر بداية في أن يكون تاجراً جوالاً، لأنه بذلك لا يدفع بدل إيجار. لكنه عدل عن الفكرة لأن هؤلاء كثر وباتوا معروفين لدى أهالي الحي والمحيط.

كانوا يجولون في شوارع الوادي، وعلى كتفهم لفافات الأقمشة من كل نوع، تتدلى إلى الأمام والخلف ما يسهل رفع الواحدة بعد الأخرى للعرض، نزولاً عند طلب الزبون.

كان كل من بائعي الأقمشة الجوالين يحمل صندوقاً يحوي أزراراً وخيطاناً، ويعمدون الى ربطه بحبل غليظ حول العنق بحيث يتدلى حتى البطن ويظهر ما بداخله من دون الحاجة إلى رفع لفافات الأقمشة المتدلية على الأكتاف. وقد اشتهر هؤلاء بطريقة نداءاتهم على بضاعتهم حتى بات كل واحد يُعرف من لكنته وطريقته في ترويج ما يحمل.

كان لموسى أصدقاء كثر بين هؤلاء الباعة، ما عزز قناعته باستبعاد هذه

الفكرة. ونزولاً عند نصيحة قريبه بدأ البحث عن زاوية يمكن أن يعرض فيها القماش في سوق سرسق في وسط العاصمة أو ما كان يعرف بالبلد.

فهذا السوق هو حلم أي تاجر صغير لأن من يجد له مكاناً يضع فيه طاولة ولو صغيرة يكون من كبار المحظوظين. لأن سوق سرسق من أكثر الأسواق ازدحاماً في بيروت ويقصده المئات كل يوم.

في هذا السوق محلات الأقمشة والصيرفة والحلي والبياضات، وفيه تباع التذكارات الصغيرة أيضاً.

كما كان سوق سرسق واحداً من أقدم الأسواق في وسط بيروت. وهو كناية عن شارع ضيق جزء منه مسقوف ومحلاته على الجهتين.

كان للسوق مداخل عدة، شرقاً من جهة درج خان البيض إلى الشمال الشرقي من كنيسة مار جريس وغرباً من جهة بلدية بيروت.

كما كانت له مفارق عدة، من ساحتي الشهداء والنجمة قرب كنيسة مار جريس. وكان أصحاب المحلات يؤجرون حتى أبواب محالّهم حيث كانت تتدلى الأقمشة وتُعرض السلع للبيع. فكانت درفتا المحل لمستأجرين اثنين. حتى قلب المحل كان يؤجر أحياناً لأكثر من تاجر فيضع هؤلاء طاولة صغيرة لعرض السلع، أو خزانة صغيرة في زاوية فارغة في المحل.

كان تجارالسوق ينادون على بضاعتهم أمام المحل فيستفيد جميع التجار من شاغلي المكان. فدخول الزبون إلى المحل يسمح لأي منهم بصيده والترويج لبضاعته. حتى باتوا يتناوبون على المناداة في الخارج، وكان التاجر الواحد ينادي على بضاعته وبضاعة زملائه. كما كانوا يتناوبون عند غياب أحدهم للغداء أو لأي سبب آخر.

لم يكن إيجاد مكان في سوق سرسق سهلاً بالنسبة لموسى، فالمكان مزدحم ومن يستأجر مكاناً فيه لا يغادره بسهولة، لكنه بقي يسأل ويفتش إلى أن وُفّق بعد أشهر من البحث، فاتفق مع أحد أصحاب تلك المحلات

على استئجار درفة باب المحل حيث يمكن له أن يعرض ما يملك من أقمشة، وخلف الدرفة يمكن أن يضع بضاعته في ساعات النهار كي لا يشغل مساحة في الداخل. أما الدرفة الأخرى فكانت لبائع حلي بينما المحل الأساسي كان محل صيرفة.

كان موسى من سكان وادي أبو جميل حيث يقع منزله في حوش وسط شارعي فرنسا والوادي. أما النزول إليه فمن جهة شارع فرنسا عبر درج عريض ومدخله من جهة الوادي، عبر زاروب ترابي. لا أحد يذكر شيئاً عن عائلة موسى سوى أنه كان يسكن مع والديه. فلا أحد يذكر أنه دُعي لزيارة موسى في منزله أو أنه رافق موسى إلى مدخل منزله.

كان موسى يرافق أصدقاءه او رفاقه سيراً على الأقدام بعد نزهة أو اجتماع، وعندما يصل إلى مفرق منزله كان يحيي صاحبه مودعاً ويختفي.

يقول أصدقاء موسى إنه كان دائم الابتسام، فهو شخص فرح يحب أن يُضحك من حوله ويرغب برفقة الظرفاء.

تأثر موسى منذ شبابه بماركس وأنغلز وأعجبته أفكار لينين الثورية. كان لديه في المدرسة أصدقاء شيوعيون، أثروا فيه ونجحوا في تجنيده في صفوف الحزب، فقرر الانتساب إلى الحزب الشيوعي.

كان الانتساب إلى الحزب الشيوعي في تلك الفترة أمراً شديد التعقيد. فالراغب في الانتساب بحاجة إلى رفع كتاب خطي يطلب فيه قبول عضويته، ويشرح أسباب اقتناعه بتلك الإيديولوجيا، ويؤكد التزامه بالمهمات الحزبية واستعداده لتحمل ما تطرحه من عواقب.

كما أنه بحاجة إلى من يعرّف عنه، وإلى شاهدين اثنين يوقّعان على طلب انتسابه ويشرحان أسباب استحقاقه لتلك العضوية. والشاهدان يجب أن يكونا من المنتسبين إلى الحزب الشيوعي منذ فترة غير قريبة.

قُبل طلب موسى فانتقل إلى المرحلة الثانية قبل الانخراط في العمل

الحزبي، وهي الخضوع لدورات أصدقاء كان الهدف منها إعطاء لمحة عامة عن الحزب ونشاطاته ومهماته وإيديولوجيته.

لم يكن في الحزب الشيوعي أعضاء كثر من الطائفة اليهودية. فالمعروف أن اليهود لا يدخلون في أحزاب، وأن العدد القليل الذي انتسب إلى حزب سياسي انتمى في الغالب إلى حزب الكتائب وليس إلى أحزاب علمانية.

فحزب الكتائب كان له حضور بارز في وادي أبوجميل وبين اليهود، وكانت صور بيار الجميل تُرفع في الوادي ولا سيّما في فترة الانتخابات. حتى أن الجميّل كان يقوم بزيارات إلى وادي أبو جميل في أثناء حملاته الانتخابية.

كان يمشي في أحيائها، يدخل المحلات التجارية ويزور بعض المنازل، مطّلعا على أحوالها، سائلاً عن مطالبها، وينهي جولته باجتماع في مدرسة التلمود مع وجهاء الطائفة وممثلين عن العائلات الكبيرة.

لكن اقتراع المئات من أبناء الطائفة لمرشحي الكتائب لم يغير شيئاً من الصورة العامة التي طبعت وجود اليهود في لبنان. فهؤلاء كانوا يفضلون الابتعاد عن السياسة. وكان المجلس اليهودي الذي يمثل الطائفة، والمنتخب بالاقتراع السري، هو المعني بمتابعة شؤونها ومصالحها والقيام باتصالات باسمها. وكان المجلس يمثل الطائفة في المناسبات الرسمية، ويستقبل الموفدين الرسميين في أعياد الطائفة اليهودية، ولا سيّما في عيد الفصح اليهودي الذي كان يوم عطلة رسمية وفي عيد الغفران. كان الرسميون وخاصة الرؤساء يرسلون موفدين عنهم للتهنئة، كما كان يحصل في أعياد الطوائف الأخرى.

لم يكن موسى يستسيغ زيارة الجميّل للوادي، فقد كان حزبا الكتائب والشيوعي على خلاف سياسي عميق. وكان موسى، بصفته شيوعياً، يعمل ضد أخصامه السياسيين وبينهم الكتائب، يحاول أن يعبئ الناس ضدهم، فهؤلاء «يريدون السير بلبنان إلى سياسة أحلاف تضر بمصلحته وتخدم

الأمبريالية والرأسمال المتوحش» كما كان يردد.

يذكر رفاق موسى أنه تميز بنشاطه واندفاعه في صفوف الحزب.فهو لم يكن يفوّت أية تظاهرة من التظاهرات التي كانت أحد الأشكال الرئيسية في نشاط الحزب الشيوعي في فترة من الفترات. منها تظاهرات ضد قيام أحلاف كانت واشنطن تسعى إليها في المنطقة في وجه الاتحاد السوفياتي ومنها أيضا تظاهرات التضامن مع دول تسعى للاستقلال في المنطقة وفي أميركا اللاتينية وفي أفريقيا، بالإضافة إلى التظاهرات المطلبية والتي غالباً ما كانت تشهد أعمال شغب وصدامات.

لم تكن الدولة تسمح بتلك التحركات وكانت تعمد إلى قمعها دائماً عبر تفريق التظاهرة بالقوة واعتقال المشاركين فيها وتحويلهم على المحاكم بتهمة المسّ بهيبتها. لكن موسى زيتوني كان ينجح دائماً في الإفلات من قبضة القوى الأمنية. كان يدرس مساره بطريقة تسمح له بالهرب كي يتجنب توقيفه. وهو بالفعل، حسب ما قال من عمل معه، لم يُلق القبض عليه أبداً. أوقف مرة واحدة لدقائق خلال تظاهرة شغب في محلة الطبية في بيروت، لكن الرتيب أذن له بالمغادرة ولم يوقفه مع الباقين بعد أن أقنعه أن مروره تم بالصدفة وأنه ليس من المشاركين في التظاهرة..

يومها هتفت تظاهرة الطبية ضد خيانة الجنرال تيتو.. فالزعيم اليوغوسلافي قرر الخروج من فلك الاتحاد السوفياتي من خلال إجراء اتصالات مع الغرب وحلفاء واشنطن ما جرّ عليه حملة مضادة وعنيفة، ولا سيّما من الاتحاد السوفياتي فاتهم بالخيانة. لم يكن أمام الشيوعيين في لبنان من مبرر للتظاهر ضد هذه الخيانة، لكن زيارة فريق كرة قدم يوغوسلافي إلى بيروت أعطاهم تلك الحجة. تداعوا للتظاهر وهتفوا لسقوط هذا الفريق وضد تيتو الخائن.

قطع المتظاهرون طريق خط القطار هناك بعد أن أنزل المتظاهرون

الركاب منه بالقوة وحطموا زجاجه. تدخلت القوى الأمنية لإعادة فتح الطريق وهاجمت المتظاهرين بقوة، واعتقلت العديد منهم، ثم حُوّل الموقوفون إلى المحاكمة.

يومها عاد موسى إلى منزله مطمئناً لإفلاته مرة أخرى من قبضة القوى الأمنية، وفي الوقت نفسه عدم التلكؤ عن مهمة حزبية.

لم تكن مهمته في تلك التظاهرات تقتصر على المشاركة فيها، إنما أيضاً على توزيع المناشير الداعية لها.

كانت تلك المناشير تُنقل من قبل أشخاص محددين إلى تخشيبته في سوق سرسق. تُلفّ كأنها ربطة قماش وتسلّم إليه، فيضعها خلف درفة الباب حيث يخزّن لفافات الأقمشة غير المعروضة على تلك الدرفة خاصته. وبعد انتهاء عمله يعمد إلى توزيعها.

أما رقعة مهمته الجغرافية فهي الطريق الفاصل بين بيته وعمله وبعض الشوارع المتفرعة منه. المنشور كان يتضمن إما دعوة للتحرك وإما موقفاً من حدث ما. وكانت مهمة الرفاق توزيعه بكثافة وحيث أمكن. والمنشور كناية عن قصاصة ورق صغيرة. يكتب على أعلى صفحته بخط أسود عريض موضوع التحرك. وفي صدرها يحدد المكان والزمان. أما الجملة الأولى فغالباً ما كانت تبدأ بعبارة :ضد كذا ورفضاً لكذا أو احتجاجاً على كذا وكذا...

كان موسى يحمل المنشور تحت إبطه بعد دسه بلفافة قماش كي لا يُكشف أمره، ثم يعمد إلى وضع نسخ منه تحت الأبواب أو يرميه على الشرفات والنوافذ في الطوابق الأرضية في طريق عودته من تخشيبته، كما كان يدسه تحت أبواب المحلات على جانبي الطريق.كان شديد الحذر كي لا يُلقى القبض عليه أو يراه أحد فيشتكيه للقوى الأمنية. لكن وفي إحدى المرات وبينما كان يضع المنشور على باب أحد المنازل لم ينتبه لوجود رجل شرطة خلف زوايا المبنى، وعندما رفع رأسه، رأى الشرطي فوقه تماماً يسأله عما

يفعله. ظن الشرطي أنه لصّ وأنه يحاول فتح الباب للسرقة فبادره موسى بالقول إنه يربط شريط حذائه. مرت الأزمة على خير بعدما تابع الشرطي مساره عندما انحنى موسى مجدداً لشدّ حبل حذائه. كان قد ترك شريط الحذاء فالتاً على سبيل الحيلة التي كان يعتمدها موسى لحالات كهذه..

اعتاد موسى على زيارة الرفاق المكلفين بالتواصل معه في مكان عمله في سوق سرسق.

وفي يوم شديد الزحمة بالمتسوقين، وعلى مشارف عيد الغفران، أتاه أحدهم فارغ اليدين ومن دون مناشير، ظن موسى أن هذا «الرفيق» مار للتبضع أو التحية. وقف معه أمام زاويته في السوق منتظراً ما سيقوله، لكن «الرفيق» بدا مربكاً. استغرب موسى سلوك ذاك الشخص وتمنى عليه الإسراع بتبليغه بالمهمة الجديدة لأنه ينتظر يوماً كهذا لبيع أكبر كمية ممكنة من الأقمشة. ثم سأله مازحاً: «هل أتيت لتزيد خسارتي، أفلا يكفيني الإقفال يوم المظاهرات؟ هل من قرار جديد في الحزب بإفقار الأعضاء كي يزدادوا ثورية؟». وراح موسى يضحك لكن الشخص لم يضحك، ابتسم وأخبره مضمون رسالة القيادة في الحزب.

دُهش موسى لما نقله إليه الرفيق للتو، وقف مصدوماً لا يعرف ما يقول. فقد جاءه هذا الموفد لإبلاغه أن عضويته في الحزب قد جُمّدت، لا بل إن القيادة اتخذت قراراً بطرده. وطُلب منه عدم الاتصال بأي من الرفاق أو زيارتهم في منازلهم لأن ذلك سيجر عليهم قرار التجميد بتهمة الاتصال برفيق مطرود. أما أسباب التجميد والطرد الذي حاول موسى الاستفسار عنه، فهو يعود لتقييم الرفاق في القيادة، ولذلك فهو غير قابل للنقاش لأنه اتُخذ على أعلى مستوى.

لم يكن قرار طرد موسى زيتوني من الحزب يتيماً، فقد قررت قيادة الحزب الشيوعي في تلك الفترة، في اجتماع ترأسه خالد بكداش الأمين العام، طرد

كل اليهود من الحزب.

كان الحزب الشيوعي يومها حزباً واحداً في لبنان وسوريا قبل الانفصال منتصف الستينات، وتحول بكداش إلى أمين عام الحزب الشيوعي السوري، وفرج الله الحلو إلى المسؤول الأول للحزب الشيوعي اللبناني قبل ذلك.

لم يعمِّم القرار لكن المعنيين بالعلاقة مع موسى زيتوني أُبلغوا به كي يقطعوا صلتهم معه تماماً، فلا يستقبلونه ولا يزورونه. قيل للشيوعيين يومها إنه تبين لقيادة الحزب أن لموسى علاقة بالأمن العام اللبناني. لكن حيثيات هذا الاتهام لم تبلغ لأحد، كما أن أحداً لم يبلغ عن الإثباتات وكيف تبين لهؤلاء أنه مخبر.

وبعد سنوات طويلة على هذا القرار، بات سبب الطرد الفعلي قيد التداول في صفوف الحزب.

فقد جاء طرد اليهود الشيوعيين من الحزب الشيوعي في محاولة لإبعاد تهمة لاحقت الحزب طويلاً وهي أنه ضد القضية الفلسطينية، على خلفية موافقته على قرار تقسيم فلسطين..

ففي مطلع الخمسينات، قرر الحزب الشيوعي مراجعة سياسته إزاء القضية المحورية التي شغلت العالم. فعاد وأعلن اعتراضه على قرار تقسيم فلسطين وانضمامه إلى التيارات والأحزاب التي كانت تناضل ضد الصهيونية ومع الشعب الفلسطيني.

واعتبرت قيادة الحزب يومها أن طرد اليهود يعطي مصداقية لشعاراته الجديدة وهي: لا للصلح لا للتقسيم ولا للاعتراف.

كان الحزب الشيوعي، وبعد اعتراف الاتحاد السوفياتي بقرار تقسيم فلسطين، قد أعلن تأييده للقرار على الرغم من أن مقالات ومواقف صدرت عن قيادات في الحزب في تلك الفترة تدين القرار، إلا أن حسم الاتحاد السوفياتي للموقف باتجاه القبول ألزم الحزب الشيوعي اللبناني بهذا

الموقف.

وقد صدر إعلان التراجع عن الموافقة على قرار التقسيم، في صيغة بيان مشترك صادر عن الأحزاب الشيوعية السورية واللبنانية والعراقية والفلسطينية التي أعلنت جميعها التزام قرار المرجع الأعلى في موسكو.

هذا الموقف الجديد الذي أقدم عليه الحزب الشيوعي اللبناني سمح بالعودة إلى العمل العلني ورفع الحظر عنه، كما عاد لإصدار مطبوعاته من جديد منها «صوت الشعب».

بعد قرار تجميده، التزم رفاق موسى بمضمونه وقاطعوه. وهو كذلك لم يحاول الاتصال بأحد خشية جر الأذى لهم كما أبلغ عندما تلي على مسامعه قرار القيادة بطرده وتجميد عضويته، على الرغم من أن موسى لم يفهم السبب، ولم يجد له تبريراً كما قال لأحد الرفاق الذين صادفهم في سوق سرسق في أحد الأيام.

كان غاضباً، عاتباً، متفاجئاً، فهو لم يرفض مهمة حزبية رغم خطورتها، وهو لم يتغيب عن اجتماع أو تظاهرة، كما أنه كان يسدد اشتراكاته بانتظام ومن دون تأخير، ولم يعترض على رفع ذاك البدل من حين لآخر، فما هي المشكلة إذن؟

لم يخبره صديقه بمضمون التهمة التي وجّهت إليه لأنه لم يكن مقتنعاً بها أصلاً كما قال، لكن موقعه لم يسمح له بالاعتراض عليها.

مرت أسابيع بقي فيها موسى يلازم زاويته في سوق سرسق لكنه اختفى بعد ذلك.

حاول أحد أصدقائه السؤال عنه، على الرغم من قرار الحزب بعدم الاتصال به، لكن الدرفة التي كان موسى يشغلها احتلتها أنواع أخرى من الحلي والزينة. ولما سأل عنه صاحب المحل أخبره أن موسى زيتوني ترك السوق منذ مدة وأنه منذ ذاك لم يعد يراه. سأل عن مكان انتقاله الجديد،

لكن الصيرفي لم يكن يدري، فموسى، وفي اليوم الأخير من الشهر، ودع صاحب المحل وأبلغه أنه قرر فتح محل أكبر في وادي أبو جميل ووعده بأن يعطيه عنوانه.

لم يعد موسى لزيارة الصيرفي ولم يفتح أي محل. ويقول أحد أصدقائه من باب الاستنتاج إنه، وعند تبلغه قرار تجميده، بدأ إجراءات الرحيل وذهب...

ثلاث روايات عن «جواسيس»

نهى ب.

نظرت سلمى بعيون عاتبة على ابتسامة التشكيك في روايتها. أدارت وجهها وبحركة من شفتيها أبدت استخفافها بسذاجة من لا يصدق ما تقول عن نهى، لأنها بالفعل جاسوسة إسرائيلية حتى ولو لم يصدق السامعون.

بدت شديدة التوتر عندما طُلب منها تقديم البراهين، فرددتها وهي تهز برأسها منزعجة من اضطرارها للتفصيل، كمن لم يتوقع أن لا تُؤخذ وقائعه كحقيقة مطلقة غير قابلة للتشكيك. فهي تُعرف في الوادي على أنها «أم خبار» الحي، ولها معارف لا تحصى فيه. فقد ولدت في وادي أبو جميل، وكبرت وتزوجت فيه ولم تغادره أبداً.

ولما لم يبادر من شكك في روايتها إلى التراجع وبقي منتظراً براهينها، رفعت ساقيها على الكنبة العريضة حيث تجلس، ووضعتهما من الجهة اليمنى بعد أن طوتهما باتجاه الفخذ، ومالت شمالاً تاركة كفها حراً في التعبير عن انفعالاتها وهي تقول: «لأن نهى ببساطة تولت منصباً عالياً في إحدى الوزارات الخدماتية الأساسية، وهي قد تكون اليهودية الوحيدة التي وصلت إلى منصب كهذا في السلك المدني. لذلك لا يمكن لإسرائيل أن تتركها».

ارتاحت قليلاً في قعدتها، تراجعت ثم أسندت ظهرها، وبدت غير

راغبة بإكمال الحديث بعدما بدا أن ما قالته للتو لم يبدد الانطباع بأن اتهام نهى بالجاسوسية لا يستند الى إثبات قوي، لأن أي لبناني، حتى ولو كان يهودياً، يمكن أن يصل إلى مراتب عليا في الدولة فلماذا تكون نهى استثناء؟

أثارت الجملة الاعتراضية تلك توتر سلمى، فرفعت صوتها لتبرر اتهامها وتزيد من نبرة الجزم بحقيقة ما تقول، «إن إسرائيل هي أكثر الدول المعنية بمعرفة تطور الوضع عندنا، لأن لبنان هو منافس أساسي لها، ولا يمكن لأحد أن يصدق أن يهودية وصلت إلى منصب مدير عام في وزارة حساسة يمكن ان تُترك من دون الاستفادة منه».

أما وقد بقي الشك في الحجج التي ساقتها ماثلاً في تلك الجلسة، لم تجد تلك المرأة سوى تكرار المحاولة لتبديده، فاستحضرت صفات يتمتع بها الجواسيس عادة «الكلام الجميل... الناعم... القدرة على بناء علاقات اجتماعية. السهولة في نسج تلك العلاقات وصولاً إلى تمتينها، فتتحول إلى صداقة وبسرعة، فللجاسوسية فن وهو كسب الثقة ومنحها».

أما كيف لها أن تعرف صفات الجواسيس؟ «فمن الأفلام والروايات، لأنها بُنيت على قصص حقيقية ولم تأت من فراغ...».

عددت سلمى ما تعتقد أنه من صفات الجواسيس وقالت إنها تنطبق على سلمى. لا بل أضافت إليها واحدة ربما هي الأهم برأيها: «جمالها..».

تحدثت عن جمال ساحر، عن شقارها وأناقتها وجاذبيتها وعن جسدها الممتلئ بعض الشيء، «فالجسد النحيف لم يكن دارجاً في تلك الفترة».

كانت نهى توظف جمالها بإقامة علاقات عاطفية متعددة مع رجال الحي. وأمام ابتسامة السامعين، قدمت سلمى رأسها وخفضت صوتها وهمست بواقعة أرادت لها أن تكون قاطعة في اتهامها: «لقد أقامت سلمى علاقات سرّية مع رجال متزوجين من جيرانها المقربين». ثم أسهبت في الحديث عن فلان كيف نسج علاقة مع نهى وكيف كانت زوجته لارا لا تدري بينما كان

سكان الحي كلهم يعرفون. لكن الحديث انقطع عند هذا الحد بعد أن قُرع جرس الباب ودخلت لارا التي اعتادت المرور اليومي عند سلمى، في مثل هذا الوقت للتداول في آخر أخبار الحي، وأبدت اهتماماً كبيراً عندما علمت ان حديث تلك الجلسة كان عن نهى، بطلة قصص جلسات عدة من جلسات نسوة الحي الصباحية.

ثم بدأت تتكلم بشيء من الانفعال والصوت المرتفع عن تلك المرأة التي أفسدت الأجواء في الحي بعد أن أوقعت الكثير من رجال الحي في شباكها.

سبحة أسماء الرجال التي يعتقد جيران نهى أنها نسجت علاقات عاطفية معهم طويلة، والأسماء فيها تكررت، وبدا أن نهى نسجت حولها روايات متقاطعة ومتداخلة، لدرجة أن كل جارة تحدثت عن الأخرى من دون أن تعلم أن اسم زوجها زُجّ من قبل أيضاً.

اقترب مضمون الحديث في تلك الجلسة من التحول إلى لعن الرجال وخياناتهم، قبل أن يتذكر هؤلاء أنهم يروون هذه الروايات بهدف واحد هو إقناع السائل بأن نهى جاسوسة، وأن الحديث ليس عن الخيانات الزوجية وعادات الرجال، إنما عن صفات الجواسيس.

لكن سلمى عندما أدركت إلى أي مدى أبعدت الحديث عن هدفه الأساسي، تمتمت بصوت منخفض «كل إنسان حر في تصرفاته الشخصية، لكن استخدام تلك السلوكيات للتجسس هو الشيء المريب». ثم نظرت الى الحاضرين وسألت «أفلا يتسلل كل الجواسيس من خلال العلاقات الجنسية؟ أليست هذه وسيلة بديهية لسحب المعلومات؟ ثم من أين لنهى كل هذه الثقة بالنفس؟ فقد كانت تتجرأ كثيراً على الآخرين، لدرجة أنها كانت تردد دائماً بأن اليهود هم أحسن قوم. فمن أين لها كل تلك الجرأة لو لم تكن تستند إلى من يحميها؟».

توقفت سلمى قليلاً لعلها تسمع تعليقاً أو إجابة. ولما بقي الصمت هو السائد قالت «الحي كله عرف أن زملاء نهى في الوزارة كانوا يتذمرون منها، لأنها كانت تكرر على مسامعهم أن اليهود شعب الله المختار وأحسن قوم». وبحدة تساءلت «عن أي قوم تتحدث؟ وكيف لها أن تقول إنهم أحسن قوم؟ أهكذا يكون أحسن قوم؟ يهجّر الناس ويسرق ممتلكاتهم ثم يقول باسم الدين إنها ممتلكاته وأرضه؟ ثم كيف لها أن تفاجأ في ما بعد أن طفح كيل مسؤوليها..آه؟ كيف»؟

ولما سئلت عن الذي قصدته بأن كيل مسؤوليها قد طفح، وكيف لها أن تعرف ؟ ابتسمت ابتسامة من نجح في شد الاهتمام إلى مضمون ما يقول، ونسبت الأمر إلى هاني قريبها الذي يعمل في الوزارة نفسها، فقد كان زملاء نهى يستغربون سلوكها وقرروا أن ينتدبوا زميلاً لهم ليرفع شكوى ضدها. اتفقوا على ذلك بسرية تامة كي لا تشعر وتقلب الطاولة على الشاكي، لأنها «داهية وواصلة» وكانت علاقاتها على أعلى المستويات كما قالت سلمى.

تكررت الشكوى بحيث لم يعد المسؤولون قادرين على ترك الأمور على حالها؛ فالتعاطف مع الفلسطينيين اتسع وحالة العداء لليهود بدأت تظهر، ما جعل كلامها عن أحسن قوم وعن الشعب الذي اختاره الله مستفزاً. فصدر قرار بنقل نهى من عملها إلى وزارة أخرى وليس برتبة مدير.

عادت نهى من عملها بعد تبلّغها القرار متوترة وشديدة الانفعال. رمت أغراضها في منزلها وقصدت سلمى كما تفعل يومياً تقريباً.

كانت غاضبة وتلفظت بأبشع التعابير، وقالت إن زملاءها في العمل عنصريون. فهم حرضوا الإدارة ضدها لاتخاذ قرار بتعليق كل مسؤولياتها ونقلها إلى وزارة أخرى حيث ستوضع على الرف، من دون مسؤوليات محددة. وهي بالتالي «دفعت ثمن انتمائها الطائفي، انتمائها للطائفة اليهودية» كما كررت القول في تلك الجلسة، لكنها لم تتحدث عن السبب المباشر لنقلها

وتعليق مسؤولياتها. وأخبرت سلمى التي تظاهرت بالجهل التام لمشاكل جارتها في العمل، بما قيل لها عندما حاولت الاستفسار، أن نقلها هو مجرد مناقلات في العمل، لكنها مقتنعة بأن الأمر ليس كذلك.

روت كيف كانت تسمع همساً غير مريح في الوزارة، لكنها في حينه لم تكن تأبه له إذ لا شيء تخشاه، فهي تتم واجباتها على أكمل وجه ولا تقصّر ولا تتغيب ولا تتأخر عن العمل فلماذا يحصل معها ما حصل ؟

لم تفاجأ سلمى بأخبار نهى في الوزارة، وهي بخلاف ما أبدته من استهجان كانت فرحة ضمناً للقرار الإداري بحقها، لأسباب أعادت شرحها أمام الحاضرين من دون الاكتراث إلى أنها سبق أن رددتها مراراً وتكراراً في تلك الجلسة «فهي في منصب رفيع في الوزارة ولا يمكن أن تُترك من دون توظيف أو استغلال من المخابرات الإسرائيلية ووو.... أما الآن فلم يعد لنهى أية مسؤوليات ولا إمكانات للوصول إلى معلومات حساسة».

توقفت سلمى عن الكلام، أشعلت سيجارة ونظرت إلى الحاضرين نظرة الواثق بأنه بلغ هدفه بالإقناع. انتظرت تعليقاً على كلامها، ولما لم تسمع شيئاً، أسندت ظهرها بعدما أدركت أنها كانت تجلس على حافة الكرسي للاقتراب أكثر من مصدر تعليقات التشكيك. وقالت «منذ ذلك التاريخ علّقت إسرائيل مهامها لأنها وبعد صدور قرار نقلها بدأت إجراءات الرحيل».

كان زوج نهى مسلماً يحمل الجنسية السورية ولها منه ولدان، بنت وصبي، سجلتهما في دوائر النفوس باسم عائلتها، واتخذت كل الإجراءات القانونية التي تحول دون تمكن زوجها من انتزاع أولادها منها لو قرر ذلك يوماً ما.

لا تتذكر سلمى الكثير عن زوج نهى لأنه نسج حياته الاجتماعية خارج وادي أبو جميل.. فهو لم يكن يرافقها في زيارتها المتكررة لجيران الحي. وكان يكتفي بمجالسة زوارها عندما يكون في المنزل.

عاشت نهى مع زوجها وأولادها في منزل العائلة الذي وُلدت فيه. فوالدها توفي ولم يبق لها في لبنان سوى أمها بعد أن غادر أشقاؤها جميعهم، وتردد أن أحدهم أصبح ضابطاً في الجيش الإسرائيلي في ما بعد. وعندما تقدمت والدتها في السنّ أرسلتها إلى إسرائيل.

قالت بصراحة لمقربين منها إنها قررت وضعها في مراكز خاصة لجمعيات يهودية تعنى بكبار السنّ لأن بقاءها في لبنان ظلم لها وللمحيطين بها.

وكانت نهى عندما تُسأل عن أشقائها تقول إنهم في أميركا اللاتينية، وإن السفر من وإلى تلك الدول شاق لذلك لا يأتون لزيارتها ولتفقد والدتهم في لبنان. أما هي فقد كانت تسافر أحياناً مع عائلتها وتقول إنها زارت أشقاءها في القارة الجنوبية. لكنها كانت تذهب إلى إسرائيل كما تقول سلمى جازمة.

كان ترحيل والدتها نقطة البداية لمغادرة العائلة، ثم تلاه رحيل الابن للدراسة في الولايات المتحدة.

وبعد سفر ابنها، أخبرت الجيران أن ابنتها تزوجت من يهودي وهاجرت إلى باريس، حيث يعمل زوجها في أحد المصارف.

أما نهى فقد بقيت في لبنان مع زوجها الذي لم يعد يُرى كثيراً في الحي، ولم يسمع الجيران بأخباره إلا عند إعلان وفاته بسكتة دماغية مفاجئة.

وفاة الزوج، بعد أشهر على رحيل الولدين والوالدة حرك الاستعداد الفعلي لرحيل نهى النهائي. كانت حرب سنة 1967 قد وقعت. وكانت عندها قد بلغت سن التقاعد فقبضت تعويضها وباعت المنزل.

جمعت نهى أغراضها للشحن بسرية تامة. باعت قسماً منها من دون ضجيج. ووضعت ما تريد نقله من تحف في صناديق.

لكن أمر بيعها المنزل وتوضيبها الأغراض انفضح ولم يبق سراً. فقد جاء سمير ابن سلمى يسأل عن أخبار صديقه ابن نهى، حاملاً إليه رسالة اعتادت نهى أن تضعها مع رسائلها إلى ابنها الوحيد.

كان زجاج الجزء العلوي من الباب الخارجي مفتوحاً قليلاً. فأبواب المنازل القديمة كانت لها نافذتان، زجاجها الرملي يحول عند إغلاقه دون رؤية ما يجري خلفه. ويسمح عند فتحه بدخول الهواء والنور إلى المنزل وتحديد هوية الطارق قبل فتح الباب.

رمى سمير بنظره داخل المنزل بحثاً عن نهى، فرأى صناديق كرتونية مكدّسة خلف الباب. كما لاحظ أن التحف في غرفة الجلوس التي يفتح باب المدخل عليها مباشرة قد اختفت.

بقي واقفاً لدقائق قبل أن تنتبه نهى لوجوده.

وعندما تأكدت من هويته تقدمت باتجاه الباب، خرجت إلى الجهة الخارجية من المدخل ووقفت تنظر إليه لتصرف نظره عن الداخل، بعد أن شدت درفة الباب صوبها لحجب الرؤية عن الداخل.

بدت نهى شديدة الارتباك، انتظرت كي يسألها سمير عما رأى لكنه لم يفعل. ولما سلمها الرسالة وهم بالانصراف، رجته ألا يخبر أحداً بما شاهد من صناديق وأعمال توضيب. وأبلغته أنها تنوي الانتقال إلى منزل جديد، وأنها ستخبر والدته بنفسها.

كانت نهى قد بدأت بإفراغ تدريجي للمنزل، فلم تعد تستقبل أحداً، ولم تعد تدعو أحداً لزيارتها، لا من الجيران ولا من الأصحاب من خارج المنطقة كما كانت تفعل أحياناً. كما أنها راحت تقلل من زياراتها للجيران كي يعتادوا على غيابها ولا يدركوا سريعاً أنها اختفت كما تقول سلمى.

لم يشعر أحد من الجيران أنها عرضت منزلها للبيع. ولم يعلموا إلا بعد رحيلها أن الشاري هو أحد تجار الخضار من الأكراد من سكان الوادي.

حتى هذه الواقعة استُخدمت في ما نسج من روايات أهل الحي عن نهى، «فالتاجر كان على علاقة سرية معها، وكان من الطبيعي أن تبيعه منزلها».

قالت سلمى إن هذا الشخص كان يزورها في الليل، وقد ضبطه أحد

أولاد الجيران داخلاً الى منزلها في ساعة متأخرة، لكنها لم تعد تذكر من هو ابن الجيران هذا، بخلاف تذكرها الدقيق لأسماء الرجال من الجيران وأماكن لقاءاتهم بنهى وكيفية حصولها.

لم يخبر سمير أحداً بما رآه من أعمال توضيب، على الرغم من ثقته أنها تمهيد للرحيل بخلاف ما قالته عن نيتها الانتقال إلى منزل جديد، لأن عائلتها رحلت ولم تعد بحاجة لمنزل كبير بحجم منزلها الحالي كما قالت له.

لم تمض سوى أيام معدودة حتى اكتشف الجيران أن نهى رحلت، وقد أتى الأمن العام اللبناني إلى الحي للسؤال عنها في نفس الأسبوع الذي غادرت فيه. ولما لم يفتح أحد باب منزلها سأل عناصر الأمن الجيران عنها.

فتح سمير الباب ووقفت والدته خلفه تنتظر تعريف هؤلاء الغرباء عن نفسهم. قالوا إنهم من جهاز الأمن، وإنهم يبحثون عن نهى لاستفسار بسيط كما قالوا. تقدمت الوالدة ودفعت ابنها إلى الخلف وقالت لهم إن ما تعرفه أن نهى سافرت، وأن أحداً لا يعرف وجهتها.

تقول سلمى إن أهل الحي والجيران عرفوا بعد رحيل نهى أن منزلها دوهم عدة مرات في آخر مراحل وجودها في لبنان، وأنها استدعيت مرة للتحقيق.

عاشت نهى في إسرائيل بقية حياتها، وبعد سنوات عدة على رحيلها اكتشفت أنها مصابة بمرض خبيث توفيت جرّاءه.

خواجة روبين

أنهت سلمى روايتها تلك وكأنها استعادت عمراً مضى بكل أشخاصه وذكرياته، لكنها لم تبد متعبة، لا بل رسمت ابتسامة رضا على وجهها بعدما سمعت تعليقات الدهشة والتعجب التي أثارتها تلك التفاصيل والتشعبات المثيرة لحياة نهى.

بدت راغبة بالاسترسال. وعندما سئلت هل من جواسيس آخرين أدارت شفتيها وأخرجت صفيراً تريد أن توحي من خلاله بأنهم كثر. ثم أشارت إلى النافذة في غرفة الجلوس وقالت إن أحدهم كان يعيش في المبنى المقابل تماماً، وإنها كانت تتابع حركته من شرفة منزلها في وادي أبو جميل. إنه مثقف الحي، فهو أستاذ في إحدى الجامعات الخاصة المرموقة.

يمر في شارع فرنسا مرتين في اليوم قاصداً منزله الذي يقع في نصفه تقريباً. مرة عند ذهابه إلى الجامعة، عند الثامنة والنصف صباحاً ومرة في طريق عودته، عند الثالثة بعد الظهر. وعندما يُرى في الشارع تُرمى عليه التحية مع انحناءة، لأن الخواجة أستاذ في الجامعة ويستحق تحية مميزة. وتلك عادة الجيران لدى التقائهم بأساتذة المدارس من سكان الحي، فكيف هو الحال إذن بالنسبة لأساتذة الجامعة؟ أما وأن الخواجة هو أستاذ الجامعة الوحيد المقيم في وادي أبو جميل، فهو لهذا السبب يستحق تحية مضاعفة ويستحق انحناءة خاصة.

كان سكان الحي يوقفونه أحياناً كثيرة على الطريق لاستشارته في شؤون

أولادهم التربوية. حتى باتوا يتقصدون الانتظار في وقت عودته أو ذهابه لمشورة، غالباً ما تتعلق بتقصير أحد الأولاد في دراسته، أو لسؤاله رأيه في تخصص أحد الأبناء بعد تخطّيه المرحلة الثانوية.

كان خواجه روبين متوسط القامة وأنيقاً، ويرتدي دائماً لباساً رسمياً مع ربطة عنق قاتمة اللون.

أما وجهه فمستدير، وأنفه صغير مرتفع قليلاً في آخره، وكانت تزيد من استدارته نظارة من العظم ذات لون قاتم، باتت علامة فارقة لا تدع مجالاً للشك بهويته عندما يظهر عند أول شارع فرنسا من ناحية القنطاري. وهو ربما، وكما تزعم سلمى، أول لبناني خضع لعملية تجميل أنف. فأنفه بات صغيراً بعد أن كان طويلاً وغليظاً. وقد لاحظ ذلك سكان الحي ولا سيّما أولئك الذين يجلسون لساعات يومياً أمام مدخل منازلهم في شارع فرنسا ويحدقون بالمارة طولاً وعرضاً.

لكن الخواجة روبين كان يثير لدى سلمى شعوراً بعدم الارتياح. كانت تقطن في بناية سنو مقابل منزله تماماً وتعتقد لا بل تجزم أنه جاسوس إسرائيلي.. وتبرر اتهامها هذا بأن منزل الخواجة لا يفرغ من زوار الليل من كبار القوم. أما كيف لها أن تحدد هوية زائريه، وهي التي لم تغادر الحي يوماً؟ فمن نوعية السيارات التي كانوا يملكون كما تقول.

وهي تذهب في تحديدها أكثر لتقول إن غالبية زوار الخواجة ليسوا فقط من اللبنانيين، إنما من المسؤولين الفلسطينيين أيضاً ومن مسؤولي منظمة التحرير في لبنان..

تستغرب سلمى كيف ليهودي مثل خواجة روبين أن تكون لديه كل تلك العلاقات مع مسؤولين فلسطينيين لو لم يكن يعمل لصالح جهاز خارجي. وبما أنه يهودي، فهذا الجهاز إسرائيلي حتماً، كما تقول..

لا تذكر سلمى اسم هؤلاء الزوار، لكنها تؤكد الرابط الذي يجمعه مع

شخصيات فلسطينية رفيعة عديدة كانت تقيم في لبنان. فقد كانت تعرف أنهم فلسطينيون لأنها رأت بعضهم على شاشتها الصغيرة، ومن خلال لون بشرتهم ولون بشرة مرافقيهم الذين كانوا يلازمون الشارع أثناء زيارة تلك الشخصيات للخواجة روبين..

تقول سلمى إن تلك الزيارات تكثفت في مطلع السبعينات، وتحديداً بعد اتفاق القاهرة الذي أعطى الفلسطينيين حرية العمل العسكري انطلاقاً من الأراضي اللبنانية. وتغيرت طبيعة الإجراءات الأمنية المرافقة لها. فباتت السيارات تقطع الشارع مسرعة بعد أن يكون مسلحون في سيارة أمامية قد أخذوا استحكامات قبل وصول سيارة المسؤول بقليل.

كان المرافقون ينزلون من السيارة أولاً، ثم يفتح أحدهم الباب وهو يتلفّت يميناً وشمالاً لتأمين نزول زائر الخواجة.

لم يكن لمنزل روبين من شرفة، إنما نافذة يتسلل منها ضوء الإنارة عندما يكون في المنزل ليلاً، وتظهر من خلالها حركة الداخل بصورة ظلال.

كانت سلمى تقترب من شرفتها المقابلة، بعد إطفاء ضوء الغرفة كي لا يلاحظ أحد وجودها، وبحركة إصبع حذرة وبطيئة، تزيح الستارة قليلاً، في محاولة لرؤية ما كان يجري في منزل الخواجة. لكن مراقبة سلمى لم تكن تشفي غليلها دائماً، فهو كان غالباً ما يقفل الستارة عند استقباله زواراً، حاجباً الرؤية إلى الداخل، لكنه أحياناً لم يكن يكترث، فيبقي ستارته مفتوحة ونافذته كذلك، ما يعطي سلمى مادة دسمة لصبحية اليوم التالي.

لم تكن استقبالات الخواجة روبين منتظمة في يوم محدد أو ساعة محددة لكن سلمى كانت تعرف بتلك الزيارات «المريبة» من خلال حركة الشارع، وتعرف من دون أن ترى السيارات التي تقصد الخواجة أو تلك التي تعبر الشارع باتجاهات أخرى، لأن كل سيارة مسرعة كانت حتماً تقل زائراً «مهماً للخواجة». فالحي هادئ، وشارع فرنسا لم يكن الممر الأساسي للسيارات،

وهو ضيق ولا داعي للسرعة فيه، ثم إن السرعة والتوقف المفاجئ يحدثان صوتاً في الليل، ولا بد بالتالي أن يثيرا انتباه من يقطن في الطوابق السفلى مثل سلمى.

ليست مراقبة الخواجة هي المهمة الوحيدة لسلمى، إنما مراقبة الحي كله. وهي تهرع إلى الشرفة لتحديد هوية السيارة وصاحبها والبيت الذي يقصده. لكن مراقبة اليهود كانت على الموضة في تلك الفترة لإحصاء من ترك ومن بقي وما حل به وبأغراضه.

كانت الزيارات عند الخواجه تتم دائماً في المساء، ما أعطى سلمى، من وجهة نظرها، دليلاً إضافياً على أن الزوار من المسؤولين الكبار.

تذهب سلمى أكثر في تدقيقها لإقناع سائلها فتقول إن الزيارات كانت تستمر لساعة متأخرة من الليل، وبالتالي فهي زيارات غير تقليدية خاصة إذا كانت في بحر الأسبوع.

ولما كانت تشعر أن دليلها غير مقنع، كانت تتحدث عن سماعها ليلاً أصواتاً تحدثها الكتابة على آلة داكتيلو تتسرب من شرفة الخواجة، ولا سيّما بعد مغادرة زواره. فآلة الداكتيلو « هي حتماً تلك التي تراها في الأفلام لفك الشيفرة. وهي نفسها الآلة التي تعطى للجواسيس لنقل المعلومات، ولا بد أن يكون الخواجة قد تسلمها للتواصل مع إسرائيل».

أما ما كان يقوله بقية الجيران، رفضاً لتشكيكها من أن ما تسمعه من تكتكات ليست سوى طباعة حصة اليوم التالي في الجامعة، فلم تكن تعيرها أية أهمية، لأنها تعتقد أن في ذلك تسفيهاً لحقيقة الأمور، فهو حتماً يجلس مع شخصيات فلسطينية، يستدرجهم إلى طاولة الخمر، يستمع إلى معلوماتهم، ثم يرسلها عبر الجهاز الذي كانت تسمع تكتكاته في كل مرة كان الخواجة يستضيف شخصيات تأتي مع مرافقين. «فهل في الأمر صدفة؟» كما سألت؟

لكن شكوك سلمى عن الخواجة روبين لم تكن خاصة بها، فابنتها الصغرى لينا كانت تشاطرها الهواجس نفسها. فهي كانت صديقة ابنة الخواجة وتذهب إلى منزلها باستمرار. وكانت تلاحظ أن غرفة الخواجة مقفلة دائماً والاقتراب منها ممنوع.

روت سلمى هذه الواقعة وقالت إن إقفال الغرفة دليل إضافي ضده فهو يخشى أن يكشف أمر وجود أدوات اتصال مع إسرائيل خبأها في تلك الغرفة.

أما احتمال أن يكون الجار اليهودي اجتماعياً ويحب استضافة الناس في منزله، وله علاقات واسعة شبيهة بتلك التي ينسجها عادة أساتذة الجامعة، فترفضه سلمى وشقيقتها..

حتى تلك المهرجانات التي كان ينظمها في مدرسة التلمود قرب الكنيس كل يوم سبت، حيث كان يسمح لعدد من أبناء الحي من كل الطوائف بالدخول، فهي تصب في نفس الإطار، وقد تكون ستارة لتغطية عمله الفعلي «كجاسوس».

لا تتحدث سلمى كثيراً عن زوجة الخواجة فقد توفيت باكراً كما أنها لم تكن كثيرة الاختلاط، وتلازم المنزل ولا تخرج إلا لشراء حاجياتها. وقد تولت الجدة، والدة روبين، الاهتمام بحفيديها بعد وفاة والدتهما.

بقي الخواجة روبين في لبنان حتى قبيل اندلاع الحرب الأهلية عام 1975 بقليل. إلا أنه أرسل أمه وولديه إلى باريس، قبل سنوات عدة على اختفائه. وجاء رحيله النهائي كما هو حال كل الذين غادروا من دون ضجيج وبشكل مفاجئ. فهو لم يعد يرى في أوقات كسابق عهده، ولم يعد زواره المعتادون يزورونه، كما أن أنوار منزله بقيت مطفأة.

تقول سلمى إن الخواجة لم يبع شقته قبل رحيله وهي تعتقد أن المنزل الذي ضُمّ إلى مشروع إعادة إعمار وسط بيروت الذي دمرته الحرب، أو ما

يعرف بمشروع سوليدير، قد يكون من ضمن أملاك اليهود في تلك المنطقة التي حددت وأحصيت وتابعها محامون بتكليف من يهود لبنان من أصحاب الأملاك، حفظاً لحقوق أصحابها.

شيلا

بعد تنهيدة عميقة، دارت سلمى بعينيها على الحاضرين، وسألت إن كانوا راغبين بالمزيد، فاهتمامها «بجواسيس» الحي المفترضين ملأت جزءاً كبيراً من وقتها ومن ذاكرتها، خاصة إذا كان الاسم بحجم شيلا كوهين الفتاة السمراء الجميلة التي سكنت بناية خليل شويري، أو ما يعرف ببناية الشويري في نزلة المدرسة الأهلية في وادي أبو جميل، وشغلت لبنان لسنوات طويلة بعدما نُسجت حولها قصص فضائحية.

عملت شيلا في أحد المصارف المحلية، وهي، حسب سلمى، لها مواصفات الجواسيس. فإلى جانب كونها جميلة، كانت ودودة مع جيرانها. لكنها بخلاف نهى «الجاسوسة» التي كانت تعمل في إحدى الوزارات الخدماتية، لا تختلط مع أهل الحي كثيراً.

قليلون دخلوا منزلها، فهي لا تدعو أحداً من الجيران إليه لا لفنجان قهوة صباحي ولا في أية مناسبة، كما قالت سلمى بنبرة استغراب. كما أنها لا تزور أحداً، لا للتهنئة ولا للتعزية ولا حتى للتحية.

تعود شيلا من عملها، تدخل منزلها، تقفل بابها ولا تختلط. لكن بيتها كان عامراً بزيارات من خارج الحي وعدة مرات في الأسبوع، ما كان يثير فضول الأهالي وتساؤلاتهم حول طبيعة تلك المرأة التي لا تبدو اجتماعية في محيطها، لكن منزلها لا يفرغ.فهي كانت تقيم سهرات في منزلها عدة مرات في الأسبوع لأشخاص يبدو أنهم من الطبقة المخملية ومن الرسميين.

صمتت سلمى عندما وجدت أن ما قالته أثار الاهتمام، وتمهلت قبل أن تجيب على سؤال تردد بين الحاضرين عن هوية هؤلاء الزوار، وكأنها تريد أن تعوض ما قوبلت به من تشكيك في رواياتها السابقة، من دون أن تدرك لماذا كانت قصة شيلا أقرب إلى التصديق من غيرها. وأمام الإلحاح في طرح الأسئلة، أشعلت سيجارة وقالت إن زوار شيلا كانوا من الوزراء والنواب وشخصيات أمنية، يترددون عليها، ويسهرون عندها في حفلات شبه دورية كانت تقيمها.

تجاهلت سلمى الأسئلة عن أسماء هؤلاء، وأخبرت الحاضرين كيف كانت شيلا تسافر أيام العطل الرسمية الطويلة وفي عطلتها السنوية، ربما لرؤية أهلها وأقاربها في إسرائيل، أو في غير مكان. فالجيران كانوا يلاحظون غيابها في بعض الأحيان في الصيف وأيام العطل. كانوا في كل مرة يظنون أن هذا الغياب نهائي، لكنها سرعان ما تظهر مجدداً، فيتحول الحديث عن غياب شيلا إلى حديث عن عودتها والاحتمالات المتصلة بأسباب تلك العودة وعن جديد الوجوه في السهرات التي كانت تقيمها في منزلها.

تستغرب سلمى كيف كانت شيلا شديدة الاطمئنان إلى أن أمرها لن ينكشف «فهي حتماً كانت تجمع معلومات من الشخصيات التي كانت تزورها وتسافر بها إلى إسرائيل».

اعتادت سلمى على نظرات التشكيك المتكررة في كل مرة تتحدث فيها عن جاسوس في الحي، لكنها في حالة شيلا تعتقد أن حجتها قوية. «فقد داهمت القوى الأمنية منزلها عدة مرات». وهي تولت شخصياً إرشاد الشرطة في إحدى المرات إلى منزل شيلا عندما كان هؤلاء يسألون تائهين في آخر شارع فرنسا.

ضُللت هذه الدورية من قبل يهودي في الحي عندما سأله أحد عناصر الشرطة عن بناية الشويري حيث منزل شيلا، فدلّهم على عنوان خاطئ،

هكذا قالت سلمى.

يومها أوقفت شيلا بالفعل، اقتيدت مخفورة من منزلها وأمام أعين الجميع، وبقيت في السجن فترة طويلة، وحوكمت ثم أفرج عنها بعد وساطات من نافذين «لأنهم خافوا أن تتأثر سمعتهم، أو أن تشملهم التحقيقات» كما تستنتج سلمى «وإلا كيف لجاسوسة أن يفرج عنها بهذه السهولة؟».

لا تعرف سلمى ما حل بشيلا، ولا أحد يذكر شيئاً عن عائلتها سوى أنه كان لديها شقيقتان تسكنان في الوادي غير بعيد عن مكان سكن شيلا، تركتا المنزل ورحلتا...

وحسب روايات أهل الحي، فإن رحيلهما تم بشكل مباغت لأنهما تركتا سيارة كانتا تملكانها. وقد بقيت السيارة مركونة في الشارع المقابل لمدخل منزلهما لأشهر طويلة، فتراكمت عليها طبقات الغبار وانتشر فيها الصدأ، ثم سُرقت.

وجود السيارة أبقى الشقيقتين حاضراً إلى أن طال الغياب، فتأكد الجميع أنهما غادرتا من دون رجعة، ما أثار التساؤلات والتحليل ولا سيّما أنه لم يسبق أن ترك أبناء الطائفة المغادرون ممتلكات لهم من دون تسييل.

شكرت سلمى الحاضرين على حسن الاستماع، وكأنها تريد إنهاء الجلسة، مطمئنة إلى أنها هذه المرة أقنعت لأنها لم تقاطع بتساؤلات التشكيك كما في رواياتها السابقة.

ولما لم يظهر أيّ من الحاضرين رغبة بالمغادرة، وأمام نظرات تطالب بالمزيد حول شيلا، تجاوبت، وبثقة من تحول إلى راوٍ ممتع ومرغوب، أعطت لصوتها نبرة جدية اختلفت عن نبرة الثرثرة التي سادت الجلسة منذ بدئها عن أدلة لم تجد سوى ابتسامات الهزء من الحاضرين، فصدى رواية شيلا بدا مختلفاً.

أُلقي القبض بالفعل على شيلا كوهين عام 1961 ضمن شبكة مؤلفة من

مجموعة أشخاص، هي اليهودية الوحيدة بينهم. وصدر حكم عليهم بعد محاكمة استمرت أسابيع، طلب لها القضاء في نهايتها السجن عشرين عاماً بتهمة التعامل مع «العدو»، وتزويده معلومات عن التشكيلات العسكرية والإدارية بما يضر بمصلحة لبنان واستقراره.

تولى الدفاع عنها خلال المحاكمة محام كان يتردد على منزلها في وادي أبو جميل عندما كان يتولى منصباً رفيعاً. وقيل يومها إنه خاف أن يتورط خلال مجريات المحاكمة، فتطوع للدفاع عنها.. لكن شيلا لم تُمضِ محكوميتها وأفرج عنها بعد ذلك بسنوات قليلة.

يومها نقلت لجنة مراقبي الهدنة العاملة على الحدود اللبنانية مع إسرائيل، في إطار اتفاق الهدنة الذي وقعته إسرائيل مع عدد من الدول العربية عام 1949، طلباً إسرائيلياً إلى الحكومة اللبنانية بالإفراج عن شيلا مقابل الإفراج عن عسكريين أوقفتهم إسرائيل على الحدود اللبنانية الدولية في الجنوب.

كان هؤلاء العسكريون يقومون بأعمال الدورية في منطقة العديسة الجنوبية الملاصقة لأراضي شمال إسرائيل، وحيث التداخل الحدودي كبير. لم يكن الشريط الشائك قد ارتفع للفصل بين الدولتين بعد. وكانت علامة الحدود الوحيدة زفت الطريق في منطقة العديسة الذي كان يشكل الحد الفاصل بين أراضي الدولتين.

نوقش الطلب الإسرائيلي في مجلس الوزراء فأُقرت صفقة التبادل. وبعد أيام قليلة أطلقت السلطات اللبنانية سراح شيلا وسلمتها للجنة مراقبة الهدنة، في مقابل إفراج إسرائيل عن الجنود اللبنانيين الأربعة..

هزت سلمى رأسها، مكررة كلمة نعم، وهي تستمع إلى تعليقات الحاضرين إزاء ما روته للتو، واستغربت كيف تحولت الجلسة إلى جلسة دائرية ضيقة بعد أن بات الحاضرون يجلسون على حافة كراسيهم للاقتراب منها أكثر، ويمدون رؤوسهم باتجاهها لعدم تفويت أية كلمة

مما تقول.

أفلتت ضحكة رضى، وروت كيف كُشف أمر شيلا عن طريق الصدفة.

تم ذلك في صيف عام 1961 عندما كانت المخابرات العسكرية اللبنانية، بطلب من رئيس الحكومة آنذاك رشيد كرامي، تحقق في قضية تزوير طوابع بريدية في وزارة البرق والبريد والهاتف. يومها توصلت التحقيقات إلى تحديد مشتبه به واسمه محمود عوض.

وُضع عوض تحت المراقبة المكثفة، فكشف أمر اتصالات دورية يجريها برقم هاتفي معين.

فوضع هذا الرقم تحت المراقبة وتبين أنه لامرأة لبنانية تدعى شيلا كوهين، تسكن في وادي أبو جميل.

لم يكن لدى الأجهزة اللبنانية ما يضع تلك المرأة في دائرة الشك، لكن المعلومات الأولية التي جُمعت عنها أشارت إلى أنها سيدة مجتمع تقيم في منزلها جلسات لكبار القوم، وأن تلك الجلسات كانت تشهد نقاشاً في السياسة والأوضاع العامة في لبنان والمنطقة.

كانت خبرة المخابرات العسكرية اللبنانية في تلك الفترة متواضعة، فقد كانت حديثة العهد، واقتصرت إمكانياتها على مراقبة ستين خطاً هاتفياً فقط، غالبيتها تعود لرؤساء الأحزاب والتنظيمات والسفارات. لكن حساسية القضية دفعت المخابرات لمراقبة هاتف شيلا أيضاً.

خمسة عشر يوماً كمرحلة أولى للتثبت من معلومات أولية جُمعت حول ارتباطاتها، فتبين أن اتصالات عوض مع شيلا مرمّزة ومشفرة، ما أثار المزيد من الشكوك. وتبين لاحقاً أن عوض كان يعطي شيلا معلومات عن الوزارة التي كان يعمل فيها وعن وزارات أخرى وما تيسر له من معلومات.

ثم قررت المخابرات العسكرية اللبنانية تطوير عملية المراقبة، من خلال

استئجار منزل فوق شقة شيلا وآخر في مقابل شقتها لإتمام تصوير ما كان يجري في داخله.

لم يكن لدى جهاز المخابرات كاميرات حديثة، فقد كان الجهاز في طور التأسيس لذلك فإن الكاميرا التي صُوِّرت بها شيلا وحركة منزلها كانت مستأجرة كما تقول سلمى.

وفي الشقة التي تعلو منزلها وُضع صحن لاقط للتنصت وتسجيل الأحاديث، وهو شبيه بالصحون اللاقطة للفضائيات المعروفة بشكلها الدائري. وربط الجزء الخلفي لهذا الصحن اللاقط بسلك موصول بمكبر للصوت أو آلة تسجيل ووضع جزؤه الأعرض على الأرض مباشرة فوق غرفة جلوس شيلا، وجرى تسجيل ما كان يدور من أحاديث في تلك السهرات بحضور مدراء عامين ووزراء ونواب سابقين وسفراء.

كما سُجلت مكالمات كانت تتم بعد مغادرة زوار شيلا بلغة غير مفهومة تبين في ما بعد أنها لغة مشفرة كانت شيلا تستخدمها عبر جهاز مشفر صودر بعد مداهمة منزلها، وتبين أنه كان صلة وصلها بإسرائيل. وقد اعترفت شيلا خلال التحقيق معها بأنها زودت إسرائيل بمعلومات عن الجيش والوزارات اللبنانية ولا سيّما وزارتي المال والاقتصاد.

بعد التحقيق معها أُحيلت شيلا إلى المحكمة العسكرية فحُكم عليها بالإعدام، ثم خُفّف الحكم إلى السجن عشرين عاماً. أما الإفراج عنها فقد تم بعد شهرين تقريباً على حرب 1967.

لفّت سلمى ذراعيها، واستمعت من دون تعليق، إلى الأحاديث الجانبية التي دارت حول رواياتها، لكنها أمام ما قيل عن شيلا كأول جاسوسة نجحت إسرائيل في زرعها، استأنفت حديثها بشيء من الامتعاض لأن ذلك يعني عملياً أن السامعين لم يصدقوا إلا روايتها هذه، ولم يأخذوا ببراهينها السالفة عن «الجواسيس» الآخرين.

كان لشيلا قريب يعرف بأبي أيلا، لم يترك الحي حتى بعد توقيف شيلا ورحيل شقيقتيها. لكن أحداً لا يعرف ما كانت مهنته بالضبط.

كان يخرج صباحاً ولا يعود إلا ليلاً. وكثيراً ما يجالس أهالي الحي بعد عودته، إلى منزله.

ينزل نرجيلته معه ويجلس أمام أحد مداخل الأبنية حيث له أصدقاء يلازمون الرصيف ليلاً ولا سيّما في الصيف وفي أيام الصحو في الربيع والخريف.

كان يستمتع بسماع أخبارهم وأخبار الحي وما جرى في غيابه. وكانت حلقة النرجيلة الضيقة تنتقل أحياناً من رصيف إلى آخر حسب المزاج وهوية الجالسين وحركة الشمس صيفاً وشتاءً.

كانت الشكوك حول «الجواسيس» قد كثرت بعد حرب 1967 وبعد اكتشاف أمر شيلا، ما فرض على السلطات اللبنانية متابعة من نوع آخر لم تكن في الحسبان سابقاً.

لكن روايات بعض أهالي الوادي عن هؤلاء غلب عليها التضخيم، معزّزاً بالهواجس التي نمت في تلك الفترة كما أقرت سلمى، من دون أن تنفي كل ما سبق أن أوردته عن «شخصياتها» لأنها على يقين مما قالت، بخلاف روايات بعض جيرانها والمحيطين والتي تزعم أن أشخاصاً آخرين ظلمتهم بعض الألسنة.

لقد أقرت أن التهم كانت تُلصقُ أحياناً بأسماء، لمجرد كون المعني يتأخر ليلاً أو أنه يقيم سهرات في منزله عدة مرات في الشهر، أو أنه يختفي لفترة ثم يظهر... حتى أن بعض الأهالي بدأ يتجنب الاختلاط ببعض العائلات اليهودية، ليس بسبب الإشاعات فقط، إنما أيضاً بسبب تنامي الشعور المناصر للقضية الفلسطينية وما رافق ذلك من شعور معادٍ لليهود في لبنان لدى البعض.

هذا الواقع أثر على جلسات النرجيلة لدى أبو أيلا، وبدأ البعض يتهرب منه في حلقات الرصيف. لم يصل الأمر إلى حد المقاطعة أو القطيعة معه، لكن أحداً لم يعد ينادي عليه. أما إذا بادر هو وحضر فلا بأس.

كان أبو أيلا يتصرف وكأنه لم يشعر بما يسود المحيط من حذرٍ مستجد. وبقي يواظب على الانضمام إلى حلقات الحي غير آبهٍ بانسحابِ البعض. لكن غيابه لأيام متتالية عن حلقات الرصيف شبه اليومية أثار الشكوك.

ظنوا أنه مريض أو أنه أدرك شعورهم الحذر، وتمنوا لو كان الاستنتاج الثاني صحيحاً. وفي اليوم التالي وجد أبو أيلا جثة هامدة على الطريق تحت المبنى الذي كان يقطن فيه قرب بناية الشويري في الوادي.

قيل يومها إنه رمى نفسه من شرفة منزله في الوادي، عندما كُشف أمره، وخشية إلقاء القبض عليه والتحقيق معه. فهو أيضاً كان «جاسوساً» كما تجزم سلمى، رافضة بالتالي فرضية أن يكون أبو أيلا قد تعرض للقتل.

دُفن أبو أيلا في مدافن اليهود في السوديكو. كان أحد الحاخامين ما يزال يقيم في المنطقة الشرقية، ويتولى الانتقال بين بيروت وسوريا لمتابعة شؤون أبناء الطائفة.

نُقل أبو أيلا بحضور عدد محدود من الأصدقاء إلى تلك المقبرة. وصل الحاخام ببذلة عادية وفي يده كيس. انتظر الجميع قليلاً حارس المقبرة الذي يقيم مع عائلته في غرفة داخلها كي يفك طوق السلاسل حول باب المقبرة الرئيسي..

دخل الجميع بصمت، ولكن بسرعة بادية، صعدوا درجاً يفصل الساحة عن المدخل. أخرج الحاخام القلنسوة من الكيس ووضعها على رأسه وقد بدا متوتراً وأخذ يتلفّت يميناً وشمالاً من دون سبب ظاهر، كما نسبت سلمى لزوجها الذي حضر الدفن، ثم أجرى الصلاة بسرعة وأتم المراسم وخرج مهرولاً باتجاه سيارة الأجرة التي كانت بانتظاره. اطلق باتجاه المتحف ودخل

الجانب الشرقي من العاصمة واختفى.

كان زوج سلمى صديقاً لأبي أيلا، كما كان يقيم صداقات كثيرة مع اليهود في وادي أبو جميل. وبعد أن انضم الى جلسة «أخبار الجواسيس» تلك أبدى غضباً شديداً من هواجس سلمى إزاء بعض أبناء تلك الطائفة لأنه نسج معهم علاقات وطيدة.

بين أصدقائه ملحّنٌ من آل بصل، كان يعمل في الإذاعة اللبنانية وذهب إلى إسرائيل مع زوجته آمال شوقي التي كانت تعمل مغنية في الإذاعة اللبنانية وهي من الطائفة اليهودية أيضاً.

هذا الملحن اتخذ اسماً فنياً هو سليم شوقي، وقد غادر باكراً مع زوجته إلى إسرائيل حيث عمل في الإذاعة الموجهة إلى العالم العربي.

لم يكد زوج سلمى ينهي حديثه حتى تدخلت وأخبرت الحاضرين أن بيت هذا الفنان دوهم أيضاً.

انسحب زوج سلمى ممتعضاً، بعد أن ذكّرها أن بيوتاً كثيرة دوهمت لمجرد الشك، وليس بفعل إثبات أو إدانة.

لم تطلب سلمى من زوجها البقاء وبدت مرتاحة لمغادرته. وكعادتها بين رواية وأخرى، أطلقت ضحكة خافتة مع حركة بيدها تشير إلى أنها تذكرت ما هو شديد الأهمية.

ثم سألت الحاضرين هل سمعوا قصة الحاخام الذي وُجد مقتولاً؟

لم تنتظر الجواب على سؤالها وقالت إن حاخاماً يهودياً وُجد مقتولاً قرب محل الأرلكان سابقاً في نزلة وادي أبو جميل، ليس بعيداً عن كنيسة مار الياس حالياً.

كان هذا الحاخام دائم التجوال في الحي، وكان كغيره من يهود لبنان يتحدث بلكنة حلبية كانت تميز لهجة اليهود عن غيرهم. حتى إن بعض سكان الوادي مثل سلمى، وبسبب عشرة اليهود، اكتسب هذه اللكنة، وقد

سألها أحد رجال الأمن يوماً عما إذا كانت يهودية بسبب لكنتها.

كان الحاخام الذي لا تذكر سلمى اسمه، يرتدي قبعة مستديرة وقد ترك لحيته تتدلى وكذلك سالفاه، يحب أن يتمشى في أزقة الوادي وشوارعها. وقد اعتاد أن يضع في جيبه قطع الشوكولاه والكاراميل. وكان أولاد الحي يهرعون باتجاهه عندما يمر طلباً لتلك الحلوى.

تعتقد سلمى أنه كان «جاسوساً» لكنها بخلاف رواياتها السابقة، لم تكن جازمة ونسبت إلى أصدقائها أن الحاخام المذكور كان يحب الفتية ويتحرش بهم حتى إن بعض الأهالي اشتكى من سلوكه لدى مرجعيات دينية يهودية.

عندما وُجد الحاخام مقتولاً، مرمياً في أحد شوارع وادي أبو جميل، أعيد السبب إلى سلوكه هذا. لكن سلمى تعتقد أنه صُفّي بعد انكشاف أمر ارتباطاته بإسرائيل. لم تكن سلمى تحب رجال الدين اليهود، وتحديداً هذا الحاخام الذي وجد مقتولاً. فقد أبلغها مرة أن اليهود أقرب إلى الإسلام منهم إلى المسيحيين. أسمعها أن التعاضد بينهم يعود إلى زمن اضطهادهم سوياً في الأندلس عندما هُجروا إلى نفس الأمكنة. وزاد قائلاً لها إن الخلاف مع المسيحيين ديني. فالمسلم موحد واليهودي موحد والمسيحي مثلث وصلاته تبدأ دائماً بعبارة باسم الآب والابن والروح القدس، من هنا فإن عقيدة التوحيد تجمع اليهودي إلى المسلم وليس إلى المسيحي. ولم يكن ينفع قول سلمى إن صلاة المسيحي تنتهي دائماً بعبارة: إله واحد آمين.

وكي تعمم شعورها تجاه تلك الطائفة لأسباب دينية، حاولت إقناع السامعين بأن اليهود لم يكتفوا بصلب المسيح، ولم يكتفوا بنكران قيامته ومجيئه، لا بل كانوا يحتفلون أثناء مناسباتهم الدينية بتصنيع خبز مجبول بدم المسيحيين، ويطلقون عليه اسم «خبز المصة...».

وحسب رواية سلمى، فإن اليهود القدامى كانوا يأتون بمسيحي

ويضعونه على تخت فيه مسامير حتى ينزف، ثم يأخذون دمه ويعجنون العجينة به ويصنعون خبزاً مربعاً أبيض لعيد الفصح، وهو خبز قاس يبلل بالماء كي يصبح قابلاً للمضغ.

ولما بدت عاجزة عن إثارة الفضول والإقناع، عادت سلمى إلى «المعلومات الأكيدة» لديها عن «جواسيس» وادي أبو جميل.

استعادت نبرتها الجدية، وراحت تسرد معلومات موثقة ورسمية نُشرت يومها في الصحف عن شبكتين للتجسس، الأولى هي شبكة القس جميل القرح، والثانية هي تلك التي كان يتولاها شخص يدعى موسى سرور.

ضمت شبكة القرح ثمانية أشخاص بينهم وليم بستولي، وهو من الطائفة اليهودية والقس الذي عرفت الشبكة باسمه والذي أدى توقيفه في سوريا إلى انكشاف أمر تلك الشبكة.

حُكم على أعضاء الشبكة بالإعدام. نفذ الحكم بحق ثلاثة بينهم رجل الدين. لكن الحكومة اللبنانية طلبت استرداد البستولي وأفرج عنه وزوجته عام 1971 ورحل إلى إسرائيل.

كان بستولي متزوجاً من ابنة القس، ونجح في تجنيد أشخاص في سوريا ولبنان. وعندما أُبلغ الأمن العام اللبناني من قبل الجانب السوري بما لديه من معلومات، وُضع بستولي تحت المراقبة ورصدت حركة زوار منزله في الأشرفية. كما رصدت إشارات جهاز اللاسلكي الذي كان في منزله، ثم حددت ساعة الصفر لاقتحامه.

توجهت قوة من الأمن بثياب مدنية وقرعت الباب، ولما فتحت الزوجة، دهم رجال الأمن المنزل، وأخذوا استحكامات في داخله بعد أن جرى تكبيل بستولي. أومأ وليم لزوجته برأسه لإدخال الأولاد إلى غرفة جانبية. تقدم الضابط منه وأبلغه أنه موقوف بتهمة الاتصال بدولة عدوة ونقل معلومات عن ثكنات الجيشين اللبناني والسوري ومعلومات أمنية من البلدين. ولما

أنكر التهمة فتش رجال الأمن المنزل ومقتنياته فوجدوا الجهاز داخل تمثال للسيدة العذراء في غرفة الجلوس الرئيسية قرب هاتف بدا عادياً، لكنه تبين عند تفكيكه أنه جهاز إرسال وتلقٍّ أيضاً، وقرصه يتحرك يميناً للإرسال وشمالاً للتلقي، كما أنه يصدر رنة خفيفة عند تلقي المعلومات.

وفي الفترة نفسها، ألقت القوى الأمنية القبض على موسى سرور بتهمة نقل معلومات إلى الجانب الإسرائيلي. وحوكم سرور عام 1962 وطلبت له عقوبة السجن لمدة عشرة أعوام، ثم أطلق سراحه، علماً أنه أوقف في خلال عملية أمنية عند الحدود قرب بلدة علما الشعب حيث استأجر موسى منزلاً.

كان موسى يلتقي ضباطاً إسرائيليين على الطريق الموازي للحدود حيث لم يكن قد وضع أي شريط شائك في تلك الفترة. وكُشف أمره من خلال وشاية وصلت للأمن العام عن تلك اللقاءات. فقد صودف وجود أحد المزارعين في حقله في ساعة متأخرة من الليل عندما رأى على الطريق الجانبي المنحدر شخصاً يتقدم باتجاه الأراضي الإسرائيلية، ثم سمع هدير سيارة تأتي من الجانب الآخر عند الحدود تماماً، لكنها كانت تتقدم مطفأة الأنوار، وقد ترجل منها شخصان ووقفا لربع ساعة يتحدثان مع الرجل الذي عاد أدراجه إلى الأراضي اللبنانية بعد انتهاء اللقاء، بينما ركب الإسرائيليون السيارة وعادوا من حيث أتوا.

تمت لقاءات عدة بالطريقة نفسها، وكان موسى يبيت ليلته في منزله المستأجر بعد كل لقاء قبل أن يتوجه إلى بيروت مع طلوع الضوء. وبعد شهرين من المراقبة ألقي القبض عليه عائداً من أحد تلك اللقاءات واعترف بأنه مكلف بجمع معلومات أمنية عن الجيش اللبناني والحكومة.

وقفت سلمى بعد أن أبلغت السامعين أنها أفرغت كل ما في جعبتها، وقد غلب عليها التعب من كثرة ما تكلمت. وبعيون ناعسة، نظرت وهزت

رأسها نافية أن يكون لديها المزيد عن أخبار «الجواسيس» وأرادت أن تنهي الجلسة والحديث، بعد أن أدركت أنها أقنعت في جزء ولم تقنع في جزء آخر، فتمتمت تعابير الندم إزاء عدم تقدير جهدها ومعلوماتها. لكنها سرعان ما استعادت بعضاً من حيويتها عند سؤالها عن روايات حاخامي الحي. فعادت وجلست ومدّت رأسها باتجاه السائل وبصوت منخفض يشير إلى رهبة ما زالت حاضرة عند الحديث عن رجال الدين، هل تعرف من هو الحاخام فردي سخام؟

لقد رفض هذا الحاخام تزويج ابنته لشاب من العائلات اليهودية التي كانت تسكن في الوادي.

فالشاب سام كان فقيراً ولم يكن الحاخام يرغب بتزويج ابنته إلا لأحد أبناء الطائفة من ميسوري الحال..

طلب سام يد ابنة الحاخام عدة مرات، ولما يئس اتفق معها على الفرار من دون علم الأهل.

كان كل أهل الوادي يعرفون بعلاقة سام بابنة الحاخام.

كانا يشاهدان دائماً معاً في نزهات شارع فرنسا اليومية وفي المسبح الفرنسي.

تزوجا «خطيفة» ورحلا، وقيل في الحي إنهما ذهبا إلى إسرائيل ومن هناك أبلغا الأهل بزواجهما.

يومها انتشر الخبر في كل أرجاء الوادي. فالحاخام كانت له سلطة على أبناء الطائفة، وهو الحاخام الأكبر، فكيف لابنته أن تهز الصورة تلك وتكسر قراره وتتزوج ممن لم يرغب به؟

تقول سلمى إن ما حصل أحرج الحاخام، فزيجات «الخطيفة» عند اليهود لم تكن منتشرة لا بل كانت نادرة. لكنها وبتردد ظاهر أخبرت الحاضرين أن ابنتها كادت أن تتزوج «خطيفة» من شاب يهودي لولا تدخلها في اللحظة

المناسبة ونجاحهم في عرقلة هذا الزواج. ثم رفعت يديها إلى أعلى شاكرة ربها أن هذا الزواج لم يتم وأن ابنتها أتمت زواجاً كنسياً وعَمّدت كل أولادها. وأشّرت بإصبعها إلى صورة ابنتها مع أولادها، وقد وضعتها في مكان بارز على رف خشبي قرب التلفاز.

وعندما نظرت إلى ساعة الحائط قرب جهاز التلفزيون أبدت استغراباً وبصوت عال، لتقدم الوقت بهذه السرعة، قاطعة بذلك الطريق على أية أسئلة إضافية لأن عليها أن تحضر عشاء زوجها.

الدكتور شمس
طبيب الفقراء

وضعت أم روجيه رأسها بالأرض بعد أن رفعت ابنها إلى ذراعيها، محاولة إخفاء ضحكة كادت تصدح في وجه د. شمس بعد أن قال لها وبلكنة حلبية : «ابنك جربان ووسخ، قرفت حياتي من منظره، خذيه واذهبي لا أريد مالاً»، وضعت يدها على فمها وخرجت مسرعة إلى الباب، وهناك انفجرت ضاحكة. ولما صادفت جارتها زينب عند مدخل البناء حيث تقع العيادة، أخبرتها بما جرى للتو وقالت لها وهي تضحك إنها كادت تقول له إن «حال النظافة في عيادتك ليست أفضل، فالأوساخ فيها تثير القرف أيضاً»..

بقيت أم روجيه تضحك على طول الطريق حتى وصلت إلى صيدلية فارحي حيث اشترت مرهماً خاصاً بمرض الجرب، بناء على وصفة طبيب ابنها والعائلة، الدكتور شمس.

وأكثر ما أضحكها هو ما ساقه الدكتور شمس من حجج عندما سألته زينب عن أسباب تراكم الأوساخ داخل عيادته، فقال إنها زحمة المرضى التي لا تترك لديه وقتاً للتنظيف.

كانت عيادته تقع في وادي أبو جميل مقابل ما كان يعرف بفرن حمدان أشهر أفران الوادي. وبقربه نادٍ ليلي يعرف بنادي باخوس لصاحبه بي بي عبد الذي انتقل في ما بعد إلى مدينة جبيل وافتتح مطعماً للسمك عند مرفئها القديم، رفع على جدرانه صوراً بالأبيض والأسود لشخصيات سياسية

وفنانين محليين وأجانب كانوا من رواد ناديه في الوادي.

أما منزل الدكتور شمس ففي الطابق نفسه الذي تقع فيه عيادته، وهو يستخدم منزله أحياناً عندما لا يجد المرضى الكثر المنتظرون مكاناً يجلسون فيه داخل العيادة. فمنظر ازدحام الناس داخل بهو العيادة وعند مدخلها عادي بالنسبة لقاصدي د. شمس في كل الأوقات وغالباً ما كان يقرع بابه ليلاً في حالات الطوارئ.

لم يكن غريباً على أم روجيه عدم تقاضي د. شمس أتعابه بعد فحصه لابنها. فهو فعلها عدة مرات قبل ذلك مراعاة للجيرة. كما كان يرفض تقاضي أي أجر من الفقراء الكثر الذين يقصدونه، حتى بات يلقب بطبيب الفقراء وصار يعرف بأنه أشهر أطباء اليهود في لبنان.

سمعته أم روجيه مرة يتمنى السلامة والشفاء العاجل لشخص اعتذر عن الدفع لأنه لا يملك قرشاً واحداً. واستغربت كيف لم يبد أي انزعاج أو تذمر. وهو عندما يقبل المال فإنه يرضى بأي شيء، بعشرة قروش أو خمسة. وقد رأت مرة في عيادته مرضى حملوا معهم الدجاج والبيض كهدية للطبيب وكبديل عن دفع المال. وتذكر أنه أخبرها يوماً عندما سألته لماذا لا يحدد تعرفة، أن أحد الظرفاء دخل عليه مرة ووقف على الباب ثم مد يده إلى جيبه وراح يهزها ليسمعه صوت القروش فيتأكد أنه سيدفع له، فرد عليه بالقول «لقد جنيت على نفسك، ضع كل ما تملك على الطاولة».

استعادت أم روجيه حديث الدكتور شمس هذا وهي في طريق عودتها بعد شراء الدواء لابنها. صعدت درجتين وفتحت باب منزلها الكائن في الشارع نفسه لعيادة الدكتور شمس في بناء قديم استأجرت الطابق الأرضي فيه. ولما أتت زينب لزيارتها استعادتا رواية شعور الدكتور شمس بالقرف من ابنها، وحاولت أم روجيه تقليد حركاته. فبعد أن عاين ابنها، نظر إليها وهو ما يزال يضع قبعته السوداء التي لم تغادر رأسه الحليق إلا نادراً. ثم

الدكتور شمس
طبيب الفقراء

وضعت أم روجيه رأسها بالأرض بعد أن رفعت ابنها إلى ذراعيها، محاولة إخفاء ضحكة كادت تصدح في وجه د. شمس بعد أن قال لها وبلكنة حلبية: «ابنك جربان ووسخ، قرفت حياتي من منظره، خذيه واذهبي لا أريد مالاً»، وضعت يدها على فمها وخرجت مسرعة إلى الباب، وهناك انفجرت ضاحكة. ولما صادفت جارتها زينب عند مدخل البناء حيث تقع العيادة، أخبرتها بما جرى للتو وقالت لها وهي تضحك إنها كادت تقول له إن «حال النظافة في عيادتك ليست أفضل، فالأوساخ فيها تثير القرف أيضاً»..

بقيت أم روجيه تضحك على طول الطريق حتى وصلت إلى صيدلية فارحي حيث اشترت مرهماً خاصاً بمرض الجرب، بناء على وصفة طبيب ابنها والعائلة، الدكتور شمس.

وأكثر ما أضحكها هو ما ساقه الدكتور شمس من حجج عندما سألته زينب عن أسباب تراكم الأوساخ داخل عيادته، فقال إنها زحمة المرضى التي لا تترك لديه وقتاً للتنظيف.

كانت عيادته تقع في وادي أبو جميل مقابل ما كان يعرف بفرن حمدان أشهر أفران الوادي. وبقربه ناد ليلي يعرف بنادي باخوس لصاحبه بي بي عبد الذي انتقل في ما بعد إلى مدينة جبيل وافتتح مطعماً للسمك عند مرفئها القديم، رفع على جدرانه صوراً بالأبيض والأسود لشخصيات سياسية

وفنانين محليين وأجانب كانوا من رواد ناديه في الوادي.

أما منزل الدكتور شمس ففي الطابق نفسه الذي تقع فيه عيادته، وهو يستخدم منزله أحياناً عندما لا يجد المرضى الكثر المنتظرون مكاناً يجلسون فيه داخل العيادة. فمنظر ازدحام الناس داخل بهو العيادة وعند مدخلها عادي بالنسبة لقاصدي د. شمس في كل الأوقات وغالباً ما كان يقرع بابه ليلاً في حالات الطوارئ.

لم يكن غريباً على أم روجيه عدم تقاضي د. شمس أتعابه بعد فحصه لابنها. فهو فعلها عدة مرات قبل ذلك مراعاة للجيرة. كما كان يرفض تقاضي أي أجر من الفقراء الكثر الذين يقصدونه، حتى بات يلقب بطبيب الفقراء وصار يعرف بأنه أشهر أطباء اليهود في لبنان.

سمعته أم روجيه مرة يتمنى السلامة والشفاء العاجل لشخص اعتذر عن الدفع لأنه لا يملك قرشاً واحداً. واستغربت كيف لم يبد أي انزعاج أو تذمر. وهو عندما يقبل المال فإنه يرضى بأي شيء، بعشرة قروش أو خمسة. وقد رأت مرة في عيادته مرضى حملوا معهم الدجاج والبيض كهدية للطبيب وكبديل عن دفع المال. وتذكر أنه أخبرها يوماً عندما سألته لماذا لا يحدد تعرفة، أن أحد الظرفاء دخل عليه مرة ووقف على الباب ثم مد يده إلى جيبه وراح يهزها ليسمعه صوت القروش فيتأكد أنه سيدفع له، فرد عليه بالقول «لقد جنيت على نفسك، ضع كل ما تملك على الطاولة».

استعادت أم روجيه حديث الدكتور شمس هذا وهي في طريق عودتها بعد شراء الدواء لابنها. صعدت درجتين وفتحت باب منزلها الكائن في الشارع نفسه لعيادة الدكتور شمس في بناء قديم استأجرت الطابق الأرضي فيه. ولما أتت زينب لزيارتها استعادتا رواية شعور الدكتور شمس بالقرف من ابنها، وحاولت أم روجيه تقليد حركاته. فبعد أن عاين ابنها، نظر إليها وهو ما يزال يضع قبعته السوداء التي لم تغادر رأسه الحليق إلا نادراً. ثم

وضع كفيه في جيبي برنسه الأبيض الذي تغير لونه لأنه لم يغسل منذ فترة، ورفع أنفه ووجنتيه دلالة على قرفه، مع استدارة في الرأس لإبعاد عينيه عن الابن المصاب بالجرب، وقال ما قال.

لكن أم روجيه استدركت، بعد ضحكات طويلة مع زينب، أنها لم تسأل جارتها عن سبب ذهابها للطبيب. فأخبرتها أنها زيارة مراجعة بعد أن نزع إبرة انكسرت في أصبعها وهي تعمل على ماكينة الخياطة. يومها انتزع الإبرة بحركة سريعة، ثم أمسكها بيدها وأدخلها إلى منزله وطلب منها أن تستريح، ومن زوجته أن تنتبه لها لأنها قد تشعر بالدوار.

وتحول الحديث عندها عن جرب الابن وردة فعل الدكتور شمس، إلى حديث عن صفات هذا الطبيب. أخبرت زينب جارتها أنها عندما انكسرت الإبرة وانغرز نصفها في أصبعها، ذهبت إلى أحد الأطباء قبل أن تقصد د.شمس لأنها كانت تتألم ولا تستطيع انتظار دورها، متوقعة أن تكون عيادته مزدحمة كالعادة.

لكنها عادت وقصدته بعدما طلب الطبيب لها عملية عاجلة في المستشفى، وحذرها من خطورة الوضع لأن الحادث قد يؤثر على أعصاب أصبعها فيموت بعضها.

رفعت أصبعها وحركته لمزيد من التأكد أن كل أعصابه تعمل بانتظام من دون أية عملية جراحية. ثم أبرزت ورقة بخط يد الدكتور شمس لصاحب صيدلية فارحي في الوادي يطلب الاهتمام بزينب ومراعاتها في السعر ما أمكن.

أما الدكتور فارحي فقد كان صاحب الصيدلية الأكبر في الوادي. لطيف وإنساني، وكان يعمد الى إجراء حسومات كبيرة على أسعار الدواء كلما وصلته ورقة توصية من الدكتور شمس، أو إذا كان الشاري من محدودي الدخل، بحيث تحول الصيدلاني فارحي، وهو من العائلات اليهودية

المعروفة في لبنان، إلى أشهر صيدلاني في وادي أبو جميل. كانت صيدليته تقع في تقاطع باب إدريس على المفرق المؤدي إلى مقهى الحاج داود على البحر.

ولما استعرضت أم روجيه وزينب أطباء الوادي استدركتا أنهم كلهم تقريباً من اليهود، منهم أيضاً الدكتور مغربي الذي ذاع صيته في الحي والعاصمة. والدكتور بخبندر الذي عرف بطبيب ميسوري الحال، والذي تقع عيادته في شارع جورج بيكو.وقد اشتهر بدقة معاينته وإن كان أجره أعلى مما كان متعارفاً عليه في تلك الفترة. كما كان هنالك طبيب أسنان اشتهر «بيده الخفيفة» كما يقال عادة عن أطباء الأسنان، عندما ينجحون في استئصال الأضراس من دون التسبب بألم كبير للمريض.

أخبرت أم روجيه زينب كيف أنها اضطرت يوماً، وفي منتصف الليل لقرع باب هذا الطبيب بعد أن ملأ صراخ ابنها المنزل والحي، وأنها في الطريق إلى عيادته مقابل المقابر[11] في بناء جميل مزخرف، كانت تدعو ألا ينهرها لأنها تقرع بابه في مثل هذا الوقت. لكنه على العكس من ذلك استقبلها وعامل ابنها بلطف وأعطاه مسكناً فارتاح.

بعد أسابيع قليلة على تلك الجلسة بين أم روجيه وزينب، توفي الدكتور شمس بشكل مفاجئ.

أفاق الحي يومها على خبر وفاة هذا الطبيب بعد أن علقت نعوات على أبواب الأبنية في الوادي.

وفي يوم دفنه احتشد الناس من أقاربه والجيران، لكن الاحتشاد الأكبر كان لأبناء البسطا والأحياء الشعبية في العاصمة.

بين المشاركين والمنتحبين أم روجيه وزينب. وقد اجتمعتا بعد الدفن في منزل زينب مع مجموعة من الجيران كانوا قد التقوا على الطريق إلى منزله

(11) كانت المقابر ملاصقة لتجمع أبنية الستاركو حالياً وكانت لمسيحيين ومسلمين وهي أزيلت بعد الحرب.

لتقديم التعزية. فاستعادوا صفاته وحجم الخسارة التي تركتها وفاته.

في تلك الجلسة، أخطرت زينب الحاضرين أن خسارة أخرى شبيهة على الأبواب، فقد أخبرتها جارتها هدى أن سلمون، أشهر مطهّري الحي، اشتد عليه المرض وأنه قد يموت بين لحظة وأخرى.

فقد عُرف سلمون في الخمسينات في أحياء بيروت الشعبية كلها بعد أن صار المطهر المعتمد لدى عائلات تلك الأحياء ولا سيّما الأحياء ذات الأغلبية المسلمة، مثل البسطا وغيرها لأن الختان على الطريقة اليهودية كان ضمن الشرع عند المسلمين.

فقد كان سلمون، وهو من الطائفة اليهودية، يحمل حقيبة جلد صغيرة، يضع فيها أدواته، ويدور في أحياء العاصمة بحثاً عمن يريد ختان ولده. وكان من يرغب بذلك يخبر الدكاكين في الأحياء التي كان يمر بها سلمون يومياً. وعندما يظهر المطهر حاملاً الحقيبة، يبلغ عن عنوان من يحتاج إليه. حتى بات لديه دكاكين محددة يقصدها بعد أن اعتمدت من قبله ومن قبل أبناء تلك الأحياء لإيصال الطلبات.

أسهبت زينب في أخبار الجيران عن هذا المطهر ومهاراته، وقالت إنها اعتمدته في ختان أولادها الخمسة. ثم أمسكت فنجان القهوة وارتشفت منه القليل قبل أن تتمتم بتمنيات الشفاء له.

نظرت أم روجيه إلى زينب وأطلقت ضحكة من ضحكاتها العالية التي اشتهرت بها، وقالت، محاولة تغيير الجو الذي ساد مع الحديث عن الموت، إنها إذا أرادت إنجاب المزيد من الأولاد فيمكنها اعتماد شعيا في حال وفاة سلمون، فليس عليها أن تقلق.

وشعيا هو مطهر يهودي أيضاً لكنه معروف بأنه مطهر ميسوري الحال الذين يقيمون احتفالات بالمناسبة في الكنيس..

أخبرت أم روجيه الحاضرين كيف أن الطهور عند اليهود في الكنيس

يشبه في مظاهره الاحتفالية عمادة الأطفال في الكنيسة عند المسيحيين. فهي مناسبة تدعى في العبرية «بريت ميلاه» أي عهد الختان يجمع فيها الأهل أقاربهم وأصدقاءهم.

ويحتفل بالختان في اليوم الثامن على الولادة بحيث يعلن اسم المولود الجديد خلال هذا الاحتفال. والاسم إما أن يكون لأحد الأقارب المتوفين كي يواصل المولود الذكر ما بدأه سلفه من حسنات، أو أن يكون لأحد الأجداد الأحياء.

وكان الكنيس يزين بزهر الزنبق تحضيراً للاحتفال. أما المراسم فتبدأ بتقدم الأهل إلى داخل الكنيس رافعين الطفل بين أيديهم. وفي مكان وسط يوضع الطفل على كرسي مرتفع ثم يتقدم شعيا ومن حوله الأهل وقد وضعوا على أكفهم شالات بيضاً توضع عادة في المناسبات الدينية عند اليهود. ثم يعمد شعيا إلى إتمام عملية الطهور وسط قراءات من التوراة والتلمود وصلوات مغناة.

بعدها يبدأ الأهل بتوزيع الحلوى على أنواعها على الحاضرين. وعند مدخل الكنيس كان يوزع نوع من القربان المعروف عند المسيحيين والذي يوزع في الكنائس في قداديس الأربعين أو الأسبوع في حالات الوفاة. لكن القربان اليهودي الذي يوزع على مدخل الكنيس كان مالحاً وليس حلواً كقربان المسيحيين، ومذاقه لذيذ.

توقفت أم روجيه عن الكلام عندما سمعت صوت ابن زينب يناديها من الطريق الملاصق للمنزل، وبصوت عالٍ، إن إلياهو اللحام فتح محله بعد أن عاد من دفن سلمون. وقفت واعتذرت من جيرانها لأنها مضطرة إلى الخروج لشراء اللحمة فهي لم تعدّ طبختها بعد لأنها فوجئت أن إلياهو أقفل ملحمته حداداً على الدكتور سلمون.

وزينب، كما أفهمت الحاضرين، لا تشتري إلا من اللحامين اليهود لأن

لحمهم حلال أو كما يقولون كاشير. وأشهر هؤلاء في وادي أبو جميل كان إلياهو. لكن أم روجيه خالفتها الرأي فكل لحام يأتي ببضاعته من المسلخ يبيع لحماً حلالاً لأن الذبح في المسلخ لا يتم إلا بعد مباركة الحاخام سلمون المعتمد فيه.

لم يكن ما قالته أم روجيه غريباً على الحضور، فهم يعرفون الحاخام سلمون جيداً لأنه قد يكون من أشهر حاخامي لبنان. كان كثير الظهور في شوارع الوادي، يرتدي الجلباب الأسود ويضع طربوشاً ملفوفاً بلفة سوداء على رأسه.

لم يكن هذا الحاخام يكترث لعشوائية نمو لحيته الطويلة البيضاء، فهذه هي حال لحى الحاخامين. تزوج من يهودية من الوادي لكن أحداً لا يذكر عنها شيئاً، وكل ما يعرفه سكان الوادي عن هذا الحاخام أن له ثلاثة أولاد درسوا في مدرسة الأليانس.

كان الحاخام سلمون يلازم شوارع الوادي بعد عودته من مهمته في المسلخ الواقع حتى يومنا هذا في الجهة الشمالية لمرفأ بيروت. يدور في أحيائه لعل أحداً من أبناء الطائفة بحاجة إلى مشورة أو استفسار، مع أن مهمته الأساسية هي ضمان ذبح المواشي في المسلخ على الطريقة اليهودية الحلال، بحيث لا يبدأ الذبح قبل وصوله.

يدخل سلمون المسلخ في الصباح، يفحص المواشي ثم يسمّي عليها بالقول «باسم الله» معطياً إشارة الانطلاق. وبعد ذلك تفحص المواشي مجدداً ثم تدمغ من قبل الحاخام بختم يؤشر باللغتين العبرية والعربية أنها حلال.

روت زينب تلك التفاصيل غير آبهة باستعجالها الخروج لشراء ما تحتاجه قبل أن يعود زوجها من العمل. وأكملت بالقول إنها ولتلك الأسباب تشتري اللحوم من أي لحام، شرط أن يكون مصدرها مسلخ بيروت، لأن

مجرد تسمية الحاخام عليها قبل ذبحها تصبح حلالاً بالنسبة للمسلمين أيضاً، لأن الذبح يتم بعد التسمية على الذبيحة. لم تدعها أم روجيه تذهب وأطلقت ضحكة مدوية أرفقتها بالقول «نحن نشتري اللحم من عند اليهود لكن اليهود لا يشترون اللحم إلا من جزاريهم والجزارين المسلمين، لأنهم يعتقدون أن لحم المسيحيين نجس أو ما يسمى عندهم طريف».

هزت زينب كتفيها وقالت إن أمور الحلال لم تقتصر على هذا الحد. فجيرانها اليهود ومن شدة وسواسهم حول الحلال والحرام كانوا يضعون قطعة اللحم على بلاطة حتى تزرق. ثم يعمدون إلى سحب الشرايين منها لأنها عندها تصبح حلال الحلال..

وقف الجميع وانصرفوا، واتجهت زينب عند لحامها اليهودي إلياهو. ووسط الزحمة نجحت في تمرير طلبيتها مع غمزة عين وهزة رأس تتمنى عليه تقديمها على غيرها لأنها تأخرت...

جميل
تاجر الأدوات الكهربائية

انحنى الحاخام بجسده الرفيع الطويل، ورمى نظره إلى داخل المحل من خلال باب جرار فُتح نصف فتحة. ولما رأى صاحب المحل في الداخل سأله «شو يا جميل هل نسيت أنه يوم سبت؟».

فأتته الإجابة من الداخل وعداً بالإقفال حالاً: «يلا يلا رح قفّل» وبلكنة شامية لازمت جميل كل فترة إقامته في لبنان.

هذا الأمر كان يتكرر كل أسبوع تقريباً. فتاجر الأدوات الكهربائية اليهودي لم يكن مقتنعاً بأسباب الإقفال يوم السبت. كان يترك الباب مفتوحاً نصف فتحة. فإذا جاءه من يشتري سمح له بالدخول. وإذا جاءه من يعتب، تحجج بأنه يقضي عملاً بسيطاً فقط، وإلا لكان فتح الباب الجرار كاملاً.

اعتاد الحاخام أن يباغت جميل كل يوم سبت، ويطرح عليه السؤال نفسه ويسمع منه الجواب نفسه. وفي كل مرة وبعد مغادرة الحاخام عتبة المحل، كان ينظر إلى حسن الشاب الكردي الذي يعمل عنده ويقول له بحركة عصبية: «لقد عاشوا أيام زمان كل حياتهم في الصحراء أثناء التيه مع موسى، وعندما كانوا يتعبون كانوا يجلسون تحت شجرة، لذلك حددوا يوم تعبهم يوم راحة. يجب أن يتركوا الناس تعمل وتسترزق، لم نعد نعيش في الصحراء. ثم علينا أن نقفل المحل يوم السبت لأنه مقدس وكذلك في الأعياد، في عيد الغفران وعيد الفصح، فمن أين نعيش؟».

أتى جميل إلى لبنان في الفترة نفسها التي أتت فيها نسبة كبيرة من يهود سوريا ولا سيّما من سكان حلب ودمشق مطلع القرن الماضي. وحصل في ما بعد على الجنسية اللبنانية عندما منح المختار هذه الصلاحية في مرحلة من المراحل ولفترة وجيزة.

عندما جاء إلى لبنان كان ما يزال شاباً، وفتح محلاً لبيع الأدوات الكهربائية في شارع مدرسة الأليانس في الوادي. كانت غالبية زبائنه من اليهود، لكنه لم يكن متعصباً أو متزمتاً دينياً. كما أن معاملته للناس جيدة جداً، لكنه يحسب كل قرش يدخل إلى صندوقه أو يخرج منه كما قال حسن عنه. وهو من أول لقاء بينهما عندما كان يبحث عن عمل، أبلغه أن السبت ليس يوم عطلة وأن عمله عند تاجر يهودي لا يعني أن التغيب يوم السبت ممكن. إلا أن موييز ابنه الذي كان يساعده في المحل لم يكن يحضر يوم السبت. فموييز متدين كما يقول عنه والده ساخراً. وعلى الرغم من «ضرسه الطيب» وحبه للأكل كان يلتزم الصيام اليهودي.

وباستثناء يوم السبت فإن موييز أو موسى كما يُنادى أحياناً، هو الذي يأتي صباحاً ليفتح المحل قبل والده. وما إن يدخل حتى يسأل حسن عن ترويقة اليوم. وبعد أن يتفقا على ماهيتها، يذهب حسن ويشتري أربع سندويشات، اثنان لكل واحد، كما كان يشتري بما يبقى لديه من المال الذي أعطاه إياه موييز، ألواح الشوكولا من نوع بافكا وبريزيدانت التي كانت الأشهر في تلك الفترة.

غالباً ما كان جميل يصل قبل أن يكمل موييز وحسن فطورهما. يدخل المحل ويتقدم باتجاههما ويقول: «أبكي عليكم بكي، ولك كيف ستجمعون المال ؟ ألا تكفيكم لفة خبز واحدة؟ إلا اثنتين؟ ولإيش الشوكولا؟».

ثم وبحركة روتينية لم تغيرها الأيام، يأخذ كرسيه خلف الطاولة الرئيسية في المحل، يفتح الدرج الذي يضع فيه المال، يتفقد ما بداخله ويسأل ابنه عما

إذا كان قد استرزق أم لا.

وقبل أن يسمع الإجابة، وبتسلسل لم يكسره يومياً، يخرج لفافة خبز أعدها في منزله من الزيت والزعتر بعد إخراجها من قصاصة صحيفة حلّت بعض أحرفها على رغيف الخبز، وامتصت القليل من الزيت الذي تسرب خارجها..

لم يكن جميل يضع أي رموز دينية في محله، لكنه كما غالبية سكان الوادي يضع لفافة الأسفار الخمسة والوصايا العشر عند مدخل بيته. كانت تلك الوصايا ملفوفة وموضوعة في علبة دائرية صغيرة ومعلقة على الباب، يتبارك منها عند دخوله وكذلك عند خروجه.

وقد ذهب حسن معه مرة إلى منزله لمساعدته في نقل بعض المشتريات، فلاحظ أن «معلمه» مرر يده على تلك اللفافة عند دخوله، ثم وضعها على جبينه مع انحناءة. وعندما خرجا فعل الشيء نفسه. ومرةً اشترى له لفافة من الفضة للوصايا العشر من سوق سرسق، بعد أن تقادمت تلك التي في المنزل، وأراد استبدالها.

وعندما سأله عن أسباب عدم وضع واحدة في المحل للبركة قال إن المحل للجميع، وإن الأمر قد لا يعجب بعض زبائنه فيخسرهم.

بقي جميل يعمل في الوادي حتى بات من أهم تجار الأدوات الكهربائية، لكن حسن ترك عمله عنده وفتح محله الخاص لبيع الأدوات الكهربائية أيضاً، بعد أن تعلم المهنة وتعرف على تجار الجملة فيها.

لم تنقطع علاقة حسن بالمعلم جميل، وبقيت جيدة على الرغم من أن يهوداً كثراً باتوا يشترون أدواتهم الكهربائية من محله لفرق بسيط في الأسعار ولتسهيلات الدفع التي اعتمدها فاستطاع منافسة معلمه السابق. وقد زادت مبيعات حسن باطراد بعد أشهر على انطلاقه منفرداً وأعطت مغادرة جميل لبنان محله دفعاً غير مسبوق.

فبعد حرب 1967، قرر جميل الرحيل. وضّب أغراضه في كونتينر خشبي كبير وأمام أعين الجميع، من دون أن يحاول إخفاء نواياه. ثم شحنه إلى قبرص ومنها إلى حيث لا أحد يدري.

كان حسن على صلة به في تلك الفترة، فاشترى الكثير مما بقي في محله عندما صفى موجوداته بأسعار بخسة قبل أن يقفله نهائياً.

كانت تلك الفترة بالنسبة لحسن فترة ذهبية، لأنه بات بائع الأدوات الكهربائية شبه الوحيد في الوادي. وساعدت علاقاته الكثيرة والجيدة باليهود في الحي، في ازدهار تجارته، فهو يعيش بينهم ومنزله لم يكن بعيداً عن الكنيس.

وقد سمح له مردود عمله المرتفع أن يصنع هدايا باسم محله من نوع علاّقة المفاتيح الجلدية التي درجت كثيراً في تلك الفترة، وكانت تصنع عند شخص من آل زيتوني من العائلات اليهودية المعروفة. مصنع زيتوني في الأساس هو لصناعة الجزادين والحقائب من النوع الفاخر لكن فكرة الهدايا بأسماء المؤسسات التجارية استهوت أصحابها وانتشرت.

انقلبت حياة حسن وبات من الأثرياء، فاهتم أكثر بمظهره. وراح يشتري أحسن أنواع الأقمشة والقمصان من ماركة 555 وهي ماركة مسجلة لعائلة يهودية من آل «ميتا» تحولت واحدة من أهم وأغلى الأصناف في لبنان.

أما حاجاته من القطنيات فبات يشتريها من أهم المحلات التي يملكها من آل موصلي وآل طويل وهما من يهود لبنان أيضاً.

يذكر حسن أنه باع كمية كبيرة من الغسالات والبرادات من صنع أميركي وألماني بسبب حبّ اليهود لهاتين الماركتين. فقد كانوا يشترونها ويشحنونها إلى حيث هم راحلون. كانت تلك الأدوات الكهربائية توضع في صناديق خشبية في أرض تابعة للكنيس تمهيداً لشحنها.

يقول حسن إنه لا يستطيع أن ينسى جميل لأن فضله كبير عليه. وعندما

يتحدث عنه ترتسم ابتسامة على ثغره فيكرر رواية الفطور ويضحك، لكنه يسارع إلى القول إن ميل معلمه السابق إلى التقنين في صرف المال ليس سمة عامة، فغالبية من يعرفهم من اليهود كانوا يصرفون مالهم بحساب ولم يكونوا من البخلاء. حتى أن عدداً منهم لم يستطع أن يسدد كامل ثمن ما اشتراه من أدوات كهربائية قبل أن يرحل. وكان حسن يفاجأ عندما كانت بقية المبلغ ترسل إليه من خلال أصدقاء أو أقارب.

وسّع حسن في ما بعد تجارته وبات يبيع أيضاً الأدوات المنزلية بعد أن أقفل ماركو بريانتي محله ورحل هو الآخر. كان بريانتي من تجار اليهود الكبار للأدوات المنزلية، وهو كغيره من أثرياء اليهود غادر إلى إيطاليا وأسس له عملاً في نابولي كما يقول حسن.

استرسل في تعداد أسماء التجار الكبار من اليهود، فأتى على ذكر شخص من آل درويش كان يملك معملاً للقمصان الرجالية. وقال إنه عرض عليه المعمل بسعر مغر جداً، لكن حسن لم يكن يرغب في الدخول في مهنة لا يعرف شيئاً عنها. ثم سمع أن المعمل بيع لشخص من آل النقيب في ما بعد.

أكمل حديثه عن رحيل التجار اليهود، وكيف صفوا تجاراتهم خلال فترة قياسية، ووصل إلى مطبعة المن نسبة إلى عائلة أصحابها وهم الإخوة ساسون وجاك وأحد حاخامي الوادي. وقد كانت تلك المطبعة واحدة من أهم مطابع الكتب في تلك الفترة.

كانت صناعة الكتب يومها تقوم على طباعة صفحات متقابلة، تجري خياطتها بعد ذلك من نصف الصفحة بخيط أبيض متين يربط عدة صفحات ببعضها. ثم يجري لصق رزمة الصفحات بالغلاف.

شكل إقفال المطبعة خسارة للكثير من عائلات الوادي لأن عدداً منهم ولا سيّما النسوة كان يعمل في منزله لحساب آل المن. فقد كانت فتيات

عديدات يعملن في الليل في المنزل في خياطة الكتب في مقابل مبلغ معين للكتاب الواحد، ويترك التجليد للمطبعة. وكان ازدهار الطباعة يوسع دائرة العاملين ليلاً حتى باتت مطبعة آل المن واحدة من أهم مطابع العاصمة لأنها كانت تنجز العمل بوقت سريع وبكميات كبيرة.

يروي حسن أن العمل في المنزل كان من الأمور المألوفة في تلك الفترة، حتى إن عدداً من يهود لبنان كان يعمل في منزله لصالح صاغة لبنانيين في تنظيف الأحجار وصقلها.

استنفد حسن كل ما علق في ذاكرته عن جميل وغيره من التجار اليهود، كما قال عندما رن جرس هاتفه. ولما أقفل السماعة نظر إلى زواره وأخبرهم أنها زوجته تسأله عن سبب تأخره على موعد الغداء فاعتذر وانسحب.

يقع محل حسن اليوم في منطقة الزيدانية بعد أن ترك وادي أبو جميل أثناء الحرب. لكن أحواله لم تعد هي نفسها. سُرقت محلاته في الحرب واضطر للتوقف عن العمل أشهراً طويلة صرف خلالها ما تجمع في رصيده، وهو حوّل تجارته إلى الهدايا الخفيفة أو ما يعرف بمحلات «الوان دولار» (الدولار الواحد) التي انتشرت بشكل واسع لتماشي تراجع القدرة الشرائية للناس.

أبو عمر سلمون
من «قبضايات» بيروت

يعقوب واحد من «قباضيات» اليهود، أو هكذا يحب أن يقدم نفسه. فقد لازم لسنوات نادياً لكمال الأجسام في منطقة مار اليأس في بيروت حيث مارس هواية رفع الأثقال، حتى عرض كتفاه وانتفخ زنداه وصدره. وكان، لإبراز عضلاته، يلبس القمصان الضيقة التي تلاصق الجسد تماماً ويمشي في شوارع وادي أبو جميل رافعاً رأسه كي يعطي انتفاخة الصدر حدها الأقصى. بينما كانت حركة يديه مشدودة بالعضلات بحيث باتت الحركة في الجزء الأدنى من اليدين أسهل منها في جزئها الأعلى. أما إذا أراد الالتفات يميناً وشمالاً فكان مضطراً للاستدارة بعض الشيء لأن انتفاخة الكتفين وصلت حدود كعب الرأس، فاختفى العنق، ما حدد حركته. وقد زاد انتفاخ جسده من إبراز قصر قامته.

كان شعره الأشقر الناعم مصففاً دائماً الى خلف، وجامداً بالنسبة التي مسح فيها البريانتين عليه. أما بشرته فبيضاء ودائمة الاحمرار عند الخدين. فهو يمضي يومه في الشارع متنقلاً من محل إلى آخر. لم يكن يعمل في النهار ويؤمن معيشته من بيع بطاقات الدخول إلى السينما في السوق السوداء حتى أصبح له عنوان على عمود كهربائي قرب سينما دنيا أو سينما روكسي حسب شعبية الفيلم المعروض والإقبال عليه.

فهو يختار الأفلام الأكثر رواجاً، ثم يأتي باكراً إلى دار السينما ويستلم عدداً كبيراً من تذاكر الدخول وينتظر. فإذا نفدت التذاكر وقف ينادي على «كروتت السينما» وإذا لم تنفد أعاد البطاقات إلى شريكه البائع على شباك التذاكر.

وعلى مر السنين تمكن أن ينسج شراكة في مهنته هذه بعد أن كان يشتري البطاقات ويتكبد خسارة أحياناً في حال لم ينجح في تصريفها. فوجد سبيلاً للحد من احتمالات الخسارة بأن أشرك البائع على شباك التذاكر بنسبة من الأرباح إذا ما بيعت البطاقات، وبإعادتها إذا لم تُبع..

لم يكن يعقوب يضيف الكثير من المال على أسعار البطاقات كي تنفد جميعها وبسرعة. وقد كان سعر تلك البطاقات متفاوتاً. فالذي يأتي باكراً يحصل على سعر أعلى من السعر الذي يبيع به البطاقات قبل بدء العرض بقليل. وكانت زاويته تزدحم أحياناً كثيرة في اللحظات الأخيرة قبل بدء الفيلم بعد أن بات وجوده مألوفاً.

يبدأ يعقوب يومه «المهني» بزيارة لشريكيه، بائعي التذاكر في صالتي سينما روكسي ودنيا ليطّلع على أحدث البرامج واحتمالات الإقبال. أما فترته الذهبية فكانت عند عرض فيلمي «ذهب مع الريح» و«كوفاديس» اللذين قوبلا بإقبال منقطع النظير، بحيث بيعت عروض عدة في السوق السوداء ما درّ عليه أرباحاً قياسية.

عندما يفرغ من بيع البطاقات، يعود إلى وادي أبو جميل لمتابعة حركة الشارع. يقف في الزوايا مع رفاق له للمراقبة. فهو لا يحب دخول الغرباء إلى المنطقة ولا سيّما أولئك الذين يأتون من خارج الوادي لإغواء بنات اليهود. وقد أوكل لنفسه مهمة المراقبة هذه، فإذا دخل غرباء تبعهم حتى يطمئن إلى نواياهم ثم إلى خروجهم. وكان يحاول أن يضبط إيقاعهم وتحركهم ولا يرتاح إلا عندما يغادرون.

لم تكن نزهات شارع فرنسا، وصولاً إلى شارع الوادي، تقتصر على سكان وادي أبو جميل ومتفرعاتها فقط، فقد كان شباب من خارج المنطقة يأتون أيضاً للنزهة أو للعشاء في مطعم ديليس الذي كان يقع في منتصف شارع فرنسا ويعتبر من أهم المطاعم في المنطقة.

وفي إحدى المرات عندما لاحظ وجود ثلاثة غرباء، دخلوا بين المتنزهين في الشارع المزدحم ثم خرجوا مع ثلاث فتيات يهوديات، باتجاه كورنيش البحر في منطقة النورماندي، لحق بهم مع اثنين من رفاقه. وعند وصولهم إلى نصب الجندي المجهول قرب فندق النورماندي في منطقة الزيتونة قرب البحر قطعوا عليهم الطريق، وصرخوا بوجههم بأن يتركوا الفتيات لأن «بنات اليهود لا يخرجن مع غرباء للتنزه». دارت الشتائم بداية ثم العراك بينما هرولت الفتيات باتجاه شارع فرنسا.

تدخل دركي صودف وجوده في المكان لصالح المجموعة التي تعرضت للضرب بعد أن تعرف على أحدهم، بينما وقف رجل جسيم عريض، حضر في وسط الإشكال فجأة، صارخاً بأن يهدؤوا. وسمع «قبضاي الوادي» يدعو «الخواجة سلمون للابتعاد لأن هؤلاء الزعران يجب أن يلقنوا درساً ويتوقفوا عن إغواء بنات اليهود».

لام سلمون يعقوب على فعلته. وفي طريق العودة إلى وادي أبو جميل، سأله عن سبب المشكل بعد أن نجح في إبعاد المجموعتين وفض الإشكال. شرح له يعقوب غيرته على بنات الحي، لكن سلمون لم يقتنع ولم ير مبرراً لمشاكل من هذا النوع لأنها تعطي انطباعاً أن قباضيات الوادي زعران منغلقون لا يسمحون لأحد بالاختلاط مع أبناء ملّتهم.

كان للخواجة سلمون احترام كبير عند يعقوب، فهو من قبضايات الحي أيضاً كما أنه معروف بأنه «آدمي» ومثقف، فقد كان يعمل محرراً في الإذاعة اللبنانية الرسمية. كما أن سلمون، وهو من أصل حلبي، يحب التشبه

بالقبضايات البيارتة. فقد كان يضع الطربوش التقليدي الشائع في بيروت وبين سكان أحيائها القديمة، ويمشي بقامته الطويلة وجسمه الممتلئ، ولا سيّما عند البطن، حتى بات أصدقاؤه يشبهونه بقبضايات البسطا في بيروت العتيقة ويلقبونه بأبو عمر.

كان يتمتع بالجلسات مع أصدقائه من سكان البسطا، فهو محدث لبق ويحب التاريخ ويكرر على مسامعهم دائماً رواية «اضطهاد الكاثوليك لليهود بعد انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس. وكيف ساووهم بالإسلام وذلوهم بعد أن عوملوا معاملة اللاجئين، وأجبروا على المغادرة». وكان أصحابه في كل مرة يعيد فيها هذه الرواية، يبتسمون ويسألونه مازحين: «هل هذه هي روايات الجلسات مع المسلمين؟». وكان يجيب بنعم ويضحك لأن «يهود لبنان هم بحماية المسيحيين».

ثم يصمت منتظراً أصوات الاستنكار المعتادة بين أصدقائه، في كل مرة يقول فيها هذه الجملة، فيعمد إلى تكرار رواية لم يسمعوها إلا منه. «فقد جاء يهود من دير القمر يوماً عند الأمير بشير الشهابي وطلبوا منه الحماية. وقدموا له مئة حصان ومئة فارس ووضعوهم بتصرفه». وأمام استغراب أصدقائه عن العدد وعن أصل الرواية، متسائلين عن حقيقة وجود يهود في دير القمر، كان أبو عمر يذكرهم بوجود مقابر لليهود في الشوف قرب نهر بسري تعود إلى ألفي عام. ويقول إن أهالي الجبل يسمون تلك المنطقة الصخرية بمقابر اليهود حتى يومنا هذا، على الرغم من أن تلك المقابر لم تعد ظاهرة إلا أن التسمية تشير إلى وجودها السابق.

ولا ينسى سلمون أن يعيد الحديث عن وجود كثيف لليهود في الشوف سابقاً. فكثيرون هم في الأصل من بلدة كفرنبرخ الشوفية، وآخرون هم من بيت الدين ودير القمر حيث يوجد كنيس في قلعتها القديمة بني في القرن السابع عشر الميلادي. وقد شيد حتماً لتمكين أبناء الطائفة من أصول جبلية

وشوفية، من ممارسة شعائرهم وليس فقط لمواكبة حركة اصطياف اليهود في تلك البلدة لأن الكنيس أثري وقديم قدم القلعة في الدير.

لكن الحديث مع أبو عمر في التاريخ كان دائماً استهلالياً ليعود الجميع إلى مجريات الأوضاع السياسية في لبنان والمنطقة.

يذكر مختار صديق سلمون أن «أبو عمر» أتى يوماً من عمله في الإذاعة وأخبر أصدقاءه عن انقلاب عسكري في سوريا نفذه حسني الزعيم رئيس الأركان في الجيش السوري، وكيف شن الزعيم بعد نجاح انقلابه هجوماً على القيادة المدنية السورية وحملها مسؤولية الهزيمة العسكرية في فلسطين.

كان ذلك عام 1949 وكانت ارتدادات قرار تقسيم فلسطين تتصاعد. لم يطمئن أبو عمر سلمون لهذا التطور، أخبر شلته أن انعكاسه سيبدأ بالظهور سريعاً في لبنان. ثم، وبعد أيام وجيزة تحول نقاش أبو عمر مع شلة الأصحاب إلى الأزمة السياسية في لبنان بعدما تعاطت السلطة اللبنانية بتوجس إزاء الحكم الجديد في سوريا، ولم تعترف به إلا بعد شهر على الانقلاب.

كان بين شلة أبو عمر من كان متعاطفاً مع الانقلاب، بينما كان آخرون يعارضونه. وقد عكس انقسام الشلة حالة الانقسام في لبنان نتيجة هذا التطور. وذهبت الأمور باتجاه المزيد من التأزم بين مؤيد للحكم الجديد ومن بينهم الحزب السوري القومي الاجتماعي، ومعارضين للحزب على رأسهم حزب الكتائب. ثم تطور الوضع إلى اشتباكات بين الطرفين في منطقة الجميزة في بيروت أحرق خلالها القوميون المبنى الذي تقع فيه جريدة العمل الناطقة باسم حزب الكتائب.

وفي اليوم التالي على الحادث، قصد أبو عمر البسطا كما يفعل عادة بعد عودته من عمله في الإذاعة اللبنانية. أخبر سلمون أصحابه في البسطا مدى الخوف الذي أثاره في نفسه هذا الاشتباك ولا سيّما أنه أُتبع باعتقالات واسعة ومداهمات تبين خلالها وجود مخازن أسلحة.

يومها لجأ أنطون سعادة زعيم الحزب إلى سوريا وأعلن قيام الثورة الشعبية في لبنان.

حاولت مجموعات من مسلحي الحزب التحرك إلا أن محاولتها أحبطت من قبل الجيش اللبناني.

تركت تلك الأخبار أجواء من القلق عند الناس وعبر أبو عمر أمام شلة الأصدقاء عن خوفه من المستقبل. فالتطورات في المنطقة تنبئ بصراع لا نهاية له، ما يجعل من بقاء اليهود في لبنان ضرباً من الجنون.

لم يوافقه الأصدقاء الرأي، ونصحوه بعدم التسرع في اتخاذ قرار المغادرة. فالأحداث عابرة والأمور ستستقيم حتماً.

لكن تردد أبو عمر إلى حلقة الأصدقاء في البسطا بدأ يتراجع. وبات هذا الصديق اليهودي في مزاج مختلف تماماً. وكأنه اتخذ قراره وبدأ الإجراءات العملية للرحيل. فهو ربما قلل من الانضمام إلى الشلة كي لا يخضع لأسئلتهم عن أسباب غيابه المتكرر، ولا يضطر للإفصاح عن قراره.

لم يعد الخواجة سلمون هو نفس الشخص الفرح الذي كان قبل تلك التطورات، فقد بات مهموماً وقلقاً، لا يمازح جالسيه كثيراً كما في السابق، وبدا دائم التشاؤم إزاء المستقبل حتى أنه لم يعد على وضع الطربوش على رأسه وكأنه في حالة استنفار كما قال له يوماً صديقه مختار عن طريق المداعبة.

مضت أسابيع من دون أن يظهر «أبو عمر». ارتاب الأصدقاء وقرروا إرسال من يسأل عنه علّه مريض أو أصاب أحداً من أفراد عائلته مكروه. صحيح أنه في الفترة الماضية لم يعد يتردد كثيراً على شلة الأصدقاء، لكنه لم يكن ليتغيب كل هذا الوقت.

اقترب السائل-الموفد من كمال صاحب محل السمانة الصغير على زاوية بناية غندور مستفسراً عن عنوان منزل خواجه سلمون، فهو يذكر

أن الخواجة أتى على ذكر كمال مرة عند حديثه عن منزله في الوادي. نظر إليه كمال السبعيني وهو جالس على كرسيه بجسمه النحيل الطويل، نظرة استغراب وتعجب، ثم أشار بيده مع صفرة في صوته واستدارة في العيون إلى أعلى، تشير الى أنه «طار».

«طار؟» سأل صديق أبو عمر...

ولما هزّ كمال «الدكنجي» رأسه للإجابة بنعم، سأله «إلى أين؟ هل غيّر عنوان منزله؟ هل انتقل إلى منطقة أخرى؟».

وقف كمال واتجه إلى مدخل محله، فنزل درجة واحدة تفصله عن الرصيف حيث وقف السائل، واقترب منه لإخباره ما هو بأهمية ما يهمس عادة في الأذن «الخواجة سلمون غادر.. رحل من الحي ومن غيره.. رحل من البلد كله، راح إلى إسرائيل».

بقي صاحب الخواجة سلمون واقفاً ينظر باستغراب من يعتقد أن هنالك شيئاً غير دقيق في ما سمع للتو.

ولما شعر كمال بشكوك الشخص الواقف أمامه، دخل إلى دكانه مجدداً وجلس على كرسيه وهو يقول: «شو هي اقتصرت على سلمون؟ بيت حنان غادروا، وبيت كوهين غادروا، وبيت سرور وسيدي ودوبين وعبادي، هل أسمّي لك بعد حتى تصدق؟».

كان كمال يشير بيده يميناً وشمالاً عند ذكر كل عائلة محاولاً الإشارة إلى مكان السكن. ثم قال له وهو يضع نظارته ويمسك قلمه لإكمال حساباته «اسأل عن الذين بقوا وليس الذين غادروا».

لم يرغب الموفد بالمغادرة، محاولاً معرفة المزيد. فسأل كمال لزيادة في التأكيد وإن بقليل من الحذر خشية ردة فعله على ما أبداه من تشكيك، عما إذا كان الخواجة سلمون أخبره شخصياً أنه مغادر؟ نفى «الدكنجي» لكنه عاد ونظر إليه وأسهب في الحديث عن سلمون، وكيف كان يسدد ديونه كل

آخر شهر مباشرة بعد استلامه راتبه ولا يتأخر.

ثم فتح دفتره مجدداً وفتش على الصفحة التي كُتب على رأسها اسم جاره اليهودي. وعندما وجدها رفع دفتره وأداره كي يري السائل شخطة القلم من أعلى الصفحة إلى أسفلها، دلالة على الانتهاء منها.

وضع كمال الدفتر جانباً، وتوجه مجدداً إلى مدخل المحل بعد أن تدلت سلة قش أمامه كطريقة لمناداته طلباً لغرض ما من أحد الطوابق في البناء حيث دكانه. أمسك السلة ونظر إلى أعلى لسؤال جارته عما تريد، ثم أتى بربطة خبز ووضعها في السلة وهو يروي للزائر السائل أن آخر مرة قصده فيها سلمون كانت بهدف شراء علبة دخان.

أثار سلوك سلمون يومها استغرابه، فقد دفع ثمن العلبة مباشرة رافضاً تسجيلها باسمه على الدفتر الذي أعده كمال للجيران. كما أنه كان مستعجلاً ولم يرغب كعادته بمسايرته لما سأله كمال عن آخر الأخبار. دفع خمسة قروش ثمن علبة الطاطلي سيرت واعتذر لأنه على عجلة من أمره، واعداً بالعودة قريباً لحديث طويل في السياسة، لكنه لم يعد.

وحسب كمال فإن الخواجة سلمون انتظر استلام راتبه قبل أن يرحل، كما فعلت غالبية الموظفين من أبناء الطائفة اليهودية الذين قرروا الرحيل، فغالبيتهم اختفت في الأيام الأولى من الشهر.

عاد الصديق-الموفد إلى الشلة بتلك الأخبار، لكن أحداً لم يصدقه. قالوا إن صديقهم أبو عمر سلمون ربما انتقل إلى منزل آخر، وإنه لا شك سيزور الشلة قريباً لأن طبيعة العلاقة كانت تسمح له بأن يبوح بقراره. استعادوا ما أبداه من قلق في آخر الجلسات معه وجزمه بغياب الأفق لليهود في لبنان، لكنه لم يفصح عن قراره بالرحيل. كما أنه أبدى مرات عدة امتنانه للشلة التي تفهم وتميز بين اليهود كطائفة وبين ما تفعله إسرائيل.

بقي أبو عمر سلمون محور حديث الشلة لفترة طويلة خاصة أن أخبار

التطورات المتسارعة احتلت كل الأحاديث، فما التقى اثنان في تلك الفترة إلا وكان تحليل ما يجري هو الطاغي.

لكن أبو عمر سلمون لم يظهر يوماً بعدها، ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً، سوى أنه ربما غادر مع شوقي زميله في الإذاعة اللبنانية ليعملا في الإذاعة الموجهة إلى العالم العربي، والتي أصبحت في ما بعد، إذاعة إسرائيل.

حاي وزهيدا

تذكر كارمن أنها كانت يوم السبت تذهب مع صديقتها اليهودية جنى حنان لحضور أفلام سينما في التلمود توراه. والتلمود توراه هي مدرسة تعليم التوراة واللغة العبرية، وتقع خلف الكنيس مباشرة كامتداد له. كانت لتلك المدرسة بوابتان، واحدة من جهة باب إدريس وأخرى من جهة وادي أبو جميل.

أما المدخل الأساسي لها فمن جهة الكنيس اليهودي، حيث ينحرف الداخل بعد البوابة الحديدية الرئيسية يميناً إلى ممر ضيق ينتهي إلى درج يؤدي إلى تلك المدرسة.

كان هذا المقر الديني الذي يسمى أيضاً بمدرسة سليم طراب نسبة إلى مؤسسه، يضم قاعة سينما تعرض فيها أفلام متنوعة مساء يوم السبت، بعد الغروب، ومع انتهاء الشاباط. كما يضم غرفاً وقاعات عدة تستخدم للاحتفالات الرسمية ولإقامة نشاطات متنوعة لنادي مكابي الخاص بشباب الطائفة، ومن ثم تحول مركزاً للنشاطات العامة بعد حل النادي وتجميد عمله بقرار من الدولة اللبنانية. أما حضور هذه النشاطات فيقتصر على أبناء الطائفة مع بعض الاستثناءات. وكانت كارمن واحدة من تلك الاستثناءات، تدعى لحضور بعض النشاطات في النادي من قبل صديقاتها من أبناء الطائفة اليهودية وأقربهم إليها جنى. فكارمن وجنى تسكنان في الشارع نفسه وتدرسان في المدرسة نفسها والصف نفسه.

لم يتغير شيء في نمط حياتها المتلازم إلا عندما تزوجت كارمن من أحد أبناء جيرانها بعد قصة حب استمرت سنوات. وبعد ذلك بأشهر قليلة تزوجت جنى من حاي اليهودي الإيراني الأصل، بعد شهر تقريباً على تعارفهما، خلال نزهات المساء في شارع فرنسا.

أتى حاي من إيران إلى لبنان مطلع السبعينات، وتمكن من الحصول على إقامة تسمح له بالعمل في لبنان، ومن ثم على الجنسية اللبنانية بترتيب خاص من مختار وادي أبو جميل الذي أعطي بعد ذلك تعليمات بمنح إقامات فقط ووقف منح الجنسيات التي لم يحظ بها إلا القليل القليل ممن استنسب مختار الوادي منحهم إياها.

عندما أتى الى لبنان كانت حرب 1967 قد حصلت وبدأ الرحيل الكثيف لليهود. لكنه وعلى الرغم مما سمعه عن هجرة أبناء طائفته قرر المحاولة بعدما أخبر عن الرخاء والازدهار في لبنان. فإذا نجح في تأسيس عمل والانطلاق فيه، يبقى في لبنان، وإلا فإن طريق العودة إلى إيران مفتوحة.

لكن عمله في تجارة القماش ازدهر وبات تاجر جملة، يوزع ما يستورده من أقمشة على محلات عدة في العاصمة وخارجها، ولذلك قرر البقاء في لبنان حتى بعد اندلاع الحرب الأهلية عام 1975. ولم يغادر منزله في منطقة القنطاري قرب وادي أبو جميل حيث سكن بعد الزواج، وبقي حتى بعد أن كبرت العائلة ورزق وجنى بصبيّين.

لم تعد كارمن تذكر اسم عائلة حاي، لكنها تذكر أنه قُتل خلال الحرب الأهلية على أيدي مسلحين اقتحموا منزله وخطفوه. وبعدها بأيام وُجد جثة هامدة قرب برج المر قبل الجسر الذي يؤدي إلى منطقة زقاق البلاط.

عندما قُتل كانت المعارك على أشدها، فقررت جنى الرحيل إلى المنطقة الشرقية من العاصمة كخطوة أولى، ومن ثم إلى مصير تحدده عندما تصل سالمة إلى هناك.

طلبت مساعدة جيرانها لأن القصف والقنص قطعا طرقات عدة، ولأن الحرب كرست خطوط تماسّ بين المتقاتلين وحواجز من الطرفين.

لازمت كارمن صديقتها في تلك الفترة، وقررت بحث أمر نقلها إلى المنطقة الشرقية مع خوري رعيتها لأنه يتنقل أسبوعياً بين المنطقتين متمتعاً بحصانة دينية كانت في تلك الفترة ما تزال مصدر أمان، على الأقل على الحواجز.

وعندما أبلغتها كارمن بتجاوب خوري رعية مار الياس المارونية مع طلب المساعدة بدأت جنى بتوضيب أغراضها، أخذت القليل مما خف حمله وتركت الكثير وراءها طالبة من صديقتها الاهتمام بالمنزل إلى حين اتضاح صورة ما يمكن لها أن تفعل بعد انتقالها إلى المنطقة الشرقية.

جلس الخوري في المقعد الأمامي قرب السائق وجلست هي وولداها في المقعد الخلفي. ووقفت كارمن على الرصيف لوداع صديقتها بعد أن تسلمت مفتاح المنزل، واعدة بإبقاء أمر انتقالها إلى الشرقية طي الكتمان، كي لا يطالب صاحب العقار بعقاره ويرمي أغراضها.

كان معبر المتحف، المعبر الأساسي الذي يربط المنطقتين بعد اندلاع الحرب الأهلية، وارتفاع السواتر الترابية على طول خط التماسّ الذي ارتسم في بيروت مع انطلاق شرارتها الأولى، واحتلال المتقاتلين مواقع متقابلة.

يومها تحولت بيروت إلى بيروتين. بيروت الشرقية وبيروت الغربية بحيث سيطرت الأحزاب المسيحية التي كانت ترفض الوجود الفلسطيني المسلح على الأراضي اللبنانية، على المنطقة الشرقية في مقابل سيطرة المقاومة الفلسطينية والتنظيمات والأحزاب اللبنانية الداعمة لها على المنطقة الغربية.

لم تحاول جنى قبل ذلك اجتياز هذا المعبر. فهي منذ اندلاع الحرب لازمت منطقة سكنها في القنطاري ولم تعد تخرج إلا للضرورة القصوى. بينما بقي زوجها يتنقل بين المناطق لتوزيع الأقمشة على المحلات التي اعتادت أن

تشتري منه. وإن كان الانتقال بين المنطقتين قد بات رهناً بالظروف الأمنية. لكن حاي نجح ورغم المخاطر بالتنقل بين الشرقية والغربية على الأقل مرة في الأسبوع بداية ومن ثم مرتين في الشهر بعد أن خف الطلب من قبل التجار.

كانت جنى تمضي الوقت في متابعة الإذاعة اللبنانية يوم انتقال زوجها إلى المنطقة الشرقية. ففي بداية الحرب كانت تلك الإذاعة تعطي ملاحق أمنية، تخبر فيها عن أحوال المعابر وتذيع عدد ضحايا القصف والقنص وأسماءهم، وعدد الجرحى وأسماءهم والمستشفيات التي نقلوا إليها حتى إذا سمع ذووهم يعرفون وجهتهم. كانت تلك الملاحق الإخبارية تغطي أحوال المعابر أيضاً. وفي ما بعد خصصت الإذاعة اللبنانية برنامجاً درج الناس على تسميته ببرنامج «سالكة وآمنة» لأن مقدمه كان يسمي الشوارع بأسمائها، فإما سالكة وآمنة وإما حذرة وإما مقطوعة أو خطرة. وكان هذا البرنامج يحظى بأعلى نسبة استماع ليس للراغبين بالتنقل فقط، إنما ايضاً للراغبين بالاطمئنان على أقارب وأصحاب لانقطاع التواصل والخطوط الهاتفية. حتى بات مقدم هذا البرنامج، شريف الأخوي، أهم شخص بالنسبة لجنى وأشهر من أيّ سياسي على الساحة اللبنانية بالنسبة للكثير من اللبنانيين.

أما معبر المتحف الذي أسمي في ما بعد معبر الموت، لكثرة ما قتل ناس عليه وهم يعبرونه، فقد كان محط قصف الفريقين عند اشتداد المعارك، وبهدف قطعه. حتى إن جثث المارة كانت تبقى في المنطقة الفاصلة بين الحاجزين، وعلى جانبي المعبر، أياماً عدة قبل أن يجري رفعها بترتيب من الجانبين.

استرجعت جنى روايات زوجها في طريقها إلى منطقة المتحف واختلطت مشاعرها بين الخوف من الموت بقذيفة أو برصاص قناص أو

الخوف من الخطف. ثم ما لبثت أن استبعدت الفكرة الثانية لأنها بمعية رجل دين وأدركت، كما كتبت لصديقتها في ما بعد، أن أكثر ما كانت تخشاه هو المجهول الذي وضعها فيه موت زوجها وقرارها الرحيل إلى حيث لا تدري.

كان يوم مغادرة جنى هادئاً أمنياً، ما ضاعف الحركة على المعبر الذي ازدحم بالسيارات والمشاة. فالناس تستغل فترات الهدوء لتنتقل بين المنطقتين.

عبرت السيارة من دون أن يدقق أي حاجز من حواجز المعبر في هوية ركابها. فقد وضع الخوري صليباً كبيراً على صدره وعلق مسبحة صلاة على المرآة الأمامية، معرفاً بذلك عن هويته. كما عمد إلى مد يده للتحية واثقاً من أن رجال الدين كانوا ما يزالون في تلك الفترة خارج دائرة الاستهداف. حتى إن سيارته باتت معروفة من قبل القناصة والمقاتلين على حد سواء لأنه يعبر بها أسبوعياً في نفس اليوم والتوقيت، ما خلا أيام القصف الشديد.

وبينما كانت السيارة تسير ببطء على تراب اختلط بشظايا القصف والأحجار المتناثرة، كان عشرات الناس يعبرون بالاتجاهين بمشية سريعة تستفيد من الهدوء الحذر لكنها لا تثق به.

كانت غالبية العابرين مضطرة للعبور، وتفعل ذلك سيراً على الأقدام لأن مزاجية المقاتلين تمنع أحياناً عبور السيارات، وتسمح للمشاة فقط، ما عزز حركة سيارات الأجرة على جانبي المعبر. فأقيمت مواقف سيارات النقل، أما تعرفة النقل فكانت ترتفع أو تنخفض حسب الأوضاع الأمنية ونسبة الخطر الذي يعرض الواقف على جانبي المعبر نفسه لها.

وعند عبورها آخر حاجز في رحلة استغرقت ثلاث ساعات لشدة الازدحام، قصدت جنى أقارب لها في منطقة جونيه. وكتبت رسالة يتيمة لكارمن أرسلتها عبر الخوري نفسه بعد أن قصدته في مطرانية بيروت في

الأشرفية لتسليمها إليه بعد أيام على انتقالها إلى المنطقة الشرقية بمساعدته.

أخبرت جنى صديقتها بتفاصيل رحلة العبور، لكنها لم تعطها أية إيضاحات عن قراراتها وما الذي تنوي فعله. ومنذ ذلك التاريخ انقطعت أخبارها.

لم يعد أحد يسمع عنها شيئاً. حاولت كارمن الاستفسار من العدد القليل من اليهود الذين بقوا في وادي أبو جميل، لكنها سمعت أجوبة متناقضة أقرب إلى الاستنتاج منها إلى الحقيقة. ومنها أنها التحقت بأشقائها في ميلانو. وتعتقد كارمن أن هذا الاحتمال هو الأقرب إلى الواقع لأن جنى لو بقيت هنا لكانت قد اتصلت بها أو حاولت العودة أو الزيارة على الأقل، للسؤال عن المنزل وأغراضها التي نهبت بالكامل بعد أن طال غيابها.

كما أن خبر مغادرتها إلى إيطاليا أقرب إلى الواقع لأن مصدره هو الشقيقتان أليغرا وشير خياطتا الحي من اليهود الذين بقوا في لبنان، فهما على صلة بأقارب جنى في منطقة جونية وتتصلان بهم هاتفياً من حين لآخر عندما يكون هنالك خطوط هاتفية. كما أن جنى كانت صديقة مقربة من الخياطتين تزورهما باستمرار، وأحياناً كثيرة برفقة كارمن.

يقع منزل الشقيقتين الصغير في شارع مستشفى السان تيريز في وادي أبو جميل، والمنزل مريح ودافئ بألوانه المتجانسة. وهو مؤلف من غرفتين فقط، واحدة للنوم والثانية للجلوس، بحيث حولته الشقيقتان إلى مشغل ومكان لاستقبال الزبائن والأصدقاء. وقد وضعتا كنبة في صدر غرفة الجلوس الرئيسية مقابل طاولة وضعتا عليها ماكينتي خياطة ما سهل عليهما العمل والمحادثة في الوقت نفسه.

لم تتزوج شير وألغيرا، ورغم وفاة والديهما المبكر لم تقررا المغادرة مع عشرات اليهود الذين رحلوا ومن بينهم أقرباء كثر لهما.

فالعمل جيد في لبنان والانطلاق من جديد في أي بلد آخرغير مضمون.

كما أن لهما في الحي أصدقاء وزبائن كثراً من كل الطوائف والملل. لكن أليغرا وشير كانتا تختفيان من دون سابق إنذار في فترة الأعياد اليهودية ولا سيّما في عيدي الغفران والفصح، وتعتقد كارمن أنهما كانتا تلتقيان بأقاربهما إما في قبرص أو في إسرائيل كما كان شائعاً في تلك الفترة.

حتى اندلاع الحرب الأهلية لم يغير قرارهما بالبقاء. لكن زيارة مسلحين فلسطينيين بعد اندلاع الحرب لطمأنتهما بأن أحداً لن يتعرض لهما بسوء أثارت قلقهما فتوقفتا عن السفر إلى الخارج في فترة الأعياد.

تعتبر الشقيقتان أليغرا وشير من أشهر خياطي وادي أبو جميل. وذاع صيتهما عندما أصبحت القبعات الكبيرة على الموضة في تلك الفترة، حتى بات عملهما الأساسي في حياكة تلك القبعات.

وزاد من شهرتهما في حياكة القبعات أن زهيدا اليهودية التي كانت تعتبر من أنيقات الحي وأشبه بعارضات الأزياء لشدة تبرجها، كانت ترتدي قبعات من حياكة الأختين وتتنزه في وادي أبو جميل.

لزهيدا شقيقتان، واحدة اسمها هيدا والثانية فريدا. وعلى الرغم من أن الشقيقات الثلاث يتشابهن في طريقة اللبس والتبرج إلا أن زهيدا بقيت وحدها المثل الذي يحضر عندما يكون حديث المجالس عن التبرج والأناقة، حتى باتت جلسات القهوة الصباحية للنسوة عند شير وأليغرا تتمحور كلها حول جديد قبعات زهيدا وشقيقتيها. وكان البعض يكتفي بالقول إنه يريد قبعة على طريقة زهيدا لتفهم شير وأليغرا أن المطلوب هو قبعة دائرية كبيرة.

كانت الشقيقات الثلاث يرتدين ثياباً حادة الألوان وأحذية ذات كعب عالٍ ويتبرّجن، ويزيّن شفاههنّ بأحمر شفاه يلمع لونه عن بعد. وكن يخرجن سوياً في نزهات شارع فرنسا في أوقات محددة، حتى باتت نزهتهن بمثابة عرض أزياء ينتظره سكان الحي.

وعندما كان أحدهم يعاكسهن، كن يضحكن بصوت عال لمزيد من لفت الانتباه.

كانت الشقيقات الثلاث يثقن بجمالهن وأناقتهن بعد أن صرن محط الأنظار، إلا أنهن وعند بلوغهن سن الزواج اختفين فجأة بعد أن غادرن لبنان مع العائلة.

بقي الحديث عن زهيدا وهيدا وفريدا حاضراً في جلسات القهوة لشير وأليغرا وكارمن وجنى حتى بعد رحليهن. إلا أن اللقاء الرباعي تحول عن قصة البنات الثلاث مع الوقت لينشغل بقصة أخرى هي قصة زواج صديقتهن ليزا التي أغرمت بأنطوان الشاب الماروني وتزوجت منه رغم رفض أهلها وأهله أيضاً.

فعندما فاتحت ليزا أمها بقصة حبها وقرارها الزواج من الشاب الماروني جوبهت بالرفض المطلق، فهي إذا خرجت من المنزل لن تعود إليه ثانية وسيكون عليها أن تواجه حقيقة أنها ستكمل حياتها من دون أهل وأشقاء لأنها ستضع رأس عائلتها أرضاً بزواجها من غير أبناء طائفتها.

حاولت ليزا أن تقنع والدتها ليحصل الزواج برضاها. قالت لها إن عدد شباب اليهود يتراجع بسبب الهجرة، وإنها إذا لم تتزوج أنطوان ستبقى عانساً في منزل أهلها من دون رجل ولا أولاد. لكنها لم تسمع سوى تكرار الرفض ونصيحة بالاقتناع بنصيبها في حال لم يتقدم أي من الشاب اليهود لطلب يدها، لأنها لا تستطيع أن تغير قدرها.

لم تكن حالة أنطوان أفضل. فقد رفض أهله بقوة زواجه من يهودية. وجن جنونهم عندما قال لهم إنه سيتزوج ليزا، شاؤوا أم أبوا، لا بل سيقيم معها في منزلهم إذ لا إمكانية له لاستئجار بيت.

بقي أهل ليزا على رفضهم لكن أهل طوني رضخوا على مضض بعد أن أكد لهم أنه سيُتم زواجاً مارونياً.

اتفقا على يوم خروجها من منزل أهلها. انتظرها وتوجها إلى الكنيسة حيث تمت إجراءات تغيير دينها ومعاملات عقد القران، فتزوجا من دون احتفال ولا استقبال.

كانا بمفردهما في الكنيسة وبثياب عادية. وعندما انتهيا من المراسم التقليدية عاد بها إلى منزل أهله. دخلا من دون ترحيب أو تهنئة.

عوملت ليزا معاملة سيئة من قبل أهل زوجها، فلم يكن يُسمح لها بالخروج في غيابه إلا نادراً وكانت هي التي تتولى الأعمال المنزلية.

ولم تحسّن ولادة ابنتها أولاً وابنها بعدها بعام في معاملة أهل زوجها لها. وقد زادت وفاة زوجها بسكتة دماغية وضعها سوءاً، فهو لم يترك لها شيئاً لأنه كان يعطي أمه كل مدخوله كي تسمح له بالبقاء مع عائلته في منزلها. أما هي فلم يكن لديها من تلجأ إليه، فأهلها نفذوا تهديدهم وتجاهلوا وجودها، لا بل هاجروا من لبنان دون إخبارها ولا وداعها..

تمنت ليزا لو تموت وترتاح كما أسرّت لصديقتها كارمن. وهي في المرات القليلة التي كانت تجتمع فيها مع أصدقائها عند شير وأليغرا كانت تبكي وتنتحب لحظها السيئ وانسداد الأفق أمام أي مخرج لوضعها وأي حل. فهي لا تريد أن تهرب من دون ولديها وإذا فعلت فإلى أين؟ فقد حاولت مع إحدى الجمعيات اليهودية عن طريق مكتب في المنطقة الشرقية لكنها لم تسمع أي جواب. كما أن شير وأليغرا تابعتا قضيتها بالاتصال بتلك الجمعية من دون حصول أي تطور باستثناء وعد بالمساعدة قريباً.

كان يوسف ابن الشقيق البكر لزوجها يعطف عليها ويدافع عنها أمام جدته. وبات الفرد الوحيد في عائلة زوجها الذي تستطيع أن تشكو له همها. وعندما باشرت الصلة بالمكتب الذي يعنى بمتابعة شؤون اليهود، أخبرته وتمنت عليه مساعدتها في تهريب ولديها متى جاء الجواب.

بعد أسابيع قليلة اتصل ممثل عن الجمعية بأليغرا طالباً صوراً شمسية

لليزا وأطفالها لإعداد جوازات سفر.

وبعد أقل من أسبوع استلم يوسف جوازات سفر العائلة من مكتب الجمعية، وهي جوازات سفر إيرانية مصدرها السفارة الإيرانية في بيروت.

عندها قررت إخبار ولديها بأنها ستهرب معهما من منزل الجدة، وأن ابن عمهما سيوصلهم جميعاً إلى المكان الذي سيمكثون فيه لفترة قبل أن يسافروا إلى الخارج.

لكن مفاجأتها كانت في أن جاد ابنها، وهو في الرابعة عشرة من عمره، رفض الرحيل وأصرّ على البقاء في لبنان مع أهل والده، وهددها بأنه سيفضح أمرها في حال أجبرته. صُدمت ليزا بقرار ابنها وحاولت إقناعه لكنها لم تفلح. ثم دخلت دائرة التردد لكنها عادت وقررت الرحيل مع ابنتها علّ ابنها ينضم إليهما لاحقاً عندما تستقر بهما الحال.

وفي اليوم المتفق عليه مع الجمعية خرجت من المنزل مع ابنتها، متذرعة بارتفاع حرارتها وحاجاتها لمراجعة طبيب. كان ابن شقيقها بانتظارها وتولى نقلها إلى المنطقة الشرقية. وفي اليوم التالي غادرت لبنان إلى إسرائيل على الأرجح.

بقي ابن ليزا في لبنان يعيش مع جدته التي لم تبد كبير أسف لهرب ليزا وابنتها طالما أن الشاب بقي معها، فهي شديدة التعلق به.

دخل جاد سوق العمل حيث وجد وظيفة في إحدى المؤسسات التجارية في المنطقة الشرقية، بعد أن انتقلت عائلة أبيه من منزلها في وادي أبو جميل إلى منطقة الأشرفية في بيروت.

التقت كارمن بجاد عدة مرات في المؤسسة حيث كان يعمل، وهي مؤسسة تعنى ببيع الأدوات الكهربائية وإصلاحها. وكانت في كل مرة تسأله عن أخبار والدته وأحوالها ومكان وجودها لكنها كانت تسمع الجواب نفسه بأن لا اتصال بينه وبينها وأنه لا يعرف عنها شيئاً.

تعيش كارمن اليوم بين لبنان والخارج. وهي لم تعد تعرف عن مصير سكان وادي أبو جميل شيئاً بعد أن تشتتوا خارجه. أما شلة الأربعة التي نقصت في البداية واحدة مع رحيل جنى بعد خطف زوجها وقتله، فلم يبق منها سوى كارمن. فأخبار شير انقطعت فجأة بعد سنوات قليلة على وفاة شقيقتها أليغرا بعد أقل من سنة على اندلاع الحرب. شاركت كارمن يومها في دفنها في مقابر السريان لأن مقبرة اليهود في السوديكو تقع على خط التماس، والانتقال إلى صيدا حيث أصل العائلة ومدافنها، لم يكن آمناً. بقيت شير تمارس مهنة الخياطة بعد وفاة شقيقتها لكنها قررت الانتقال من وادي أبو جميل إلى منطقة الحمرا حيث استأجرت شقة صغيرة ثم انقطعت أخبارها... أقفلت المنزل ورحلت.

غمالو

غمالو مزراحي. تركت صورتها ورحلت. أتت مسرعة عند صديقتها مرسيل وأخبرتها أنها في اليوم التالي ستغادر مع أهلها.

كانت في الخامسة عشرة، فرحة ومتشوقة لفكرة السفر فهي تقوم به للمرة الأولى لكنها حزينة لفراق أصدقائها إلى الأبد. فهي تعلم معنى الرحيل إلى إسرائيل. لقد شرح لها والدها ظروف السفر وشروطه وأهمها عدم إخبار أحد، مطلق أحد.

وعدته ألا تفعل لكنها، وفي اليوم الأخير لها في لبنان، قررت، ورغم تحذيرات والدها، أن تودع صديقتها الأقرب مرسيل.

كانت العائلة منهمكة بتوضيب الأغراض تمهيداً للرحيل فجراً وقبل طلوع الضوء وبكل هدوء كي لا يعرف أحد. دخلت إلى غرفة والديها واستأذنتهما الذهاب إلى الدكان القريب، فهي كسرت للتو «قجتها» وتريد أن تشتري شيئاً بما تجمع فيها من مال. ولما وافقا شرط العودة السريعة، دخلت إلى غرفتها وبين الصناديق المكدسة، فتشت على كيس من ورق وضعت فيه صورها. ثم انتقت واحدة منها تظهر فيها بشعر رتّب بعناية وقد رسمت على وجهها ابتسامة في حدود ما يطلبه المصور دقوني الذي كان أشهر مصوري وادي أبو جميل وقد كان محله قرب كنيسة الكبوشية في أول شارع الوادي.

حملت صورتها وهرولت إلى منزل صديقتها القريب جداً من منزلها.

وكما توقعت، فقد فتحت صديقتها الباب، وبحركة سريعة سحبتها من يدها إلى خارج العتبة، وبلهاث الراكض، أخبرتها أنها راحلة. ولما حاولت الاستفسار كانت والدة مرسيل خلف ابنتها بعدما نادت عليها بسؤال عن هوية الطارق عدة مرات ولم تجب، ثم طلبت الوالدة من الصبيتين الدخول لأن الكلام على الباب لا يجوز وغير مستحسن.

دخلت غمالو ومرسيل إلى البهو خلف الباب مباشرة حيث كانت العائلة حول مائدة الطعام، لكن غمالو رفضت دعوات الانضمام إلى العشاء وطلبت أن تتحدث إلى صديقتها في غرفتها. ولما دخلتا أقفلت غمالو الباب ووقفت لإسناده كي تتأكد أن أحداً لن يفتحه، وكررت القول إنها ذاهبة إلى إسرائيل وإنها لن تعود ثانية. وطلبت منها ألا تخبر أهلها، لأن والدها سيغضب. فقد أوصاها بذلك ووعدته بألا تفعل. وفي حركة سريعة سحبت صورتها من جيب فستانها الأحمر القصير وأعطتها لمرسيل، للذكرى، كما قالت لها.

أمسكت مرسيل بالصورة من دون أن تعرف ما تقول، ثم وبصوت منخفض طلبت من صديقتها الانتظار قليلاً لتبحث لها عن صورة تبقيها بدورها معها للذكرى. ترددت غمالو قليلاً لأنها تستعجل العودة كي لا تثير ريبة والدها، التفتت إلى صديقتها وسألتها عما إذا كانت الصورة في الغرفة حيث تقفان، ولما بدت مرسيل غير واثقة، تقدمت غمالو وعانقتها، ثم خرجت من الغرفة وألقت التحية على عائلة مارسيل من دون أن تستجيب لإلحاحهم بالبقاء.

فحمّلها والدا مرسيل تحية إلى الوالدين ودعوة لفنجان قهوة.

واكبت مرسيل صديقتها إلى باب المنزل، وخرجت معها إلى الجهة الأخرى من المدخل كي لا ينتبه الأهل إلى أن تحية هذا اليوم ليست كسابقاتها. ولما عادت إلى مائدة العشاء بدت مرسيل سارحة الذهن، شاردة في ما حصل معها للتو. كانت محتارة بين شعور الحزن أو الغضب من غمالو،

لأنها لم تخبرها من قبل، ولم تنتظرها حتى تعطيها صورتها. لكن صوت والدتها السائل عن أسباب توقفها عن الأكل أعادها إلى حديث العائلة عن أسباب خسارة فريق كرة القدم لشباب الوادي أمام فريق نادي مكابي التابع للطائفة اليهودية. فشقيقها حنا كان عضواً في فريق الوادي وكان الشباب في العائلة من محبي كرة القدم ومن مشجعي فريق الوادي المؤلف بغالبيته من شباب المنطقة من غير اليهود.

نظرت مرسيل من حولها مطمئنة إلى أن أحداً لم ينتبه إلى أن زيارة غمالو هذه لم تكن كزياراتها شبه اليومية السابقة، وإلى أن ارتباكها مما جرى للتو لم ينتبه إليه أحد. فهي وعدت صديقتها أنها لن تخبر والديها بأنها وعائلتها راحلون، لكنها في الوقت نفسه لم تعتد الكذب.

فلو سألها أهلها، لوضعت أمام خيارين، إما الكذب وإما الإفصاح عن حقيقة أن غمالو جاءت لتودعها قبل مغادرة العائلة النهائي، فقررت أن تبادر إلى الحديث عن موضوع آخر لتبعد زيارة غمالو عن ذهن أهلها وإخوتها. فغمالو تزورها دائماً في منزلها وتطيل المكوث لأن الاثنتين كانتا في الصف المدرسي نفسه وغالباً ما كانتا تنهيان الفروض المدرسية سوية. لكنها هذه المرة جاءت مسرعة ورفضت الجلوس، كما أن الارتباك كان ظاهراً على وجهها. إلا أن غضب شقيق مرسيل من خسارة فريق الوادي المتتالي أنقذها، لأنه طغى على مضمون حديث المائدة في تلك الليلة.

بقيت مرسيل توزع نظراتها على أفراد عائلتها حسب المتكلم منهم، لكنها لم تكن تستمع إلى ما كانوا يقولون. ومع الوقت أدركت أن تلك الدقائق التي مرت ما هي إلا جزء من زمن طويل سيفصلها عن صديقة الطفولة وأقرب الناس إلى قلبها. تمنت لو تستطيع أن تختلي بنفسها قليلاً، وتصورت شعور الوحدة بعد رحيل الجارة والصديقة ورفيقة المدرسة.

لقد جاء رحيل غمالو في وسط رحيل جماعي لليهود. كان الناس

يستفيقون ليجدوا أن جارهم غادر وعائلته. لم يكن الراحلون يخطرون أحداً من الجيران. أحياناً، كان شباب العائلات يغادرون قبل أهلهم. وكان الجيران عندما يَسألون عنهم يُقال لهم إنهم غادروا للدرس أو للسياحة.

كان البعض يغيب ثم يعود. وحسب روايات سكان أهالي الوادي، فإن عدداً من الشبان ذهب إلى إسرائيل للخدمة العسكرية ثم عاد إلى لبنان. فهؤلاء كانوا يختفون فترة الصيف عند بلوغهم سن الثامنة عشرة حتى إن بعضهم أسرّ بأسباب غيابه لمقربين. والبعض الآخر كان يكثر الزيارات إلى قبرص للقاء أقارب له غادروا إلى إسرائيل. كما أن كثيرين كانوا بالفعل يسافرون للسياحة أو الاستجمام. لكن كل تلك التحركات كانت تحاط بتكتم شديد أثار تساؤلات حول الأسباب والخلفيات..

فقد شكل إعلان قيام دولة إسرائيل نقطة التحول لتلك الهجرة. وفي يوم الرابع عشر من أيار عام 1948 كان يتردد من منازل وادي أبو جميل صوت المذيع الآتي من إذاعة لندن ينقل خبر إعلان بن غوريون قيام دولة إسرائيل.

خلت شوارع الوادي وطرقاته من الناس. الجميع لازموا منازلهم. كانت معارك طاحنة قد دارت، وصور القتلى وصور الفلسطينيين وأمتعتهم على ظهرهم راحلين هرباً، تطغى على صفحات منشورات تلك الفترة. صور رحيل لأشخاص ووجوه مرعوبة مما كانت شاهداً عليه.

وفي الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم وقف بن غوريون أمام أعضاء المجلس القومي اليهودي في متحف الفن الحديث في تل أبيب وأعلن قيام الدولة اليهودية، دون أن يحدد حدودها. جلست مرسيل قرب والدها تتابع الأخبار.

واصل المذيع قراءة الخبر، وكان يكرره في كل نشرة، ثم أضاف إليه إعلان الرئيس الأميركي ترومان اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل بعد ساعات قليلة على إعلان قيام الدولة. لازم الجميع الدائرة المحيطة بجهاز

البث.

كان الراديو يومها تحفة كبيرة من الموبيليا بحجم التلفزيون اليوم. ودولاب التفتيش عن الموجات الإذاعية فيه، يقع في الجهة التي تمتد فيها أرقام الموجات بشكل مستطيل عند حدود قماشة تغلف مكبر الصوت.

ثبت والد مرسيل الكرسي في أقرب نقطة ممكنة من الطاولة حيث الراديو الذي وضع في صدر الغرفة، وفي مكان بارز لحسن توزيع الصوت في الغرفة.

رفع الصوت إلى درجة غير اعتيادية، وانحنى برأسه إلى النقطة الأقرب الممكنة لمكبر الصوت. كان الصوت الخارج من المذياع يعلن حدث إعلان قيام دولة إسرائيل، وفي حركة لا إرادية حاول والد مرسيل هز كرسيه لتقريبه أكثر من المذياع، غير منتبه إلى اصطدام الكرسي بالطاولة لاقترابه إلى الحد الأقصى الممكن.

كانت أخبار الاستنكارات التي سادت العالم العربي تتوالى، وكذلك أخبار حالة الغليان التي لاحت.

لم يستطع والد مرسيل النوم يومها. وفي صباح اليوم التالي أعاد الجلوس في الوضعية نفسها وراح يتابع أخبار دخول جيوش عربية إلى فلسطين، وهي جيوش مصر والأردن وسوريا والعراق ولبنان والسعودية والجيش الفلسطيني. لكنه عبّر عن إحباطه الشديد عندما انتهت المعارك إلى تكريس وجود دولة إسرائيل، متوقعاً ألا تكون عودة آلاف اللاجئين الفلسطينيين قريبة.

عندما زارت مرسيل صديقتها غمالو بعد أيام قليلة على تلك التطورات، كان والد غمالو يناقش انعكاسات ما يجري على الوضع في لبنان، لكنه كرر في تلك الجلسة أن لا أفق لليهود في لبنان والمنطقة. كان والد مرسيل بين الحاضرين في تلك الجلسة. لكن أحداً لم يخرج بانطباع أن استعدادات

الرحيل في هذا المنزل قد بدأت، كما تبين بعد أيام معدودة فقط...

حتى والدة غمالو، صديقة والدة مرسيل، لم تخبرها بأي شيء عن تلك النية. كانتا تذهبان سوياً كل صباح تقريباً لشراء الخضار قرب كنيسة الكبوشية في آخر شارع فرنسا، حيث كان يدخل عند السابعة من صباح كل يوم عدد محدود من بائعي الخضار ممن حصلوا على تراخيص للبيع في وادي أبو جميل.

كان البائعون على العربات يتوجهون باكراً إلى الوادي بكل أنواع الخضار، وبعضهم كان يبيع الحليب والدبس والعسل في موسمه. وبعد ساعتين أو ثلاث تكون العربات قد فرغت من محتواها وبيعت كلها.

بات هذا المكان سوقاً يومياً تقصده نساء الحي. وكانت والدتا غمالو ومرسيل على موعد يومي للتوجه إلى السوق. وغالباً ما كانتا تتبادلان الحديث مع جيران آخرين، على الواقف، في حلقات دائرية بعد التبضع قبل العودة إلى المنزل. أما مشوار الذهاب والإياب فقد كان مناسبة لتبادل الأخبار عن العائلة والأحوال، وغالباً ما كان يستتبع بوقفة استراحة إما في منزل والدة مرسيل أو في منزل والدة غمالو لشرب القهوة.

وعلى الرغم من اللقاءات اليومية، لم تشعر والدة مرسيل أن جارتها تستعد للرحيل. أما غيابها الأخير عن زيارات السوق، فقد كان بسبب انتقالها إلى الجبل لعدة أيام كما قالت في اللقاء الأخير بينهما. فللعائلة منزل في بحمدون تقصده عندما يشتد الحر في العاصمة وفي عطلة المدارس.

وهي عرفت برحيل جارتها الأقرب عندما جاء ابنها وطلب منها أن تحزر من انضم من الجيران إلى لائحة المغادرين. ولما لم يصحّ أي من أجوبتها، أخبرها برحيل عائلة غمالو.

دُهشت والدة مرسيل للخبر وفتح الوالد عينيه ونظر إلى زوجته ثم إلى ابنته، وسألها عما إذا كانت غمالو قد أخبرتها بشيء. ارتبكت مرسيل لسؤال

كانت تتوقعه وتتمنى لو تستطيع أن تتجنبه. نظرت إلى والديها وإخوتها وبصوت منخفض خجول أخبرت العائلة أن زيارة غمالو الأخيرة التي تمت بسرعة كانت لوداعها. لكنها واحتراماً لقسمها بحياة والديها بألا تخبر أحداً، تكتمت على الخبر.

لم يعلق الوالدان على سبب تكتم مرسيل. ثم حاولا استعادة لقاءاتهما الأخيرة مع جيرانهم وكيف كانت عادية جداً وطبيعية بحيث لم يشعرا بأي شيء غريب. في حين بدا طوني شقيق مرسيل فرحاً بالسبق الذي حققه للتو، فقد كان أول من أخبر والديه برحيل جديد لأصدقاء لهما كما أنه بدا فخوراً بكسب مصداقية أكبر لدى أهله عندما أكدت شقيقته أن العائلة غادرت بالفعل، لأن غمالو أتت لوداعها وأخبرتها بتلك النية.

كان طوني يتابع أخبار الجيران أولاً بأول. فهو وضع لائحة للراحلين من معارفه وكان يأتي من حين لآخر إلى مائدة العشاء بتلك الأخبار، ناقلاً الأسماء الجديدة بصيغة «حزورة». وغالباً ما كان يغيظ شقيقه الرياضي الذي كان يرغب دائماً بطرح هموم فريق الوادي الدائم الخسارة، فيستعجل الكشف عن الاسم، كي يقفل الحديث وينقله إلى ساحة الملعب.

لكن خبر رحيل والدي غمالو لم يكن عادياً بالنسبة لتلك العائلة. لأن صداقة كانت تربط العائلتين. وكان والد مرسيل يتمشى مع صديقه عدة مرات في الأسبوع على كورنيش البحر ويتناولان القهوة في مقهى الحاج داود. وكان لقاء المقهى ينتهي دائماً بسباق لدفع ثمن القهوة والنرجيلة التي كانت تحضر إذا كان وقتهما يسمح بذلك. لكنهما اتفقا بعد ذلك أن يتشاركا في الحساب أو أن يتناوبا على دفعه.

كان والد مرسيل يعود من محله الصغير في الوادي عصراً، يغير ثيابه، فيرتدي بزة رسمية وربطة عنق، ثم يمر على جاره لنزهة ما قبل العشاء. أما في أيام البرد والمطر فقد كانت تلك النزهات تستبدل بجلسات في المنزل.

استرجع والد مرسيل وقائع اليوم الأخير الذي التقى فيه جاره، وأخبر زوجته أنه كان عادياً، كثير الكلام، ولكن من دون أية إشارة إلى نية الرحيل.

أخبرت مرسيل عائلتها أن والد غمالو طلب منها ألا تخبر أحداً، لأن الرحيل يجب أن يتم بصمت كي يكون ناجحاً كما كان يفعل موسى في ترحاله.

استدركت مرسيل فجأة أنها أخذت موقع الدفاع عن فعلة جيرانها، أو على الأقل التخفيف من استياء والديها، وبدت هي مستغربة من ردة فعلها لأن شعور الغضب تملكها منذ زيارة غمالو الأخيرة، فهي انتظرت اللحظة الأخيرة قبل الرحيل لتخبرها بنية العائلة. فالاثنتان كانتا تتبادلان الأسرار والأخبار، فكيف تستطيع أن تخفي خبراً من هذا النوع؟

سارعت مرسيل لطرح هذا التساؤل على عائلتها عندما شعرت أن العائلة التي غادرت سرّاً رغم العلاقة التي تربطها بعائلتها لا تستحق الدفاع عن فعلتها. وأبلغت والديها أنها لن تستطيع أن تقيم علاقة صداقة مع غمالو في حال عادت مع عائلتها. ابتسم والد مرسيل، ووضع يده على رأس ابنته، وقال إن غمالو لن تعود، فالرحيل كما تم يعني أن الوجهة هي إسرائيل أي إلى حيث لا عودة.

ثم نظر إلى زوجته وقال إن جاره كرر مؤخراً القول أمامه، وبكثير من الإحباط، إن أفق اليهود في لبنان بدء يضيق بفعل قرار تقسيم فلسطين وما تلاه وسبقه من حروب.

استعجل حنا تغيير الحديث لأنه يريد أن يخبر والده عن الاستعدادات لمباراة جديدة وودية مع نادي الأنترانيك، فقال إن والد غمالو سيتصل حتماً قريباً لكن تلك الجملة، وعوض أن تقفل الحديث، فتحت حديثاً من نوع آخر. حديث عن العائلات التي غادرت ولم تتصل وعن أخبار أولئك الذين

غادروا حتى الآن بالسر ومن دون إخطار أحد. واستعاد والد مرسيل مع زوجته تلك الأسماء. ولما انتهيا دعا طوني الشقيق الصغير لمرسيل والديه إلى استعراض من بقي من الأصدقاء من تلك الطائفة والاستعداد نفسياً لرحيلهم.

ضحك طوني بمفرده، ولم يتجاوب معه أحد من الحاضرين. ثم حاول كسر جدية الحديث بمزحة أخرى، وهي وعد للحاضرين بأن ينقل إليهم أخبار الرحيل أولاً بأول. متوقعاً أن يأتيهم قريباً بخبر انضمام نينا اليهودية صديقة والدته إلى لائحة المغادرين. ثم دخل إلى غرفة النوم وأتى بلائحته وأضاف اسمها.

كانت نينا قد أتت في صبيحة ذلك اليوم لزيارة العائلة بعد اختفاء دام أسابيع. لم يعرف أحد إلى أين ذهبت، ولماذا، لأنها لم تخبرهم. فهي كانت تأتي كل يوم إلى منزل عائلة مرسيل للزيارة، لكنها لم تقل إنها مجازة أو إنها مسافرة أو إنها ستغيب لفترة من الوقت.

ظنوا أنها رحلت كغيرها، لكنها عندما ظهرت من جديد أيقنوا أنها ليست من هذا النوع. فنينا حتماً لو قررت الرحيل لكانت أخبرتهم. إلا أن هذا الاستنتاج لم يلغ كل الأسئلة التي طرحها غيابها، فإلى أين ذهبت؟ ولماذا عادت؟ وأين هي والدتها التي اختفت معها ولم تظهر عندما عادت نينا لزيارات أهل الحي اليومية؟

لم تكن والدة مرسيل تحب طرح الأسئلة، لكنها هذه المرة قررت الاستفسار. وفي زيارتها المعتادة أعدت والدة مرسيل فنجان القهوة، ثم قدمت لضيفتها سيجارة بافرا الصنف الوطني المحبب لدى نينا. ولما سألتها عن سبب اختفائها، وعن والدتها، فوجئت أن نينا وبكل بساطة قالت لها: «أخذت والدتي إلى إسرائيل»... صمتت والدة مرسيل بانتظار التتمة، وبحركة سريعة رفعت بأصبعها نظارتها إلى المسافة الأقرب لعيونها، فقد

سبق أن تعرضت لحادث سير أفقدها إحدى عينيها، واضطرها إلى وضع نظارة ذات زجاج داكن لإخفاء عين الزجاج.

لم تنتظر نينا ردة فعل أو تعليقاً، وهي لم تنظر إلى جارتها أصلاً. رفعت فنجان القهوة، وضغطت بأصبعها على السيجارة للتخلص مما رمد من التبغ، ثم أكملت حديثها من دون تحفظ. أخبرتها عن الجمعيات التي تُعنى بكبار السن في إسرائيل، وكيف وجدت واحدة من أفضل ما يكون للاعتناء بوالدتها المسنة. أما هي فباقية في لبنان ولا تريد المغادرة.

لم تسترسل والدة مرسيل بطرح الأسئلة، وعندما أخبرت عائلتها عن نينا وما قالته لها، سألها ابنها طوني صاحب اللائحة الطويلة عن المغادرين، عما إذا كانت قد استفسرت عن أشقاء نينا وحقيقة أن أحدهم أصبح ضابطاً في الجيش الإسرائيلي. لكنها اكتفت بإخبار ابنها، وبكثير من التحفظ، أن نينا لم ترغب يوماً بالإجابة على أسئلة تتعلق بأشقائها، وتكتفي بالقول إنهم مسافرون. ونصحت ابنها بعدم الإكثار من هذه الأسئلة لأنه بذلك يعرض عائلته للخطر نتيجة العلاقة التي تربطهم بنينا وغيرها من اليهود، فالأمور تتطور بسرعة ولا أحد يعرف بأي اتجاه.

وبعد أشهر قليلة جاء طوني مجدداً بحزورة إلى مائدة العشاء، سائلاً عن الذي انضم إلى لائحة المغادرين. ولما لم يصب أي من الاحتمالات التي طرحت على الطاولة، أبلغهم أنها نينا.

دُهشت الأم وفتح الوالد عينيه. روى طوني ما لديه من معلومات. فقد باعت نينا المنزل بسرية فائقة وبهدوء تام. ولم يشعر جيرانها وأصدقاؤها إلا وبابها قد أقفل نهائياً، ولم يفتح إلا للمالك الجديد.

بقي حديث مغادرة الجيران والأصدقاء حديث مائدة عائلة مرسيل لعدة سنوات. أما حديث تدريبات نادي وادي أبو جميل لكرة القدم فقد تلاشى، لأن فريق مكابي لم يعد موجوداً بعد مغادرة أفراده وإقفال النادي،

ما أفقد فريق الوادي سبب وجوده.

احتفظت مرسيل بصورة غمالو. تزوجت وأخذتها مع مجموعة أخرى من الصور إلى منزلها الجديد.

كان منزل مرسيل في منطقة النهر قرب مرفأ بيروت صغيراً ومؤلفاً من غرفتين فقط، وعندما كبرت العائلة قررت الانتقال إلى منزل أكبر. وفي الحرب الأهلية ضُرب المنزل وانهار جزء من المبنى. فانتقلت مرسيل مع ما تبقى من أغراضها إلى منزل جديد، ومنه انتقلت إلى منزلين آخرين تباعاً. وبقيت صورة غمالو معها في كل ذلك الترحال.

باخرة الأربعاء

وقف عادل أمام شاطئ عين المريسة في بيروت يشير بأصبعه إلى عرض البحر، خلف برج الجامعة الأميركية في بيروت، ويقول بكثير من الثقة، إن زوارق ترفع العلم الأميركي كانت تقترب من تلك الجهة، لنقل يهود إلى باخرة كبيرة بعيدة نسبياً عن الشاطئ تتولى بدورها نقلهم إلى إسرائيل. وكان هؤلاء إما راحلين نهائياً وإما ذاهبين للاستطلاع بعدما بدت المنطقة بعيدة عن تحقيق استقرار قريب. وقد علت أصوات عدة في تلك الفترة من قبل تيارات يسارية وقومية تحذر من زيارات يقوم بها لبنانيون من الطائفة اليهودية أو يهود مقيمون في لبنان إلى إسرائيل، وتشير إلى نشاط لوكالات الهجرة اليهودية بين اللبنانيين، كما قال عادل.

عيشة التكتم التي التزم بها يهود لبنان وحركة ذهابهم وإيابهم بشكل سري ومن دون إخطار، عززت الشك والريبة، وساعدت في بروز قصص وروايات كثيرة عنهم منها قصة هذه الباخرة.

لكن عادل لا يكترث لأي تشكيك في روايته لأن «المكتب الثاني» وهو جهاز المخابرات اللبناني أقر بالأمر كما يقول..

فقد سبق له، وضمن مجموعة من اليسار القومي، أن التقى عناصر من المكتب الثاني لإبلاغهم عن باخرة الأربعاء علهم يوقفون «الاستباحة الأميركية للبنان ويضبطون الوضع».

لكن مفاجأة المجموعة كانت في ما قاله الأمنيون من أن الدولة اللبنانية

قررت الاكتفاء بالمراقبة والمتابعة فقط. والسبب هو وجود اتفاقية هدنة بين لبنان وإسرائيل وعدم رغبة لبنان بأن يتهم من قبل الغرب بأنه يمنع اليهود من الهجرة. فالأمر حسب تلك الجهات لا يتم بالتنسيق معها لكنه حتماً لا يتم من دون مراقبتها.

أخبر عادل تلك التفاصيل وابتسم ساخراً من تراخي الدولة اللبنانية، في تلك الفترة لأنها لم توقف الرحيل المباشر إلى إسرائيل ولم تدقق في ما كانت تفعله الوكالات اليهودية في لبنان.

كما أنها لم تفعل شيئاً إزاء المعلومات التي نقلتها المجموعة عن تدريب عسكري يخضع له شباب يهود في إسرائيل، وعودتهم إلى لبنان بعد ذلك. وهو يعتقد أن هؤلاء كانوا يؤدون الخدمة العسكرية عند بلوغهم السن، بالتنسيق بين مؤسسات وجمعيات على صلة بوكالة الهجرة التي كان نشاطها ظاهراً كما يقول، مستغرباً كيف أن المكتب الثاني رد على تلك الواقعة بالقول إنها محض خيال.

وسحب عادل من حقيبة يد كان يحملها مقالة كتبها أحد اليهود اللبنانيين، ونشرت في مواقع على شبكة الأنترنت تنسب إلى الرئيس اللبناني الراحل شارك حلو الذي تولى رئاسة الجمهورية بين العامين 1964 و1970، قوله لوفد يهودي زاره برئاسة د.عطية، رئيس مجلس الطائفة في تلك الفترة: «نعرف أن اليهود اللبنانيين يزورون إسرائيل التي ما زلنا بحالة حرب معها، ونحن نغض الطرف ولكن أرجو أن تبلغ أبناء الطائفة ألا يتندروا على الأرصفة بحكايات هذه الرحلات».

أكمل عادل انتقاء مقاطع من تلك المقالة، ومنها أن بيار الجميل مؤسس حزب الكتائب عندما كان وزيراً للداخلية بين عامي 1961 و1962 أعطى أوامره بتقليص منح جوازات سفر لليهود. وأبلغ سائليه عن السبب بالقول إن هذه الهجرة ستؤثر سلباً على الاقتصاد اللبناني.

لكن وفداً من أبناء الطائفة برئاسة رئيس مجلسها د.عطية زاره متمنياً عليه تخفيف القيود، والتراجع عن تلك الإجراءات.

استجاب بيار الجميل لطلب مجلس الطائفة لكنه تساءل أمام الوفد عن سبب تلك الهجرة الكثيفة «فالمسلمون والمسيحيون واليهود هم أكثر الطوائف التي تشعر أن لبنان وطنها لأنها تمارس حقوقها المدنية بشكل حقيقي ولأن أبناءها لا يشعرون أنهم غرباء».

أنهى قراءة تلك الجملة، وإن كانت خارج السياق الذي يريد من خلاله إقناع سامعيه أن الدولة تراخت في قضية هجرة اليهود ليشير إلى أن ما قاله الجميل يؤكد أن اليهود عاشوا في لبنان عيشة متساوية في الحقوق والواجبات مع الباقين.

وذكّر سامعيه أن اليهود انخرطوا أيضاً في الحياة العامة، وكان عدد كبير من ناخبيهم يصوت لمرشحي حزب الكتائب في بيروت ولا سيّما منهم أنطوان شادر الذي كان يحصد 1500 صوت من أصوات اليهود. وكان من يصوت من أبناء الطائفة اليهودية في العاصمة يعطي صوته لمرشحي الكتائب، وقليل منهم لمرشح الأقليات.

إلا أن عدداً قليلاً من اليهود دخلوا في الأحزاب اللبنانية مع بعض الاستثناءات. فحزب الكتائب ضم عدداً من هؤلاء إلا أن أحداً منهم لم يصل إلى منصب قيادي في الحزب. كما أن بعضهم كان عضواً في ما كان يسمى شرطة الكتائب التي كانت نواة الميليشيا التي خرجت إلى العلن في الحرب. وتذكر عادل ما قرأه في صحف بيروت منتصف الخمسينات عن توقيف يهودي كتائبي يدعى مواز كامحين بعد أن دهمت الشرطة منزله في وادي أبو جميل وضبطت عنده سلاحاً. ولم يبق مواز طويلاً في السجن بعد أن تدخلت الطائفة وأمنت خروجه.

كما كان لعادل صديق يدعى نينو بهار من يهود لبنان انتمى إلى كشافة

الكتائب، ثم انتدب إلى شرطة حماية مركز الحزب في الصيفي. لكن بهار عاد وغادر فجأة قبل الحرب الأهلية وهو يعتقد أنه من ضمن الذين أخذوا تحذير الوكالات اليهودية على محمل الجد بعد أحداث أيلول الأسود في الأردن مطلع السبعينات، وتدفق المقاتلين الفلسطينيين إلى لبنان.

عرف عادل مضمون التحذير من صديق يهودي آخر يدعى جاك كان يملك محلاً في الوادي.

يومها زاره عادل في محله الصغير في شارع فوش، حيث كان يبيع لوازم تجميل وتنظيف، من معجون أسنان ومعجون حلاقة للرجال وصابون وروائح خفيفة من نوع عماطوري و114 وغيرها.

جلس أمام محل صديقه الصغير كما كان يفعل بشكل شبه يومي تقريباً عند عودته من عمله. وكما في كل مرة، كان الحديث في السياسة يطغى على تلك الجلسات. أما جاك فكان، وكما هو حاله غالباً، مستمعاً أكثر منه مشاركاً. لكنه في تلك الجلسة بدا محبطاً وشكا تراجع وضعه لأن الحي فرغ ولم يعد البيع كما كان سابقاً. وأخبره أن مجموعة من الصبية أتت إلى شارع فوش وشتمت اليهود ورمت محالهم بالحجارة، وأن جيرانه التجار من المسلمين نهروهم وأبعدوهم.

انتظر جاك تعليقاً من صديقه لكنه لم يسمع منه سوى سؤال عن موعد رحيله. نفى جاك نيته هذه لكنه أسرّ لعادل أن معلومات أبلغت إلى من بقي من يهود لبنان مؤخراً، أن أحداثاً كبيرة ستحصل وأن عليهم أن يغادروا فوراً.

تمنى جاك على صديقه أن يبقى هذه المعلومة طيّ الكتمان وألا يبلغ أحداً بها لأن الدولة قد تتخذ خطوات تعقد إجراءات الرحيل. كما أن نشر أخبار كهذه قد يؤدي إلى انخفاض في أسعار العقارات ولا سيّما عندما يعرف الشاري أن صاحب المنزل يبيعه ليرحل.

و مع اقتراب السنة 1975 كان العدد الأكبر من يهود لبنان قد غادر.

حتى جاك الذي نفى نيته الرحيل عندما سأله عادل، كان هو نفسه قد بدأ استعداداته للمغادرة. فقد عرض محله للبيع بسرية تامة وبدأ بشحن عفشه بعد أن أرسل كل عائلته إلى إسرائيل وبقي وحيداً منتظراً إتمام بيع المحل.

عرف عادل أن جاك غادر عندما قصد محله عدة مرات كعادته بعد عودته من العمل ووجده مقفلاً، فأيقن أنه رحل.

وكغيره من أبناء وادي أبو جميل، لم يعد عادل يعرف شيئاً عن أصدقائه القدامى، ويجزم أن تطورات السنين اللاحقة أكدت شكوكه حول باخرة الأربعاء.

تلفزيون بيت حنان

حمل قميصاً انتهى للتو من تعليق أزراره، واتجه صوب لوح المكواة على الحائط الداخلي لمحله الصغير في أول الطريق الذي يربط شارع فرنسا بشارع وادي أبو جميل. وأخذ بتمليس القميص فرحاً بإنجاز خياطته ضمن الوقت الذي وعد جاره به. لكن صوت ديك ساعة الحائط في المحل وخروجه من علبته في النصف العلوي من تلك الساعة الخشبية، ليشير إلى بلوغ عقارب الساعة رأسها، قطع عليه عمله، فنظر باتجاهها بعد أن أنزل نظارته إلى منتصف الأنف ليتمكن من الرؤية من بعيد، ولما وجد أن الساعة بلغت الرابعة توقف عن العمل وأسرع في ترتيب المحل، ثم أنزل بابه الحديدي وغادر إلى منزله المقابل تماماً لمحله.

ومن على شرفة منزله ينظر إلى أعلى ويراقب الأفق مقابله. لم يكن منزله مطلاً على البحر لكنه كان ينظر إلى السماء للتأكد من الغروب، فلما رأى نجمات ثلاثاً دخل المنزل واستراح مطمئناً إلى التزامه وقف العمل مع دخول ما يعرف بالشاباط الذي يبدأ غروب الجمعة ويستمر أربعاً وعشرين ساعة. ولما قرع بابه وجاء جاره يسأله عن قميصه، اعتذر منه لأنه لم يستطع إكماله بعد أن داهمه الوقت، ووعده بتسليمه إياه الأحد بعد انتهاء السبت اليهودي.

وأمام إصرار الجار على إنجازه قبل الأحد لأن المناسبة التي خاطه من أجلها كانت في نفس اليوم، دعاه للدخول وحاول أن يشرح له أهمية المناسبة

بالنسبة لليهود.

فهي دعوة مقدسة من الرب للاستراحة في اليوم السابع كما فعل تماماً عندما أكمل الخلق، فخلق الجنة واليابسة والبحر في ستة أيام وقرر أن يستريح في اليوم السابع.

وأمام رجاء جاره بكسر هذا التقليد ولو لمرة واحدة لأن صدر الرب واسع ورحب، وهو بالتالي يمكن أن يغفر تفاصيل صغيرة من هذا النوع كما قال له، وقف موسى وجاءه بالوصايا العشر وقرأ له منها تلك المتعلقة بالشاباط: «تذكر الشاباط وأبقه مقدساً. سوف تعمل لستة أيام وتكمل كل أعمالك في خلالها ولكن اليوم السابع هو لربك. في هذا اليوم لن تقوم بأي عمل ففي ستة أيام خلق الرب الجنة والأرض والبحر وكل ما فيهم لكنه في اليوم السابع استراح لذلك بارك الرب الشاباط وجعله مقدساً».

أنهى موسى تلك التلاوة، وقبّل الصفحات التي قرأ مقاطع منها للتو ثم أغلق الكتاب ونظر إلى جاره مكرراً الاعتذار، منهياً الحديث حول هذا الموضوع.

رفع الجار يديه في حركة تشير إلى عجزه في تغيير الموقف وأسفه لذلك. حيّا العائلة وغادر بعد أن واكبه موسى إلى الباب مكرراً الوعد بتسليم القميص الأحد. بعدها عاد موسى إلى غرفة الجلوس واستعاد تلك الوصايا وكرر قراءتها على مسامع أولاده دافيد وسارة وحنان، ولما شعر أنه فقد اهتمامهم مع وصول طوني صديق ابنه، سمح لهم بتشغيل جهاز التلفاز الذي وضع في صدر الغرفة، في مكان يعطي هذه القطعة الخشبية مكانتها.

فقد كان موسى الوحيد في الحي تقريباً الذي يملك شاشة صغيرة. وقد اشتراها لأولاده من محل للأدوات الكهربائية في وادي أبو جميل يملكه يهودي من آل لحام. كان هذا الجهاز من نوع تلفونكن، أشبه بصندوق خشبي جميل له درفتان تفتحان على شاشة مستطيلة نائتة من النصف رمادية

اللون، وضعت على يمينها أزرار معدنية فضية اللون للتشغيل..

عندما علم بوصول هذه الأجهزة الحديثة الصنع نهاية الخمسينات إلى لبنان سارع لشراء واحد منها على الرغم من ثمنها الغالي، لأنه يريد أن يتابع أبناؤه برامج باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية كي يتمكنوا منها إلى جانب دراستهم للغة العبرية على يد الحاخام إلياهو خابيه الذي كان مشرفاً على دروس العبرية الإلزامية في مدرسة الأليانس.. وأكثر ما أثار حماسته لاقتناء الشاشة الصغيرة قرار الدولة اللبنانية الذي يلزم المحطة التي منحت ترخيصاً ببث برامج منوعة وباللغات الثلاث.

زيارات طوني إلى منزل آل حنان لمشاهدة التلفزيون كانت شبه يومية، فهو صديق ديفيد وجاره. وقد بدأت العلاقة بينهما بعد إشكال بين العائلتين تسبب به سمير شقيق طوني الأصغر. كان سمير في غاية الشقاوة معروفاً بالحي على أنه غالباً ما ينهي اللعب مع جيرانه بمشكلة.

وفي إحدى المرات، بينما كان يلعب مع دافيد في أرض بور قرب المنزل، نزع منه الكرة بعنف فتعاركا بالأيدي بداية ثم عمد سمير إلى ضربه بحجر على رأسه. ركض دافيد إلى محل أبيه والدم قد غطى وجهه وهو يصرخ ويبكي. ارتعب الوالد لمنظر الدم وحمل ابنه الى مستشفى السان تيريز القريب حيث عولج بسبع قطب. ومن شدة غيظه اخذ ابنه إلى مخفر الدرك في وادي أبو جميل وتقدم بشكوى إذ كان مغتاظاً ويريد أن يلقن الولد درساً لا يُنسى. أخبر الدرك في المخفر ما جرى وهو يمسك بيد ابنه الشاحب الوجه والمعصوب الرأس، وكرر القول إن فتى بهذه الشراسة يمكن أن يتسبب بمصيبة في الحي.

استجاب مخفر الدرك في الوادي لطلب موسى، وزار عدد من عناصره منزل سمير وأبلغوا أهله بمضمون الشكوى التي سطّرت للتو، ودعوهم للانتباه لسلوك ابنهم لأنه خطر ومؤذ.

وما إن غادر الدرك المنزل حتى انهال والد سمير عليه بالضرب، وقرر زيارة آل حنان للاعتذار فهو أحد وجهاء الحي ودخول الدرك منزله أمر يمس بكرامته. وأبلغ ابنه أنه يسامحه على هذه الإهانة ولن يسمح له بتكرارها.

قبل آل حنان الاعتذار، وتأسفوا بدورهم لأنهم اضطروا إلى تقديم الشكوى في المخفر، لأن ولدهم كاد أن يقتل. ثم وعدت عائلة حنان بتلبية دعوة والد سمير لزيارتهم في القريب.

تبادلت العائلتان بعد ذلك الزيارات. وتحولت خبرية رمي الحجر إلى طرفة. كما تحولت علاقة الجيرة إلى صداقة سمحت لطوني أن يواصل زيارة آل حنان لمتابعة حركة الشاشة الصغيرة.

وبات طوني يتولى كل يوم سبت إضرام النار تحت موقدة الطبخ في منزل آل حنان. فطقوس الشاباط تقتضي عدم إضرام النيران من ساعة الغروب يوم الجمعة حتى غروب اليوم التالي، أي طيلة ساعات الشاباط.

كان آل حنان ينادون طوني عندما يريدون إطفاء النار وليس فقط إضرامها. فبين الغروبين لا تُضرم النار ولا تُطفأ. لكن إشعالها قبل حلول الغروب مسموح. وهو ما دفع الصناعيين من الطائفة اليهودية إلى تصميم موقدة على الكاز ذات شعلة خافتة بحيث يوضع الأكل عليها قبل بدء الشاباط فلا ينضج إلا في اليوم التالي.

لكن آل حنان كانوا يفضلون إعداد الطعام في اليوم نفسه، حتى بات لطوني موعد ثابت عندهم يوم السبت لإطفاء النيران أو إضرامها. أما عندما لا يكون في الحي فقد كان يكلف أحداً من أصدقائه القيام بهذه المهمة بدلا منه، ما عدا شقيقه سمير لأن فيتو آل حنان لم يرفع عنه بعد.

استمر تكليف طوني بهذه المهمة سنوات. وباتت زيارته لآل حنان تتم في موعد نشرات الأخبار بعد أن أصبح مولعاً بالسياسة وشؤونها، وبعد أن

بات أقرب إلى أطروحات حزب الكتائب ذي النفوذ القوي في وادي أبو جميل، لما لبيار الجميل من شعبية واسعة بين أبناء الطائفة المسيحية وكذلك بين أبناء الطائفة اليهودية، مع العلم أن أحداً في عائلة آل حنان لا يشاطره الحديث في هذه المواضيع، ولا سيّما منهم ديفيد، فهو في الأصل متحفظ وقليل الكلام.

وعندما يلتقيان بحضور شلة الأصدقاء لم يكن كثير المشاركة في النقاش، بخلاف صديقهما الأقرب سليم الذي كان متابعاً من الطراز الأول لكل التطورات اللبنانية وتلك التي تشهدها المنطقة في تلك الفترة، من دون أن يميل لأي طرف أو أن يناصر أيّ حزب، فهو يعتبر أنه ممثل بنائب الأقليات في بيروت.

لم تكن لقاءات سليم وطوني بكثافة لقاءات طوني ودافيد لأن سليم، وهو يهودي أيضاً، كان يعمل في يوم العطلة، ليس لحاجة مادية، فأهله من ميسوري الحال، إنما بهدف تأمين مصروفه الشخصي والتدرب على التجارة التي يريد امتهانها.

ما كان يبيعه سليم اقتصر على الأشياء الخفيفة مثل الأقلام والخيطان والإبر، وهي أشياء لا تتلف، فإذا لم يجر تصريفها في يوم واحد تبقى ليوم العطلة المقبل، وبالتالي ليس في تلك التجارة خسارة.

كان يضع بضاعته في صندوق مكشوف، ويعلقه حول عنقه بعد وصل طرفيه بحبل غليظ يسمح طوله برفع الصندوق إلى مستوى رأس المعدة ما يسهل عليه عرض ما بداخله.

وقد بات له زبائنه ينادي عليهم عندما يقترب من منزلهم أو من تحت الشرفات. وعندما ينتهي من بيع ما يحمل من بضاعة، أو عندما يمل، كان يقصد طوني لأنه هو الآخر مولع بالسياسة ويحب جلسات صديقه المتابع. فالأوضاع السياسية في لبنان تطورت بشكل دراماتيكي، والانقسام

الذي شهده لبنان عام 1958، إثر بروز ميل رئيس الجمهورية كميل شمعون لتجديد ولايته، أثار المخاوف. وبدا سليم قلقاً بعد اغتيال الصحافي نسيب المتني صاحب جريدة **التلغراف** اليومية المعروفة بمعارضتها لسياسة كميل شمعون.

كما أبدى خوفه الشديد من التطورات بعد الاشتباكات التي وقعت في منطقة الجميزة قريباً من وادي أبو جميل، بعدها الاحتكاكات التي سجلت خلال ثورة الـ1958، وما تخللها من خطف على الهوية وأعمال عنف. ولقد قال لطوني إن تلك الأحداث، وإن كانت قد انتهت بمصالحة تحت شعار لا غالب ولا مغلوب، إلا أنها دلت على هشاشة التركيبة اللبنانية.

لم تمض أشهر قليلة حتى أبلغه سليم أنه مسافر إلى فرنسا لمتابعة دورة في اللغة الفرنسية. فوجئ طوني بقرار صديقه وظن أنه راحل إلى إسرائيل كغيره من أبناء الطائفة، لكنه نفى بشدة وأكد له أنه ينوي التخصص في فرنسا.

غاب سليم ستة أشهر، وعاد ليواجه صديقه بشكوكه حول ذهابه إلى إسرائيل. لكن ظنون طوني لم تبددها عودة صديقه.

فقد كان الاعتقاد السائد بين أبناء وادي أبو جميل أن بعض العائلات اليهودية كان يرسل أولاده للتدرب في الجيش الإسرائيلي في إطار إجراءات الهجرة وترتيباتها.

بقي سليم في لبنان بعد عودته من فرنسا ودخل إلى الجامعة الأميركية في بيروت، حيث درس المحاماة بعد أن صرف النظر عن التجارة.

لكن جوّ التوتر المتصاعد بعد حرب 1967 مع إعلان إسرائيل تعليق اتفاقية الهدنة مع لبنان، أثار قلق الكثير من أبناء الطائفة اليهودية. كان طوني وسليم في منزل الأخير عندما قرأ في جريدة **النهار** اللبنانية هذا الخبر. بدا

سليم خائفاً لأن كل ما يجري يشير إلى أن الأمور تتجه نحو الأسوأ رغم أن لبنان لم يشارك في تلك الحرب، واقتصرت على مشاركة مصر والأردن وسوريا.

نشرت **النهار** يومها سؤالاً وجهه رئيس الحكومة الإسرائيلية في السابع من حزيران سنة 1967 إلى السلطات اللبنانية بواسطة لجنة الهدنة اللبنانية الإسرائيلية المشتركة عمّا ما إذا كان لبنان يتمسك باتفاقية الهدنة التي وقعها البلدان عام 1949.

قرأ طوني هذا الخبر بصوت عال كي يسمعه سليم، وفيه أيضاً أن الرسالة جاءت بعد سقوط طائرة حربية إسرائيلية في الأراضي السورية وسقوط طيارها في الأراضي اللبنانية.

حلل طوني وسليم هذا التطور تحليلاً عميقاً ولا سيّما الرد اللبناني الذي تضمن تأكيداً على التمسك بالاتفاقية وهو ما اعتبره طوني بأنه يحمل شيئاً من التطمين.

لكن خبر الأيام التالية بدد جو الاطمئنان لأن إسرائيل عادت وأبلغت الأمم المتحدة ببطلان اتفاقيات الهدنة الموقعة مع الدول العربية من طرف واحد، ثم توقفت عن حضور اجتماعات لجنة مراقبة الهدنة اللبنانية الإسرائيلية.

لم يبد طوني ارتياحاً لهذا التطور كما أبدى قلقاً من تدفق اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان. وأخبر صديقه سليم أن اجتماع كادرات حزب الكتائب الذي حضره للتو ينظر إلى تلك التطورات بخوف شديد لأن هذا الوجود سوف يؤثر على الاستقرار ويزعزع سلطة الدولة ومقوماتها.

لم تكن خلفيات خوف طوني هي نفسها خلفيات خوف سليم الذي اعتبر أن هذا التدفق والتعاطف المتزايد مع الفلسطينيين سيؤدي حتماً إلى

تزايد حالة العداء لليهود ولا سيّما بعد أن انطلقت تظاهرة احتجاجية باتجاه الوادي، حيث هتف المتظاهرون ضد اليهود.

لم تمض أسابيع قليلة حتى جاء سليم وأخبر طوني قراره الرحيل النهائي إلى أوروبا، واعداً بالبقاء على تواصل، بخلاف صديقهما المتحفظ دافيد الذي اكتشفا غيابه بعد فترة من رحيله الصامت.

كانت عائلة آل حنان قد بقيت في لبنان كل تلك الفترة. لكن دافيد اختفى قبل سنوات.

لم يعد طوني يذكر متى رحل دافيد لأنه انقطع عن زيارات الليل لآل حنان بعد أن اشترى تلفزيوناً صغيراً، وبات يتابع الأخبار من منزله. ولما حاول الاستفسار قيل له إنه ذهب للدراسة في الولايات المتحدة. لكن عائلة آل حنان نفسها عادت واختفت في ظل أجواء ما بعد حرب 1967. أقفلت المنزل وغادرت، وهو أدرك ذلك بعد أن توقفت أم دافيد عن مناداته لإضرام النار أو إطفائها وهي خدمة واظب على القيام بها، لكن عدد طالبيها تراجع إلى حد كبير. فبعد أن كانت عائلات عدة تتكل عليه لإتمام هذه المهمة في يوم الشاباط، لم تعد سوى تيري وماري تطلبان منه ذلك.

كانت تيري معروفة في الحي، فهي تلحق بائع الكاز لجمع براز البغل لوضعه على مزروعاتها والشتول في حديقة بيتها الصغيرة «لأن زبل البغل من التبن وهو الأفضل كسماد بخلاف العلف الآخر الذي يجر البعوض والروائح» كما كانت تقول.

تعرف تيري بقدوم بائع الكاز من الصوت الذي يطلقه بوق صغير، ومن مناداته، كما يفعل البائعون عادة في خلال تجوالهم في شوارع وادي أبو جميل الضيقة.

بعد سنوات قليلة على الرحيل الكثيف لليهود، مباشرة بعد حرب

1967، اختفت تيري وماري. وقد أيقن الجيران ذلك عندما باتت زيارات
بائع الكاز تتم من دون ظهور تيري في الشارع خلفه. ومع رحيل الأختين
لم يعد لطوني أية مهمة خلال ساعات الشاباط، حتى بات يحصي المغادرين
هو وأصدقاؤه في الحي، من خلال تعداد من توقف عن الاستعانة بأولاد
الجيران لإضرام النار أو إطفائها أو لإضاءة الكهرباء وإطفائها لأنها كانت
محرمة أيضاً.

بقي طوني على اتصال بصديقه سليم فترة بعد رحيله، وقد أبلغه في
آخر اتصال بينهما أن الأمن العام داهم منزل صديقتيه أستير وأليغرا بعد
أن تصاعدت الإشاعات في الحي أن من بقي من يهود لبنان يتصل بأقربائه
في إسرائيل، وأن من يختفي يزور إسرائيل لترتيب الرحيل.

قيل في الحي يومها إن هذه المداهمة تمت بعد وشاية من أحد الجيران على
خلفية خلاف شخصي، وليس على خلفيات أمنية. أما الخلاف الشخصي
فغالباً ما كان يتعلق ببدل الإيجار أو الرغبة بإخلاء المأجور. لكن أستير
وأليغرا كانتا قد غادرتا حين جاء الأمن العام وكان المنزل فارغاً.

لم يعد طوني يعرف شيئاً عن أصدقاء الطفولة والشباب. ولم يبق بين
يديه أي شيء، لا صورة ولا رسالة ولا أي ذكرى عن هؤلاء. فقد تزوج
وسكن وادي أبو جميل فترة قصيرة قبل أن تهجّره الحرب من منزله.

تمكن من نقل بعض أغراضه، لكنه ترك خلفه الكثير إذ غادر على عجل
هرباً من القصف والقنص بعد أن تحول وادي أبو جميل إلى خط تماس.
ومن بين الأغراض التى نقلها، ثلاثة مجلدات لمذكرات كتبها شخص من
آل لنيادو من يهود لبنان. وجدها مرمية أرضاً، يعرضها للبيع أشخاص
سرقوا البيوت الفارغة خلال الحرب وعرضوا مقتنياتها للبيع على الأرصفة
في محيط وادي أبو جميل. أما البيوت التي سُرقت وأحرقت فهي ليهود ولغير
يهود ممن اضطروا إلى مغادرة المنطقة على عجل ظناً منهم أن الهدوء سيعود

سريعاً وأنهم سيعودون إلى منازلهم.

المجلدات التي اشتراها طوني، ظناً منه أنها كتب تاريخ قديمة أو كتب
دينية قديمة كما يوحي بذلك غلافها الخارجي، تعود لسنوات غير متتالية،
بما يشير إلى أن السلسلة غير كاملة. كما أن بين أوراقها مراسلات عائلية
وضعت من قبل الكاتب داخلها.

بقيت تلك المجلدات في منزل طوني عقوداً، وعندما تطورت الاتصالات
والشبكات الإلكترونية، حاول أن يضع اسم كاتب تلك المذكرات على
شبكة غوغل. لكنه لم يجد شيئاً. ثم غير سياق بحثه ووضع جملة «يهود
لبنان». فظهرت على الشاشة عناوين عدة بينها مقالة عن يهود لبنان ورد
فيها اسم ديزيريه لانيادو على أنه كان ينظم ندوات سياسية في مدرسة
الأليانس كل يوم خميس بمشاركة مثقفين ومحللين من كل الاتجاهات، لكنه
لم يجد أي عنوان.

وقبل أن يكمل سرده لمحاولات البحث عن الشخص المذكور، نهض
طوني من كرسيه واتجه إلى مكتبة وضعت في إحدى زوايا غرفة الجلوس في
منزله في منطقة كسروان الجبلية ذات الأغلبية المسيحية، وأتى بالمجلدات
الثلاثة التي ما تزال رائحة الورق القديم تتصاعد منها عند فتحها.

بقي واقفاً منتظراً انتهاء زائره من تصفحها. ثم استعادها ووضعها أمامه
على الطاولة المستديرة في غرفة الجلوس، مستعيداً ذكريات تلك الفوضى
التي سادت في الوادي مع اندلاع الحرب وخلو المنطقة من سكانها بعد
استباحة المسلحين لها.

توقف طوني عن الكلام عن ماضيه عند هذا الحد لأن الحاضر يشغله.
فالأوضاع في لبنان بعد انتهاء الحرب لم تكن أحسن حالاً. وهو لم يكن
يتصور يوماً أنه سيكون شاهداً على حروب متتالية بين الطوائف كتلك
التي شهدها لبنان. وتحول حديث طوني عن رحيل اليهود إلى الحديث

عن رحيل اللبنانيين طلباً للاستقرار، وهرباً من الحروب المتعددة الأسباب والخلفيات. وتذكر كيف حاول إقناع صديقه سليم بالبقاء وعدم الرحيل لأن الأزمة موقتة ولأن الأمور ستهدأ حتماً، بينما دفع هو بأبنائه جميعاً خلال السنوات الماضية إلى الهجرة من لبنان.

خليل الصقّال

انتظرته كي يعود من مغسله لإبلاغه قرارها النهائي.

جلست على كرسي إلى جانب نافذة تطل على شارع المزرعة، كما تفعل في أكثر أوقات النهار لمتابعة حركة الشارع قتلاً للوقت. فخليل ابنها يزورها في مثل هذا الوقت كل يوم لتفقدها قبل أن يعود إلى منزله للعشاء. وهو يكاد يكون طارق بابها الوحيد. ولما لمحته في آخر الشارع توترت قليلاً، لكنها بدت مصرة على المضي في قرارها.

وقفت أمام المرآة في مدخل المنزل تنتظره، وتنظر إلى نفسها كأنها تستعد للمنازلة الكبرى. ولما وصل فتح الباب بنفسه كما يفعل كل يوم، قبل يدها وسألها عن سبب انتظارها في المدخل، ومن دون أن ينتظر الجواب دخل إلى غرفة الجلوس واستراح على كرسيه، وهو الكرسي الذي وضعته على الجهة الأخرى للنافذة مقابل مكان جلوسها المفضل. أما هي فتوجهت إلى المطبخ لتحضير القهوة.

رافق خليل أمه بعينيه وقد بدت له في ذلك اليوم منحنية الظهر قليلاً وأكثر شيباً من ذي قبل. ولفته أن تجاعيد وجهها كانت أكثر بروزاً. لكنه سرعان ما أزاح نظره عنها، وسرح باتجاه الشارع المقابل، مستغرباً هذا التدقيق في التغييرات التى طرأت على جسد أمه ووجهها. وقد زارها في مثل هذا الوقت أمس ولم يكن الأمر مثار انتباه عنده، فمن الطبيعي لامرأة في العقد السابع أن يكون وجهها كما هو وجه أمه وجسدها كجسدها. ثم

التفت إليها فوجدها أمامه وقد أحضرت القهوة.

أمسك الركوة وبدأ يسكب القهوة ثم سألها عن جديدها وأحوالها، لكنها ومن دون مقدمات قالت له إنها لم تعد تطيق العيش في لبنان، وهي لا تريد أن تموت هنا. لم يفهم ما قصدته فسألها عما إذا كانت ترغب أن تعيش معه ؟

ولما تمهلت في الإجابة، ظن أن هذه هي رغبتها، فقال إن «شعراً نبت» على لسانه وهو يتمنى عليها ذلك، فهي تعرف كم تحبها زوجته مي وكم يحب الأولاد محضرها.

نظر إليها منتظراً تعليقها لكنها لم تفعل. كانت تنظر إلى كفيها المتشابكين بعد أن استدارت في مقعدها إلى عكس الجهة التي ينظر إليها ابنها، ثم مدت يدها إلى شال رمته على كتفيها فحاولت ترتيبه وقالت وهي تشد طرفه في حركة متكررة لا إرادية من دون أن تنجح بعد أن استهلك صدرها كل طوله: «أريد أن أموت في إسرائيل، كلهم رحلوا إلا أنت. وأنا لا أفعل شيئاً هنا سوى أنني أنتظر زيارتك... بينما أشقائي وإخوتي وأولادي الآخرون كلهم أصبحوا خارج لبنان بين إسرائيل ونيويورك».

نظر إليها من دون أن يعلق، وساد الصمت المكان. وعندما أنهى قهوته نظر إليها وقال إنه يريد أن يموت هنا، ولا يريد أن يغادر، وهو ليس على استعداد ليبدأ حياته من جديد.

ولما شعر بمدى حزنها من قراره، حاول إقناعها بالقول إن عمله جيد جداً في لبنان والمصبغة في أحسن حال والأولاد مرتاحون وزوجته كذلك، وإن شيئاً لا ينغص حياته سوى هذا الفراق المتكرر شهراً بعد شهر لأشقائه وأقربائه والأصدقاء.

وأمام إصرارها وعدها بإتمام كل معاملات رحيلها إذا رغبت فعلاً بذلك.

أجرى خليل اتصالاته بحاخام الكنيس، ثم زاره وتم كامل المعاملات. ولم يمض شهران حتى غادرت أمه إلى إسرائيل عن طريق قبرص.

كان يوم مغادرتها فظيعاً على ابنها والأحفاد، لكنها كانت واثقة أنه سيلحق بها قريباً وهذا على الأقل ما تمنت عليه فعله. أما هو وللتخفيف عنها، فقد وعدها بإعادة النظر بقراره الرافض.

كانت والدة خليل قد باعت كل مقتنيات منزلها قبل مغادرتها بعدة أيام وباتت عند ابنها ومن هنالك تابعت كل مجريات شحن ما أرادت شحنه من أغراض.

وفي يوم الرحيل أوصلها إلى مرفأ بيروت وبقي واقفاً ينظر إليها تصعد السلم الخشبي للسفينة التي أقلتها وعدداً لا بأس به من أتباع دينها إلى قبرص. وبقي واقفاً يؤشر لها بيده إلى أن تحرك المركب وابتعدت في عرض البحر ثم اختفت.

أدار محرك سيارته وبقي فيها لدقائق يستجمع قواه بعد أن أدرك أنه ربما ودع أمه للمرة الأخيرة، وشعر بألم في حلقه لا يفرجه سوى البكاء، ففعل. ثم تنفس نفساً عميقاً ومسح دموعه بكمّ قميصه ثم غادر المرفأ إلى مغسله في منطقة الطريق الجديدة، والذي كان واحداً من أهم مغاسل العاصمة. وهناك وجد صديقه البيروتي نديم مسؤول الأمن عند رئيس الحكومة في تلك الفترة منتظراً. روى له قصته مع أمه بكل تفاصيل ما قبل الرحيل وأثناءه. وأخبره كم حاول إقناعها بألا ترحل إذ لا شيء يدعو للقلق. ولما انتهى أخبره صديقه أنه أتى لإعلامه أنه مسافر مع رئيس الحكومة إلى نيويورك، وأنه على استعداد أن يحمل له ما يريد لشقيقه هناك إذا رغب بإرسال شيء له. فنديم من القريبين من خليل ويعرف أن لديه شقيقاً هاجر باكراً إلى نيويورك حيث أسس شركة تطورت وباتت من أهم الشركات الأميركية.

أعطاه خليل عنوان مكتب شقيقه جِمي، وتمنى عليه لقاءه لنقل السلام، ففعل.

ولما عاد لبى دعوة خليل للعشاء في منزله وهو غالباً لا يفوت دعواته لأنه ينهي السهرة دائماً بالغناء لأم كلثوم وأسمهان، فيتحول العشاء إلى جلسة طرب على أنغام صوت خليل الرائع..

لم تمضِ سنوات قليلة على رحيل والدته حتى فارق خليل الحياة. وعندما توفي كانت غالبية اليهود قد رحلت ولم يبق من أقاربه إلا القليل القليل، بحيث لم يشارك في جنازته إلا عدد محدود بينهم أصدقاؤه من أبناء بيروت. توجه الجميع بداية إلى منزله في وادي أبو جميل ثم إلى مقبرة اليهود في السوديكو.

كان الحاخام لا يزال موجوداً. وقد وضع قلنسوة سوداء قاتمة على رأسه.

تمت الجنازة بسرعة كبيرة. نزل أفراد الأسرة من السيارة قرب المقبرة وساروا مسرعين، ركضوا حاملين خليل على أكتفاهم، دخلوا المقبرة وخرجوا منها بسرعة فائقة أيضاً.

أنهى الحاخام المراسم، صلى على الجثمان بالعبرية وغادر. ثم خرج الجميع وأقفل الباب الحديدي بقفل غليظ أحكم الطوق على طرفي جنزير حديدي عريض.

تم الدفن ليلاً، فقد توفي خليل بعد الظهر ولم يحبّذ أهله الانتظار لليوم التالي. وعندما سأل نديم عن أسباب الإسراع في المراسم، قال له أحد أقارب خليل إن السرعة هي لعدم السماح بالشماتة من قبل النصارى والدروز والإسلام باليهود لفقدهم فرداً منهم.

تعجب نديم لهذا القول، وحاول أن يفسره استناداً إلى خلفية دينية ليفهم لماذا لا يرغبون في أن يشاهد أحد جنازة يهودي، فاستعاد ما قرأه في كتبهم

من أن اليهود هم شعب الله المختار، فاليهودي هو الإنسان وبقية أبناء الأمم هم «غوييم» أي روح حيوانات بجسم بني آدم. لكنه ما لبث أن استبعد هذه الفرضية لأنها قديمة وبالية لا يمكن بالتالي لا لخليل ولا لمحيطه أن يقتنع بها. ثم طرح فرضية ثانية وثالثة ورابعة تستند إلى بعض قراءاته، منها أنهم كأقلية عندما يموت أحد منهم يشعرون وكأنهم أصيبوا بنكسة لأن اليهودي بالنسبة لهم عزيز، فهو إنسان كامل، خليفة الله في أرضه. هذه الفرضية أيضاً استبعدها نديم لأن مراسم دفن اليهود شبيهة بمراسم الدفن عند المسلمين لأنهم يغسلون الميت ويكفنونه ثم يضعونه على أكتافهم قبل أن ينقلوه إلى التراب.

وبوصوله إلى منزل صديقه للتعزية، صدم بأفراد من عائلته يمزقون ثيابه. ولما سأل عن السبب قيل له إن ذلك تقليد يرمز إلى الحؤول دون أخذه أحداً معه إلى مثواه الأخير.

كان نديم قد سمع أن هذا التقليد القديم جداً يرمز إلى التمني بأن تكون هذه الوفاة خاتمة أحزان العائلة. كما لاحظ أن بعض ثياب أهله كانت هي الأخرى ممزقة لجهة القلب. وعرف في ما بعد لما سأل أحد أقرباء صديقه، أن أهل المتوفى عند اليهود يمزقون ثيابهم في أثناء الدفن أو بعده مباشرة، غالباً لجهة القلب، تعبيراً عن الألم والجرح الذي سببته تلك الوفاة. لكن تمزيق الثياب لا يجب أن يؤدي إلى إظهار أي جزء من الجسد. وأسهب المجيب في الشرح لنديم عن هذا التقليد بالقول إنه يهدف إلى التشبه بيعقوب عندما مزق ثوبه، تعبيراً عن الحزن والأسى بعد أن أبلغه أولاده بوفاة يوسف عندما باعوه كعبد.

بقي نديم للحظات ينظر إلى الشخص الجالس قربه بعد أن توقف عن الكلام وأخذ يقرأ التوراة. ولم يستطع بالتالي أن يستوضحه صحة ما سمعه عن أن أهل الفقيد يواظبون على أكل البيض المسلوق في فترة الحداد.

ورغب لو فتح له جليسه المجال ليسأله عن الرابط بين هذا التقليد، إذا كان صحيحاً، والقول الشائع قديماً إن « البيض غيظ» ؟ لكنه لم يستطع التأكد لا من صحة ما سمع ولا من استنتاجه.

تواصلت مظاهر الحداد في منزل خليل سبعة أيام بعد وفاته، لم يستحم خلالها أي من أفراد عائلته، ولم يلبسوا الأحذية الجلدية. وأرخى الذكور منهم لحاهم طيلة فترة الحداد، كما علقوا شارات سوداً على المرايا في المنزل طيلة الأيام السبعة التي يبدأ احتسابها من لحظة عودتهم إلى المنزل بعد الدفن.

يومها عادوا قبل غروب الشمس، فاحتسب لذلك يوم الدفن من ضمن الأيام السبعة وإلا لكان بطل احتسابه وعدت تلك الأيام من شروق اليوم التالي لأن الغروب يبطل هذا الاحتساب.

بعد وفاته بيعت مصبغة خليل، وغادر أولاده لبنان للدراسة ثم بدأوا حياتهم المهنية حيث انتقلوا. وقد مر نديم بعد فترة فوجد اسم المصبغة قد تغير بعد أن تحول محلاً لبيع الدجاج المشوي. فاليافطة التي تحمل اسم «مصبغة الصقال» نزعت وأبدلت بأخرى كتب عليها «دجاج أبو وليد».

كانت يافطة الصقال من أجمل وأرتب اليافطات في تلك الفترة. فقد خطها له إسحق حديد وهو خطاط معروف إلى جانب كونه أحد الحاخامين اليهود في بيروت.

كان حديد يكتب كل اليافطات التي ترفع في الاحتفالات والمناسبات اليهودية الخاصة والعامة، وباللغتين العربية والعبرية أحياناً. وقد ذاع صيته أبعد من حدود الوادي. حتى باتت يافطات بعض الجمعيات الإسلامية تُخط من قبله كما كانت المدارس المسيحية في الوادي تعتمد عليه.

ويعتقد نديم أن حديد هو من كتب لفافة التوراة التي احتفظ بها صديقه خليل في صندوق خشبي منحوت نحتاً دقيقاً ومزخرفاً في مكتبه في المصبغة.

وكانت تلك اللفائف ذات قيمة عالية لأنها تتطلب مهارة ودراية بتعليمات وقواعد محددة لعدم الخروج عن النص وجماله. كما أن رسم الأكاليل على بعض الأحرف في تلك اللفائف يتطلب احترافاً كبيراً كما هو حال تكبير بعض الحروف لتمييزها عن الحروف العادية.

وقف نديم دقائق يتابع حركة محل الدجاج الجديد، مسترجعاً لقاءاته الطويلة والمتكررة في هذا المكان مع صديقه خليل. واستعاد شريطاً حافلاً بالأحداث الجميلة ولقاءات السمر. ثم وضع يديه خلف ظهره، وأكمل سيره في نزهة يقوم بها يومياً لقتل الوقت منذ أن بلغ سن التقاعد.

الكوميسير إليا بصل

وقف بقامته الطويلة على زاوية في الجهة المقابلة لكنيس بيروت، وطلب من عناصر فرقته الانتشار في شارع الوادي صعوداً حتى الطريق الفاصل عن منطقة القنطاري حيث القصر الجمهوري[12].

وضع قبعته العسكرية، وعليها ورق غار مذهب كما حال قبعات الضباط في الدرك، ثم أنزلها قليلاً كي يخفف وهج الضوء عن عينيه، ورفع رأسه قليلاً ليصبح شارع وادي أبو جميل، الذي يرتفع تدريجياً كلما اقترب من شارع القنطاري، ضمن دائرة نظره. وإلى جانبه وقف الملازم عيفاني وقد أمسك بيده اليسرى عصاً، وضعها تحت إبطه، ولف كفه بقفازيه الأبيضين على رأس العصا الدائري، تاركاً يده اليمنى جاهزة لإلقاء التحية العسكرية عند تبلغه المهمة الموكلة إليه حين يرتئي الكومسير ذلك.

وقف الرجلان يراقبان مسيرة الشموع في عيد الحصاد أو عيد الخيم الذي دأب يهود لبنان على إحيائه كل عام في شهر تشرين الأول وهو مناسبة لشكر الله على نعمه. فقد كانت الشرطة تواكب هذا الاحتفال كما تواكب كل الاحتفالات الدينية، وتعمد إلى قطع الطرقات لتأمين مساره.

نظر الكوميسير إلى الملازم عيفاني بعد أن علق الملازم ساخراً من هذا العيد «فهل يسمي أحد عيده بعيد الخيم؟». انتبه الملازم إلى الخطأ الذي

(12) شغل رئيسا الجمهورية بشارة الخوري وكميل شمعون المبنى الذي يقع اليوم مقابل برج المر في منطقة القنطاري وتحّول في عهديهما إلى قصر جمهوري. وكان مالكه الشيخ فؤاد الخوري، شقيق الشيخ بشارة.

ارتكبه للتو، فهو نسي أن الكوميسير إليا بصل من الطائفة اليهودية وربما يكون الوحيد الذي دخل في السلك العسكري ووصل إلى رتبة بهذا المستوى. ولما حاول الاعتذار، قاطعه بإشارة من يده بعد أن أدار رأسه مجدداً لمتابعة المسيرة، ثم قال له، وبكثير من الجدية، ومن دون أن ينظر إليه « إن هذا العيد هو عيد مهم عند اليهود، فهو يبدأ بعد عيد الغفران بخمسة أيام ويستمر أربعاً وعشرين ساعة وهو عيد لإحياء ذكرى الخيمة التي آوت اليهود في العراء عندما أخرجهم موسى من مصر».

توقف الكوميسر قليلاً فهز الملازم برأسه لتأكيد متابعة مضمون الحديث، ثم أكمل قائلا: «إن العيد في الأساس كان عيداً زراعياً، وكان يحتفل فيه بتخزين المحاصيل الزراعية للسنة كلها لذا كان يسمى قديماً بعيد الحصاد».

كانت هذه المرة الأولى التي يكلف فيها الملازم عيفاني بمتابعة تلك المسيرة. وقد أُبلغ بخريطة سيرها قبل أن ينتقل مع فرقته إلى المنطقة. فهي تبدأ من مدرسة الأليانس اليهودية في وادي أبو جميل، ثم تتجه باتجاه خط القطار القديم بمحاذاة كنيسة الكبوشية قرب دائرة الشرطة[13]، فشارع جورج بيكو[14]، ثم صعوداً باتجاه كنيسة مار الياس، ثم نزولاً باتجاه شارع وادي أبو جميل.

وأكثر ما لفت الملازم عيفاني في هذه المسيرة أن المشاركين فيها كانوا يمشون وهم يهزون رؤوسهم إلى الأمام والخلف ويصلّون بالعبرية على شكل غناء، حاملين أنواعاً من النباتات أشاروا فيها إلى الجهات الأربع

(13) كانت دائرة الشرطة تقع مقابل تمثال الشهداء في ساحة البرج وقد أصيبت في الحرب إصابات كبيرة وعند بدء هدمها علت أصوات تطالب بإبقائها وترميمها لطابعها التاريخي. وقيل إن هدمها جاء نتيجة خطأ.

(14) في ما عُرِف بشارع جورج بيكو تقع بنايات الستاركو حالياً.

ومن أعلى إلى أسفل. كما حمل بعضهم الشموع المضاءة التي أدخلت في ما بعد إلى داخل الخيم.

كان الحاخام يتقدم المسيرة بعد أن أحيا المناسبة في الكنيس، حيث قرأ المقاطع الأخيرة من «سفر تثنية الاشتراع» وهو أحد الأسفار الخمسة في «التوراة» ويُقرأ في هذه المناسبة تحديداً. وخلف الحاخام مشى شخصان يلف كل منهما حول عنقه شالاً أبيض، ويرفعان صولجانين من الذهب أو النحاس فيهما مزامير كتبت عليها رموز مقدسة من بينها أسماء الآلهة والوصايا العشر، وإلى جانبهما حمل شاب لفافة نحاسية كبيرة حفرت عليها تلك الوصايا والأسفار التوراتية. وعلى طول المسار كان حاملاً الصولجانين يحركانهما إلى أمام وإلى خلف، مع انحناءة تواكب الحركة بالاتجاهين.

كانت النسوة المشاركات في المسيرة ينتحبن طلباً لمغفرة الرب، وكذلك كانت تفعل النسوة التي كانت تنزل من منزلها وتقف في الشارع لمواكبة المسيرة. كما أن يهوداً من كل الأجيال كانوا يشاركون في هذه المسيرة الدينية بدءاً من سن الثالثة عشرة، أي السن التي يبلغ فيها الإنسان مرحلة التبليغ الديني.

وعندما رأى الملازم عيفاني هؤلاء الفتية، تذكر ما سمعه عن مراسم خاصة تقام في الكنيس عند بلوغ سن التبليغ الديني أو في المنزل، حيث يأتي حاخام ويصلي على الولد ثم يضع على رأسه قلنسوة ويلفه بشال أبيض بدءاً من كتفيه، معلناً بذلك بلوغه تلك المرحلة وحقه في تعلم الدين وممارسة شعائره والصوم وقراءة التوراة في الكنيس عند تكليفه بذلك.

وعلى الشرفات والأرصفة المحيطة بالطرقات التي سلكتها المسيرة كان الناس من الطوائف الأخرى، وغالبيتهم من المسيحيين، يقفون للمشاهدة.

بقي الرجلان، الكوميسير والملازم واقفين الوقفة نفسها، ينظران في نفس الاتجاه، إلى تدفق الناس من شارع فرنسا باتجاه الوادي فالقنطاري

نزولاً. وكانت خيم بيض، وضعت فيها الشموع لإضاءتها عند حلول الليل، قد نصبت على طول الشارع وصولاً إلى باب إدريس.

ولما شارفت المسيرة على نهايتها أمر الكوميسير بصل الملازم عيفاني بأن يتولى مراقبة الخيم، والتدخل عند حصول أي حريق، في حال حصوله، ثم مشى بين الناس.

انتهى الاحتفال من دون تسجيل أي حادث. ثم أعطى الملازم عناصره إشارة الاستعداد تمهيداً للعودة إلى دائرة الشرطة. ولما عاد الكوميسير بصل إلى حيث وقف في البداية ليراقب المسيرة عند انطلاقها، تقدم منه الملازم وعايده فشكره وعادا سوياً سيراً على الأقدام.

في طريق العودة لم يتحادثا كثيراً. فظن الملازم أن الكوميسير بصل ممتعض من ملاحظته الساخرة عن هذا العيد، ولام نفسه كيف نسي أن رئيسه يهودي، وهو الذي يعرفه منذ أن كان تلميذاً في مدرسة المقاصد عندما كان الكوميسير مسؤولاً عن سجن الرمل حيث يجري توقيف المشاغبين عادة.

فقد دخل عيفاني هذا السجن مرة عندما تظاهر مع زملاء له في ذكرى وعد بلفور، في الثاني من تشرين الثاني، احتجاجاً على هذا الوعد الذي أعطى من لا يملك أرضاً لمن لا يستحق، وفق مضمون الشعار الذي كانت تصدح به حناجر المتظاهرين في تلك الفترة، وقد بقيت التظاهرات الاحتجاجية على هذا الوعد تنظم عقوداً بعد صدوره، واتسعت دائرتها عندما دخل حيز التطبيق.

يومها وقف عيفاني على رأس تلك التظاهرة بعد أن حُمل على الأكف وهتف لسقوط الوعد. وعندما وصل المتظاهرون إلى ساحة البرج فرقوا بالقوة لأنهم خرقوا قرار حظر التظاهر وأوقف عدد من المشاركين بينهم الشاب عيفاني.

فالتظاهرات مُنعت في محيط حي وادي أبو جميل، بعد صدور قرار تقسيم

فلسطين في إطار إجراءات حماية اليهود، وذلك خشية أن يتجه المشاركون فيها إلى أحياء الوادي ويعتدوا على سكانها.

أوقف عيتاني وأربعة من رفاقه ونقلوا إلى النظارة. وفي الليلة الأولى، أطل عليهم من خلف القضبان آمر السجن وقال لهم: «ولك يا عكاريت روحو شوفو دروسكن أحسنلكن!».

وفي يوم إخلاء سبيله، بعد ثلاثة أيام على توقيفه، نظر إليه الضابط نفسه وهو يراقب العسكري الذي كان يتولى تسليم أغراض الموقوفين الشخصية، وكرر نفس النصيحة.

بقي هذا الضابط في ذهن الشاب عيفاني. ولما سأل عن هويته قيل له إن اسمه إليا بصل. ثم قرأ في الصحيفة أنه رقي إلى رتبة مفوض بعد أن أقرت ترقيات المؤسسة العسكرية.

لم تمض سنوات قليلة حتى نجح عيفاني في امتحان الدخول إلى سلك الدرك، وكان رئيسه المباشر الكوميسير بصل كما أبلغ بعد قبوله. لكن الأخير، وفي لقائهما الأول مع مجموعة المنتسبين الجدد، لم ينتبه للشاب الذي أوقف في سجنه يوماً. لكنه وبعد عدة أيام استدعاه وسأله بكثير من الود إن كان هو الشخص نفسه؟

وبعد سنوات قليلة على دخوله السلك، عيّن عيفاني مع الكوميسير إليا بصل في فرق مكافحة الشغب لمواكبة التظاهرات. ثم وبعد قرار منع كل المظاهرات السياسية والدينية منتصف الخمسينات بات موكلاً تنفيذ هذا القرار. أما سبب المنع فهو سقوط قتلى وجرحى في الحريق الذي حصل أثناء مسيرة دينية إسلامية.

المسيرة كانت رداً على مؤتمر مسيحي أُسمي بالمؤتمر القرباني. يومها دعا الشيخ طه الولي إلى المشاركة في مسيرة ليلية بالمشاعل تؤكد حضور أهل السنة في لبنان. والشيخ طه الولي من مدينة طرابلس في شمال لبنان، لكنه

انتقل باكراً إلى بيروت وسكن فيها. وهو قاض شرعي معروف ومشهور، وقد دأب على تنفيذ المسيرات الدينية منذ أن كان تلميذاً.

وضع المتظاهرون في المشاعل نشارة الخشب والمازوت ليزداد اشتعالها وكي لا تنطفئ. وساروا في صفوف من أربعة أشخاص لكل صف، كي تبدو المسيرة حاشدة.

واكبت القوى الأمنية المسيرة لمنعها من الانحراف باتجاه الجميزة حيث تقطن غالبية مسيحية. وأبلغ الشيخ الولي من القوى الأمنية وعلى رأسها يومها الملازم عيفاني، أن تخطّي ساحة الشهداء ممنوع، فقد كان العرف السائد في تلك الفترة أن أية مسيرة إسلامية ممنوع أن تتخطى سينما أمبير في البلد كي لا تدخل الأحياء المسيحية، وأية مسيرة مسيحية ممنوع أن تتخطى محلات الصمدي في الجهة الغربية من ساحة الشهداء، كي لا تدخل الأحياء الإسلامية وذلك تجنباً لأي احتكاك مذهبي.

وبعد ساعتين من انطلاقها وصلت مسيرة الشيخ الولي إلى وسط بيروت، أمام كنيسة مار جريس المارونية قرب التياترو الكبير. حصل تدافع بين المتظاهرين أدى إلى انقلاب المشاعل وسقوط النفط المحترق على المشاركين، فقتل وجرح عدد منهم. وقد أثارت تلك المسيرة أزمة سياسية بعد أن حُمِّل الشيخ طه الولي المسؤولية واضطهد.

كان شارل حلو وزيراً للصحة وطلب ملاحقة الشيخ. ثم استقال عندما رفض طلب توقيفه من قبل رئيس الوزراء سامي الصلح لحساسية الوضع الطائفي في البلد. فرئيس الحكومة في لبنان سني والشيخ طه الولي سني، كما أنه لم يسبق أن أوقف رجل دين لما للموضوع من حساسية مذهبية بضوء تركيبة لبنان المذهبية والطائفية، ولما قد يثيره ذلك من ردود فعل..

يومها شن رئيس حزب النجادة، الدكتور برغوت، حملة على وزير الصحة وأعلن دعمه للشيخ الولي رافضاً تحميله المسؤولية. وقد جاءت حملة

النجادة في تلك الفترة انعكاساً للصراع السياسي الذي كان على أشده بين حزب النجادة السني وحزب الكتائب المسيحي.

انتهت الأزمة السياسية إلى تسوية تقضي بمنع كافة المسيرات الدينية على كامل الأراضي اللبنانية. وقد أبلغ القرار إلى جميع القوى الأمنية الموكلة حفظ الأمن ومن يومها توقف يهود لبنان عن تنظيم مسيراتهم. كذلك توقف المسلمون عن تنظيم مسيرة عيد المولد النبوي الشريف. ولم يعد المسيحيون ينظمون مسيرات دينية في الشهر المريمي بحيث كانوا يخرجون أحياناً بعد القداس في مسيرة يرفعون فيها تمثال السيدة العذراء ويرددون التراتيل الإنجيلية.

جمع الكوميسير بصل الرتباء والعسكريين وأبلغهم بقرار السلطة التنفيذية. وكلف الملازم عيفاني تطبيق قرار وزارة الداخلية منتصف الخمسينات، والقاضي بالتشدد في الإجراءات حول وادي أبو جميل، والذي جاء بناء لطلب من مجلس الطائفة، خشية انعكاس الأجواء السياسية على اليهود ولا سيّما مع استمرار غياب أفق حل القضية الفلسطينية.

كانت تلك الإجراءات تبلغ ذروتها يوم السبت قرب الكنيس، حيث التزمت الشرطة تنظيم دوريات مكثفة لإشعار الناس بالأمان وعدم القلق والخوف. فالكنيس تعرض لإلقاء قنبلة يدوية لم تؤد إلى إصابات إنما أحدثت قلقاً لدى أبناء الطائفة من أن الشعور بالعداء لليهود بفعل تطورات الوضع في فلسطين بعد قيام دولة إسرائيل، قد يترجم أعمالاً عدائية بحقهم.

كما أن الحي في الوادي هوجم مرتين بعد حرب1967، من متظاهرين غاضبين، وفي إحداهما نشرت القوى الأمنية شرطياً على مدخل كل بناية تقريباً بعد أن طوقت الحي لمنع الدخول إليه. كما أوقفت القوى الأمنية شاباً من آل دعبول عندما أنزل مجموعة من الشباب البيروتي باتجاه الكنيس

في مسيرة احتجاج على ما كان يجري في فلسطين.

وقد منعت القوى الأمنية المسيرة من الوصول إلى الكنيس، واعتقلت عدداً من المشاركين فيها إلى جانب دعبول.

لم تمض سنوات قليلة حتى أُحيل بصل إلى التقاعد بعد أن رُقّي إلى رتبة كولونيل. في حين انتقل عيفاني إلى دائرة التفتيش المالي العسكري بعد أن رقي إلى رتبة ضابط. وفي إحدى دوريات التفتيش في وزارة المالية قرب مجلس النواب، وبينما كان في طريقه إلى مكتب المسؤول المالي، مر إلى جانب صف طويل من العسكريين المتقاعدين الذي ينتظرون صرف معاشهم التقاعدي. بين هؤلاء تعرف إلى إليا بصل فتوقف وأدى له التحية العسكرية.

ابتسم الكوميسير بصل ومد يده للسلام. أمسك عيفاني بها وجره إلى غرفة مدير المصلحة وأمر أحد الموظفين بإتمام معاملته هذه المرة وكل مرة يأتي فيها إلى المركز، والتأكد من إجلاسه وعدم إبقائه واقفاً.

كما أعطى تعليماته باستقباله في غرفة رئيس الدائرة، فالكولونيل، كما سرد عيفاني، حلاّل المشاكل بين الناس في منطقة عمله في البلد، قبل أن يصبح مفوض الشرطة لأنه كان يتقن اللغات الألمانية والفرنسية والإنكليزية والتركية بالإضافة الى اللغة العربية. وهو بسبب إتقانه لتلك اللغات انتدب عدة مرات كمترجم معتمد في التحقيقات القضائية والعسكرية التي تجري مع أشخاص موقوفين من جنسيات يعرف لغتها جيداً. لم يكمل عيفاني تعريفه بالكولونيل بصل، فقد نودي عليه عبر جهازه فخرج قليلاً إلى الشرفة المجاورة، ولما عاد كان الكولونيل بصل يهم بالخروج بعد أن سلمه الرتيب معاشه التقاعدي، فوقف واستودع الجميع وغادر بعد تحية خاصة للضابط عيفاني الذي كما استقبله ودعه بالسلام العسكري.

تلك كانت آخر مرة رأى فيها عيفاني الكولونيل بصل الذي بلغ أرفع منصب يصله يهودي في السلك العسكري في لبنان، بوصوله إلى درجة

كولونيل. لكن آخر ما سمعه أن الكولونيل غادر مع زوجته منزله في وادي أبوجميل عندما تكثفت مغادرة اليهود في مطلع السبعينات إلى وجهة غير معروفة.

مروان وأليغرا

بعد أشهر من تعارفهما بمحض الصدفة في محل لبيع الأدوات المنزلية، وفي أحد لقاءاتهما السرية داخل حديقة الصنائع في مكان معزول تقريباً، بعيداً عن التجمع المعتاد للناس إلى جانب بركتها الرئيسية، أمسك مروان يد أليغرا وعرض عليها الزواج، حالاً من دون أي تردد أو تأخير، واقترح عليها أن تبقى معه ولا تعود إلى منزلها.

فاجأ إصرار مروان أليغرا. فقد سبق أن تحدثا بالموضوع عدة مرات وإن بشكل عام. وأفهمته أن ارتباطها بمسلم مستحيل لأنها لا تريد أن تحطم قلب والدتها كما قالت له مراراً، فهي ابنتها الوحيدة، والوحيدة التي بقيت معها في لبنان بعد مغادرة كل أشقائها.

حاول مروان إقناعها بأن يذهب معها ويتعرف إلى والدتها ويطلب يدها رسمياً، فيضعاها أمام الأمر الواقع. رفضت أليغرا الفكرة لأنها لا يمكن أن تواجه أمها بعلاقتها بمسلم. وبانفعال قالت إن حياتها ستتحول إلى جحيم إن هي أخبرت أمها وأشقاءها في المهجر بالأمر.

بقيت أليغرا مع والدتها في لبنان بعد أن غادر كل إخوتها إلى البرازيل، قبل سنوات قليلة على بدء الحرب الأهلية.

كان حديث الرحيل هو الحديث الوحيد في منزل العائلة بعد أن وصل الأشقاء إلى استنتاج أن لا أفق لحياة اليهود في لبنان، وأن هجرة هؤلاء الكثيفة منه تحتم على الباقين البحث عن مكان آخر. فالأولاد سيكبرون

والبنات، كذلك ولن يجدوا يهودياً أو يهودية يرتبطون به. كما أن التطورات السياسية في لبنان والمنطقة لا تبعث على الاطمئنان.

لكن الأم رفضت المغادرة وأصرت على البقاء، رغم تحذير أبنائها لها بأنها ستموت وحيدة، ولن يمشي أولادها في جنازتها، بينما ستكون معززة مكرمة معهم حيث حلّوا.

لم تكنْ والدة أليغرا تتصور أنها يمكن أن تبدأ حياتها من جديد ومن الصفر، وقد تخطت السبعين عاماً. فهنا لديها أصدقاء ومعارف وجيران وحياة هادئة لا ينغصها شيء.

أما قرار الرحيل فيعني أنها ستترك كل شي. ستترك منزلها وأغراضها وطقوسها اليومية البسيطة والجميلة، لتذهب إلى بلد جديد لا تعرف لغته وكيفية التصرف فيه. كما أنها ستفقد استقلاليتها الحالية لتعيش في منزل أبنائها. وقد زاد من تصلب موقفها أن ابنتها أليغرا التي ما تزال تعيش معها في منزلها في أحد زواريب وادي أبو جميل، لا ترغب بالمغادرة هي الأخرى.

فهي تعمل، وهي مستقلة مادياً ولديها حياتها في لبنان. كما أنها ليست قلقة على مصيرها لأنها تخطت سن الزواج والإنجاب، ما جعل حجة البحث عن يهودي للزواج وتكوين عائلة غير ذي جدوى.

انتهت نقاشات الهجرة في منزل العائلة إلى اتفاق على أن تغادر الأم والأخت فور حصول أي طارئ في لبنان.

لكن تطورات عدة حصلت بعد ذلك واندلعت الحرب الأهلية، ليس بعيداً عن المكان الذي تسكن فيه أليغرا مع والدتها من دون أن تغيرا قرارهما بالبقاء.

انتقلتا إلى منزل قريبة لهما في منطقة الحازمية في ضاحية بيروت الشرقية، بعد اشتداد المعارك في منطقة الفنادق قرب وادي أبو جميل حيث تقطنان، ثم إلى شارع الحمرا فاستأجرتا منزلاً فسيحاً نقلتا كل أغراضهما إليه.

لم يتوقف ضغط الأشقاء في البرازيل، ولكن من دون جدوى. حتى إن أحدهم حضر منتصف الثمانينات لإتمام معاملات المغادرة لأمه وشقيقته بعد مقتل أربعة يهود على يد منظمات مسلحة ليس بعيداً عن مكان سكنهما في منطقة الحمراء، وفي الصنائع وفي محيط مدرسة البطريركية في منطقة زقاق البلاط.

لكن الأم نجحت هذه المرة أيضاً في رد تلك الضغوط، فهي كانت مطمئنة إلى أن أحداً لن يتسبب لهما بأذى. أولاً لكونها امرأة مسنة، وثانياً لأن اختلاطهما قليل. وحيث تسكنان، لا يعرف بانتمائهما الديني سوى قلة قليلة. هذا بالإضافة إلى كون معارفهما ليسوا من نوعية المنخرطين بأحزاب أو ممن يمكن أن يتورطوا في وشاية ضدهما.

وكانت أليغرا تربط موقفها الرافض بموقف والدتها، لكنها عملياً حسمت أمرها نهائياً مهما كانت المخاطر، ولا سيّما بعد ارتباطها بعلاقة مع مروان.

أبقت علاقتها هذه سرية، لأن الزواج بمسلم مستحيل. وهي حتى لو أقنعت والدتها بالزواج من مروان، تعرف تمام المعرفة أنها لن تستطيع إقناع أشقائها.

كانت لقاءاتها تتم بشكل شبه يومي. فقد كان ينتظرها قرب المؤسسة حيث تعمل، في شارع فرعي غير مزدحم في منطقة الصنائع، يتبادلان الحديث ثم يذهب كل إلى منزله.

كانا أحياناً يجلسان في أحد مقاهي شارع الحمرا عندما كانت الظروف الأمنية تسمح بذلك. فتلك المقاهي لم تكن تعمل بصورة منتظمة لأن وصول العاملين فيها والزبائن كان رهناً بوضعية الطرقات والأماكن التي كانت عرضة للقصف. وقد رفعت تلك المقاهي خلال الحرب أكياس الرمل أمام واجهاتها الزجاجية كي تشجع الناس على ارتيادها، فالشظايا

المتطايرة من القذائف المتساقطة لا تخترق تلك الأكياس إنما تحدث ثقوباً، ما جعل استبدال الأكياس المثقوبة بأخرى منتفخة بالرمل أمراً روتينياً، حفاظاً على سلامة الرواد والعاملين.

حافظ مروان وأليغرا على وتيرة اللقاءات هذه عدة سنوات إلى أن مرضت والدتها وباتت تلازمها ثم، وبعد أشهر قليلة، توفيت..

كانت مراسم التشييع سريعة وجرت في مدافن السريان في العاصمة اللبنانية بيروت، لأن مقبرة اليهود في السوديكو أقفلت بعد اندلاع الحرب. وقد تمت بحضور أليغرا وعدد محدود جداً من الأشخاص بينهم قريبتها التي رفضت هي الأخرى المغادرة وبقيت في لبنان.

فتح موت الوالدة الباب واسعاً أمام إلحاح الأشقاء على أليغرا لمغادرة لبنان. رفضوا كل حججها وطلبوا منها ترك تعويضها في العمل والاستقالة والالتحاق بهم. وبات الطلب أقرب إلى الأمر الذي لا يترك مجالاً للنقاش.

لم يعد الجهر بالرفض ممكناً، فاعتمدت أسلوب كسب الوقت أحياناً، والكذب أحيانا أخرى، لإبعاد الضغوط عنها واعدة أشقاءها بالانضمام إليهم قريباً.

قالت لهم إن المحامي يعمل على تسريع بت تعويض المنزل، وإنها بدأت تفاوض على تعويضها في العمل وقد شارفت الإجراءات على الانتهاء.

لكنها لم تكن تقوم بشيء من هذا وذاك، لأنها في قرارة نفسها لم تكن ترغب بالهجرة من لبنان. فهي تعرف أنها لو فعلت لن تعود يوماً. كما أنها، وبعد وفاة والدتها، قررت الزواج من مروان ولم تعد تأبه لرأي أشقائها لأنها اتخذت قرارها وحسمته.

أسلمت وتزوجت، واحتفظت ببيتها حيث عاشت مع مروان. لكنها، ورغم تغيير دينها على الورق، بقيت تمارس طقوسها الدينية على الطريقة اليهودية. كانت تحتفل مع قريبتها في الأعياد اليهودية وترتاح يوم السبت.

أما أيام الآحاد فقد كانت تحب أن تولم لأصدقاء مروان المقربين جداً.

قليلون كانوا يعرفون أن أليغرا يهودية. كان الحديث عن طائفتها يدور همساً بين الأصدقاء، فقد أخبر عدداً محدوداً جداً منهم، لكن عدد الذين باتوا يعرفون كبر. لم يكن لا هو ولا هي يريدان أن تنتشر المعلومة، ويرغبان ببقائها ضمن حدود الحلقة الضيقة، وإن كان اسم أليغرا يشير إلى طائفتها.

أحبت جلسات الخمر، ولم تمانع أن يستضيف زوجها الأصدقاء في المنزل، شرط أن تكون حاضرة.

كانت تلك الجلسات تتم في غرفة الجلوس الداخلية. وقد لاحظ أصدقاء مروان أن باب غرفة الطعام والجلوس الرئيسية دائم الإغلاق. حتى ولائم الغداء نهار الأحد كانت تتم في غرفة الجلوس الداخلية. توقفوا قليلاً عند تلك الملاحظة أثناء لقاءاتهم شبه اليومية في حانة صغيرة في منطقة الجميزة لكنهم تجاهلوا الأمر في ما بعد.

كان مروان ينضم إلى أصدقائه في الحانة التي تحولت إلى مكان لقاء منتظم لا يغيب عنه أحد من أعضاء الشلة إلا نادراً، وباتت أشبه بمكان خاص بهؤلاء.

مرت عدة سنوات على زواجها. وتواصلت اتصالاتها مع أشقائها، لكن طلبهم تحول مع الوقت من الانضمام إليهم في البرازيل إلى قيامها بزيارتهم ولو لشهر من الزمن. وفي مطلع التسعينات قامت بأول زيارة. وكانت مناسبة زواج ابنة أحد أشقائها هي الحافز الأساسي.

بقيت شهراً كاملاً في ساو باولو، اتصلت خلاله مرات عدة بمروان من هاتف عمومي على الطريق. كانت تختلق الأعذار بحاجتها لشراء غرض ما وتخرج للاتصال به وتطمئنه وتطمئن عليه.

أخبر مروان أصدقاءه المقربين عن حجم الضغوط على أليغرا من أشقائها في المهجر، وكان فرحاً للتسوية التي توصلت إليها معهم بأن تقوم بزيارتهم

في عطلتها الصيفية.

باتت تلك الزيارات سنوية، وقد بدا مروان مطمئناً إلى أن الأمور انتهت عند هذا الحد، لكن اطمئنانه تضعضع عندما أوصلها إلى المطار في إحدى المرات، وبكت عند وداعه إلى درجة الانتحاب.

كان مروان قد سألها، وهما يهمّان بركوب السيارة باتجاه المطار، عن سبب كثرة الحقائب وثقلها، فأعادت السبب إلى عدد أفراد العائلة في المهجر وعدد الهدايا التي كبر معها.

عاد مروان إلى المنزل محتاراً، مستغرباً بكاء أليغرا المفرط بخلاف المرات السابقة، غير مقتنع بالحجج التي ساقتها عن سبب حملها كل هذه الحقائب.

فكر باحتمال أن تكون قد أخذت ثياباً تمكنها من البقاء فترة أطول من العادة. وتساءل عن أسباب إخفاء هذا الأمر عنه. وظن أنها لم تكن ترغب في إعلامه كي لا يرفض أو ينزعج لأنه في الأساس وجد فترة الشهر التي تتغيّبها كل عام طويلة.

وعندما قرر التثبت من شكوكه وتوجه إلى خزانة ثيابها وجدها فارغة بالكامل إلا من بعض الأمتعة المعدودة. وقف مصدوماً، مدركاً أن سفرها هذا هو رحيل نهائي وأنها لن تعود.

لكنه عاد واستبعد هذا الاحتمال لأنها لو أرادت فعلاً الرحيل النهائي لكانت قد أخطرته. فهي تعلم أنه لن يمانع لأنه لا يطيق فكرة أن تعيش معه من غير رغبة منها. كما أنها تعرف أنه لن يستعمل حقه بمنعها من السفر من خلال الزواج السني الذي أتماه.

لم يحاول مروان سؤال زملائها في العمل عما إذا كانت قد أخطرتهم بنيتها الذهاب نهائياً أو عما إذا كانت قد قدمت استقالتها، كي لا يثير المزيد من الشكوك، وكي لا يؤثر ذلك على عملها فيجري استبدالها في حال كان الأمر

بخلاف ظنونه.

تلك الليلة، خرج كعادته للقاء الأصدقاء في الحانة، لكنه بدا مرتاباً وشارد الذهن. وأمام إلحاحهم أفصح بما يختلجه من شكوك حول رحيل أليغرا إلى غير رجعة.

لكن أصدقاءه لاموه على شكوكه ومبالغته التي وصلت إلى حدود دراماتيكية هذه المرة، ودعوه لانتظار اتصالها أو التاريخ الذي حددته لعودتها قبل الجزم بأي شيء.

مر شهر كامل ولم يتلق أيّ اتصال من زوجته. وفي موعد عودتها توجه إلى المطار وانتظر خروجها لكنها لم تظهر بين الواصلين. وفي الأيام والأسابيع التالية لم يسمع أي شيء منها فتحول الشك إلى يقين.

شاركه أصدقاؤه استنتاجه. وبينما كان يستمع إلى ما حاولوا إيراده للتخفيف عنه من أنها لا بد ستعود، وأن أشقاءها قد يكونون منعوها بحجز جواز سفرها، وأنها حتماً مرغمة على البقاء...

فتح عيونه ونظر إلى من حوله، ثم وقف وأبلغهم أنه سيذهب إلى المنزل فوراً. فهو نسي تفقد غرفة الجلوس والطعام حيث كانت تضع الرموز الدينية، ومنها الشمعدان ذو الأضلع السبع. لأنها لو أخذت تلك الرموز معها، بخلاف المرات السابقة لسفرها، فهذا يعني أنها رحلت إلى غير رجعة.

احمرت وجنتاه وبدا كمن يحدث نفسه. فقد فطن للتو أن باب هذه الغرفة غير محكم الإقفال كما كانت الحال في فترات سفرها السابقة خشية أن يدخله أحد عن طريق الخطأ ويرى ما كان لديها من رموز. وتذكر أنه لاحظ من دون أن يكترث عندما كان خارجاً من المنزل صباحاً، تسرب الضوء من باب تلك الغرفة لأنه مغلق فقط وغير مقفل. وبالفعل لم يجد مروان تلك الرموز الدينية كما توقع.

لم تكن أليغرا، اليهودية المؤمنة، كثيرة الكلام في السياسة لكنها كانت تعبر باستمرار عن معاداتها لإسرائيل، وتنتقد ممارسات الإسرائيليين. وهي عندما تسمع النقاش الذي لا يفرق بين اليهود والإسرائيليين لا تعلق، لكنها كانت تبدي انزعاجاً تحدث عنه مروان لبعض أصدقائه، لكنه لم يفكر يوماً أنها ستخاف وترحل بعد أن أصرت على البقاء رغم فظاعة الحرب.

لم تغف عينا مروان في تلك الليلة، فالغضب أكل ساعات نومه. وقام عدة مرات في الليل كي يتفقد أغرضاً لأليغرا، فإذا وجد أحدها ارتاح واطمأن وحاول النوم، لكنه سرعان ما كان يتذكر غرضاً آخر فإذا لم يجده عاودته الشكوك.

وفي اليوم التالي وفي جمعة الليل إياها، أبلغ مروان الأصدقاء أنها أخذت الرموز الدينية لكنه بدا غير فاقد للأمل تماماً. فقد تمنى سماع أي خبر عنها مع انتهاء الشهر الثاني لرحيلها.

لم يكن لديه رقم هاتف أليغرا في البرازيل. فهي لم تعطه رقم أهلها لأن اتصاله سيثير الشكوك. فالزواج ما زال سراً ولا أحد من أهلها يعرف عنه.

دخلت كل أنواع الاستنتاجات في تحليل أسباب سلوك أليغرا وفعلتها. كانت تلك الحانة مكاناً يجري فيه نقاش شبه يومي لحالة مروان.

البعض قال إن رحيلها المفاجئ مرتبط حكماً بتوقّعها حصول تطورات دراماتيكية في لبنان في إطار نظريات المؤامرة السائدة. وزرع أصحاب هذا الرأي الشك في نفوس المجموعة. فأشقاء أليغرا هم حتماً مرتبطون بلوبي يهودي يعرف ما يمكن أن يجري، وهي على ضوء ما أخبرت قررت المغادرة.

بعض الأصدقاء لام الحالة ولم يلم أليغرا. فهي حسب هؤلاء ملّت العيش بالسر بعيداً عن ممارسة الطقوس الدينية بشكل علني وبعيداً عن الأهل. أما لماذا لم تخبر مروان بقرارها؟ فقد بقي هذا السؤال لأسابيع مدار

النقاش كل ليلة في تلك الحانة، وكانت الاستنتاجات تختلف عندما لا يكون مروان موجوداً.

فهل كانت العلاقة بين الزوجين متوترة؟ هل كان الخلاف إلى هذا الحد؟هل مروان هو المسؤول عن هذا الرحيل؟ احتار الأصدقاء بين الغضب من مروان والغضب من أليغرا.

بعضهم حمل عليها لأن ما فعلته هو من أفعال « اليهود». « فهؤلاء لا يعيشون إلا بين مللهم ولو بعد سنوات. وهم جميعهم غادروا لبنان من دون ضجيج كأنهم لا صادقوا ولا أحبوا، كما قال بحدة أصحاب هذا الرأي. فتصرف أليغرا هو نفسه تماماً تصرف هؤلاء. ولا يخفف من خطئها بقاؤها في لبنان لسنوات طويلة وطويلة جداً بعد الرحيل الجماعي لليهود، لأنها في النهاية عادت وفعلت الشيء نفسه، لم تتفوه بكلمة، ولم تدع أحداً يشعر بذلك. رتبت استقالتها من عملها وتعويضها كما تبين لمروان لاحقاً، ورتبت أمورها ووضبت حقائبها بكل ما تملكه من أمتعة وغادرت».

بعض الأصدقاء كان أقل حدة، وسأل مروان هل كان سمح لها بالمغادرة لو طلبت منه ذلك؟ هل كان قبل الطلاق؟ هل كان تفهم دوافعها؟ فهي أتمت زواجاً وفق الشريعة الإسلامية والعصمة بيد الزوج، وهو يمكن أن يمنعها من السفر لو أراد.

سئم مروان هذا النقاش لأنه استحضر كل أنواع اللوم والتحليل الذي لم يرحمه في ما جرى. وبقي حائراً ومتردداً في الجزم أن ألغيرا غادرت فعلاً إلى غير رجعة.

مرت تسعة أشهرعلى رحيل أليغرا من دون أن تتصل ويسمع منها شيئاً. وفي صبيحة يوم أحد رن جرس الهاتف وكانت هي على الطرف الآخر من الخط.

فكر للحظة أن يقفل الخط في وجهها من شدة الغضب، لكنه عوض

عن ذلك اتهمها بأبشع التهم، بقلة الوفاء، والطعن بالظهر ونكران الجميل والأنانية.

قال لها إنها لم تستحق حبه، وإنه نادم على كل ساعة أمضاها معها، وعلى انجراره في علاقة لم تجلب له سوى الأسى والحزن.

أخبر أصدقاءه في تلك الليلة بتفاصيل ما جرى خلال الاتصال، وكيف بررت فعلتها باحتجاز جواز سفرها من قبل العائلة ما حال دون عودتها، وما يحول دون ذلك حتى الآن. وإنها لم تتصل لأنها كانت واثقة أنه لن يصدقها في ما ستقول لتبرير ما حصل..

أخبرته كما قال لأصدقائه وكل من يعرف قصة الرحيل، أنها غير مرتاحة، وأنها تفتقد إلى لبنان والعيش فيه، وهي تشعر بغربة قاتلة، لكنها في البرازيل تعيش بين أهلها.

لم تنقطع اتصالات أليغرا بمروان. فهي تهاتفه كل شهر تقريباً منذ اتصالها الأول بعد أشهر على الرحيل، تسأل عن أحواله وعن شلة الأصحاب.

لقد انتقل مروان إلى منزل جديد بعد أن عرف صاحب الملك برحيلها، لأن الإيجار باسم والدتها ولا ينتقل إلى زوج الابنة. وهو ما زال يخبر شلة الأصدقاء بمضمون أحاديثه الهاتفية مع أليغرا التي اكتسبت الجنسية البرازيلية لكنها ما زالت ترفض إعطاءه أيّ رقم لها خشية أن يُفتضح أمر زواجها لأنها ما زالت على اسمه شرعاً وقانوناً.

«خبي جمالها لخالها»

وقف كريم كي يترك المجال لصديق والده حسن ليجلس مكانه. فالدكان ضيق ولا يسمح إلا لكرسي واحد صغير يستخدم أيضاً كسلّم للوصول إلى الرفوف العليا حيث وضعت أكياس مسحوق الغسيل الأكثر انتشاراً في تلك الفترة «التايد» ومساحيق أخرى.

وخلف طاولة صغيرة وضعت على الجهة اليمنى المقابلة لمدخل المحل، جلس أبو كريم في الوضعية نفسها التي يُرى فيها كل يوم. فقد كان جسمه العريض يمتد على طول طاولته الصغيرة تقريباً، وقد اختفت رقبته من شدة بدانته.

جلس حسن وسأل صديقه ممازحاً عما إذا كان لا يمانع أن يعيره مشطه. فقد كان شعره متطايراً بكل اتجاه. لم يكن هذا الشكل غريباً على أبو كريم، فهو نادراً ما كان يمرر مشطاً في شعره الخفيف من الجهة الأمامية، والذي لم يصمد فيه سوى القليل من الشعر الأسود.

وضع أبو كريم يده على شعره وحاول ترتيبه إلى الخلف، ثم مررها على لحيته المهملة هي الأخرى، وقال إن الهواء فعل فعله في رأسه وإن جلدة ذقنه تتحسس من موسى الحلاقة.

ثم أعاد ذراعه إلى الوضعية نفسها، بحيث أراحها على الدرج الرئيسي المفتوح حتى حدود بطنه المنتفخ، وأبقى كفّه متدلية داخل الدرج ثم حرك بأصابعه ما فيه من مال وأعاد العد. فهو يفعل ذلك طول اليوم حتى بات

يعد ماله بيد واحدة وبسرعة زاد من وتيرتها التكرار عدة مرات في اليوم على مر السنين.

أما يده اليسرى فقد كان يتكئ بها على الطاولة حيث وضع علب العلكة وسجائر البافرا وحلويات الغندور الصغيرة كي تبقى تحت ناظريه وبمتناول يده عند دخول أولاد إلى المحل.

وفي درج جانبي صغير في الطاولة نفسها التي يجلس إليها، وضع مصحفاً يقرأ فيه عندما يكون بمفرده في أوقات الظهيرة وأولى ساعات بعد الظهر حيث غالباً ما تكون الحركة في وادي أبو جميل خفيفة. وكان يقرأ في مصحفه أيضاً عندما لا يكون في محله أي من أصدقائه الذين اعتادوا على زيارته في الدكان، لكنه لم يكن يصلي سوى مرة واحدة قبل أن ينام.

فأبو كريم يمضي غالبية أوقاته في دكانه الصغير، حتى أيام العطل والأعياد، فارضاً على من يرغب برؤيته المجيء إلى المحل. وهو، لإغراء أصدقائه بزيارته، باشر بتقديم القهوة والشاي بعد أن ثبت رفاً على الحائط على يمين طاولته، وضع عليه غازاً صغيراً من عينة واحدة لتسخين الماء، كما فعل لحظة دخول حسن، لكن الأخير لم يكن راغباً بالمكوث. دخن سيجارة وخرج.

في دكان أبو كريم كل شيء تقريباً. فهو يبيع الحبوب ومساحيق الغسيل والكازوزة والأجبان والمعلبات ما عدا الخضار. بدأ عمله بائعاً لألواح الثلج قبل أن تجتاح البرادات البيوت. فالناس كانوا يضعون الألبان والأجبان في علب حديد كبيرة أو وعاء كبير يملؤونه بالماء ويضعون فيه قطعة ثلج. كان أبو كريم يبيع يومياً عشرات ألواح الثلج ولا سيّما في أيام الحر. كانت تصله صباحاً من معمل للثلج قرب المسلخ ليس بعيداً عن مرفأ بيروت.

إلا أن بيع الثلج تراجع مع انتشار الأدوات الكهربائية إلى أن أصبح شبه معدوم. عندها طور تجارته وحول محله إلى دكان حاول أن يضع فيه أكبر

عدد ممكن من الأصناف.

أما منزله فليس بعيداً عن محله، وهو انتقل للعيش فيه منذ أن تزوج في الأربعينات، ويقع في أحد الشوارع المتفرعة عن وادي أبو جميل، ولم يغير منزله بعد أن كبرت العائلة ورُزق أربعة أولاد، ثلاثة صبية وفتاة، أكبرهم كريم.

كبر كريم في الوادي كما بقية إخوته، لكنه لم يدخل أياً من مدارسها لأن تلك المدارس كانت خاصة ومكلفة، كما أنها مدارس رهبان مسيحيين أو مدارس لليهود. لذلك ارتأى والده أن يدخله مع أشقائه إلى مدرسة حوض الولاية الرسمية المجانية التابعة للدولة غير بعيد عن مكان سكن العائلة.

لم يكن كريم يخرج من الوادي إلا إلى المدرسة لأنه كان يحب هذا الحي كثيراً ويتمنى لو ينتقل للدراسة فيه. حتى أنه لم ينسج علاقات خارج منطقة سكنه. فلم ينخرط في الكشاف المسلم كما فعل كثيرون من زملاء صفه، وفي ما بعد في المرحلة الثانوية لم يبد أيضاً اهتماماً بمشاركة شباب الصف في الرحلات التي كان الطلاب ينظمونها أيام العطل.

وعندما يسأله زملاء الصف عن سبب عدم مشاركتهم نشاطاتهم، كان يجيب بأنه يساعد والده في الدكان وأنه لا يستطيع التغيّب أو التأخر..

لكن سبباً آخر كان وراء عودته السريعة إلى الحي في تلك الفترة، وهو وقوعه في غرام ابنة الجيران سارة. كان يهرول عائداً قبل الرابعة عصراً، يقف قريباً من باب مدرسة الأليانس حاملاً كتبه ينتظر خروجها، وعندما يراها يكتفي بالتحديق فيها من دون أن يحدثها.

أما في أيام العطل فقد كان يراقب منزلها من على شرفة منزله، ويبقي نظره على مدخل البناية كي يلحق بها عندما تخرج.

كانت سارة تسكن في البناء المقابل تماماً لمنزله، وهو مبنى شبيه بالمبنى الذي يسكن فيه هو ويتألف من طابقين، تشغل عائلة سارة الطابق الثاني

منه كما هي حال عائلته، ما سهل عليه المراقبة.

لم تكن سارة تنتبه في البداية لحركات كريم، لكنه عندما حاول لفت انتباهها انزعجت ولاحظت أنه يلازم شرفته وينظر باتجاه واحد. فنهرته مرة وهددته بإبلاغ والدها، ومن يومها صار يقف خلف ستارة الشرفة المقابلة لمنزلها، ويواصل التحديق ومتابعة حركة منزلها.

لم يكن كريم قد تحدث إلى سارة بعد. وكان يتحين الفرصة المناسبة لذلك، حتى لما صادفها وهي تشتري الخبز لأهلها من فرن حمادة القريب، تقدم منها وقال لها إنه يحبها. لكنها وبصوت منخفض كي لا يسمع أو ينتبه أحد، اتهمته بقلة التهذيب والوقاحة، ولما خرجت لحقها حتى مدخل منزلها وقال لها إنه يريد رؤيتها فلم تجب، واستعجلت صعود الدرج.

لم يتوقف كريم بعد ذلك عن مراقبتها، لكنه قرر أن يكتب لها رسالة يعبر لها فيها عن مشاعره ويتغزل بجمالها. ثم انتظر أن تخرج من منزلها فتبعها. ولما دخلت فرن حمادة لحقها ووقف إلى جانبها ودس الورقة في جيبها. لم تمانع ولم تُبد أي رد فعل بخلاف توقعاته، ففرح لتلك الإشارة الإيجابية. وفي اليوم التالي ومن شرفة منزلها، نظرت إليه مبتسمة وأومأت له بيدها وهي تنظر خلفها كي لا يراها أحد من أهلها.

لم يصدق كريم ما رآه، ولما أعطته إشارة فهم منها أنها خارجة، لحق بها إلى أن توقفت عند زاروب صغير كي لا يراهما أحد وقالت له إن رسالته جميلة جداً.

ومن يومها صارا يلتقيان بانتظام، وبات ينتظر خروجها من مدرسة الأليانس ليرافقها إلى منزلها. وفي العطل كانا يهربان من الحي ويمشيان على كورنيش البحر. كانت تتذرع بزيارة صديقة لها تسكن في منطقة القنطاري كي تخرج من المنزل لساعة أو اثنتين، فقد كانت تحرص ألا يُعرف شيء عن علاقتهما في الحي. فهي حذرة لأن والديها كانا قد قررا تزويجها إلى أحد

الأقارب بعد انتهاء دراستها.

وقد أخبرت كريم بقرار أهلها لكنها بدت مطمئنة إلى أنها قادرة على إقناعهما برفضه لكنها لا تريد أن تخوض تلك المعركة الآن لأنهما قد يمنعانها من الخروج خشية أن يكون لديها أحد آخر في حياتها. وأخبرته أن أمها هددتها بأنها إذا لم تقبل به زوجاً فإنها ستزوجها لخالها. أنهت سارة جملتها وضحكت. إلا أن كريم لم يجد الأمر مضحكاً، مستغرباً أن تتزوج فتاة من خالها؟ فأبدت سارة استغراباً لاستغرابه، وظنت أنه كأحد سكان الوادي يعرف جيداً المثل الشائع بين اليهود والذي يقول «خبي جمالها لخالها» بما يشرع زواج الفتيات من شقيق الأم عند اليهود مع أن أحداً لم يعد يتمم زيجات من هذا النوع.

وبعد أشهر قليلة أنهى كريم دراسته الثانوية والتحق بعمل والده في الوادي بينما كانت سارة قد وصلت إلى سنتها الدراسية الأخيرة. كانا عندما يلتقيان يتحدثان بكل شيء إلا عن مستقبل علاقتهما، لأن كريم لم يأت ولا مرة على ذكر الزواج بها وهي تدرك مدى صعوبة الفكرة. إلا أنها فاجأته يوماً عندما سألته عما إذا كان يفكر بالارتباط بها.

لم يكن لديه ما يقول سوى أن إمكاناته محدودة، وأنه سيفعل ذلك حتماً عندما يصبح قادراً على ذلك..

باتت اللقاءات بين كريم وسارة شبه يومية. وفي يوم من أيام تموز عام 1967. فاجأت سارة جميل في مكان عمله على غير عادتها.

كان موعدهما عصراً لكنها أتت في الصباح وطلبت الحديث معه غير آبهة لنظرات الترقب التي سادت في الدكان عند دخولها، والتي ارتسمت في عيون والده وعدد من أصدقائه.

ولما همّ كريم بالخروج لاحقته نظرات والده بعد أن رفع حاجبيه في حركة استغراب من الذي جرى للتو من دون أن يستطيع تفسيره. سادت

التساؤلات في المكان وازدادت وتيرتها مع تأخر كريم. بقي اثنان من أصدقاء أبو كريم ينتظران بعدما أثار الأمر حشريتهما، لكن أبو كريم لم يحتمل الجلوس أكثر، وقف بجسده الممتلئ وخرج إلى الرصيف عند مدخل دكانه ونظر يميناً ويساراً وعلى طول الشارع وعرضه من دون أن يرى ابنه ولا الفتاة التي يعرف أنها ابنة جيرانه، وتقصد المحل من حين لآخر للتبضع.

ولما لم ير شيئاً عاد ودخل عائداً وهو يبتسم وقال للحاضرين إن ابنه على ما يبدو خطف سارة. وقال إنه لو فعل ذلك فسيعيش أحلى عيشة، وهي بالتأكيد أفضل من عيشة الضيق التي يعيشها حالياً. ثم ضحك مخرجاً صوتاً محشرجاً من كثرة الدخان، أرفقه بسعال مرضي. لكنه سمع تعويذات من الحاضرين من زواج مختلط على غير سنة النبي ورسوله.

عاد كريم بعد ساعة وقد بدا عليه الإرباك ولم يجب على أسئلة والده عن سبب غيابه، وما الذي كانت تريده منه تلك الفتاة؟ ولما لم يسمع من ابنه أي جواب، بدا أبو كريم قلقاً وسأله عما إذا كان في الأمر ما يشغل البال، وهل من سوء اقترفه بحق تلك الفتاة أو معها؟

لكن كريم حافظ على صمته وكرر القول لوالده بأن لا شيء يشغل البال وألا يحمل الهم ويقلق، ثم استأذنه الخروج من المحل. نظر إليه والده وقال له وهو يهز بأصبعه محذراً أن رضا الله من رضا الوالدين متمنياً عليه عدم مفاجأته وأمه بما لا يريدان حصوله.

خرج كريم من دون أي تعليق، ووعده بالعودة في وقت الغداء حاملاً إليه ما أعدته أم كريم له من طعام. لكنه لم يتوجه إلى المنزل. فقد خرج من الدكان وهام في الشوارع من دون هدف، حتى وصل إلى سوق الطويلة فمشاه إلى آخره بعد أن مر بواجهات الثياب الثمينة ينظر إليها لكنه لا يرى ما خلفها لأن تفكيره في مكان آخر.

ولما وصل إلى البركة القديمة في منطقة تتفرع منها شوارع ضيقة تؤدي إلى

العديد من الأسواق منها سوق أيّاس وسوق البازركان الذي كان يقصده مع أمه كثيراً لشراء كل ما تحتاجه العائلة، توقف لشرب السوس.

فقد كان بائع السوس والجلاب يلازم محيط البركة، وهو أحياناً كان يملأ إبريق مائه من نافورة تلك البركة لتنظيف الكاسات الزجاجية التي كان يحملها بعد استخدامها.

فعندما ينتهي الزبون من شرب كوبه، يرمي ما بقي فيه عبر دفعه إلى أمام باتجاه الأسفل، ثم يضع فيه قليلاً من الماء، ويحركه بشكل دائري ثم يرميه بنفس الطريقة ليصبح جاهزاً للزبون التالي، حتى باتت بقع الماء تحيط بمكان وقوف بائع الشراب الذي غالباً ما يبقى واقفاً في مكانه حتى ينتهي من بيع ما حمل وأحياناً كثيرة يعود ثانية إلى نفس المنطقة إذا كان الموسم موسم أعياد أو عطل، لأن الحركة عندها تصبح كثيفة.

كان بائع السوس أو الجلاب أو «الليموناضة» حسب مزاجه اليومي، يقف بطربوشه القديم وقد لفّ إبريقه النحاسي الكبير بحبل غليظ امتد خلف ظهره لتمتينه. وكانت صينيته مكملة للإبريق تسنده من أسفل حيث كان يضع أكواب الزجاج عليها، بينما تبقى يده اليمنى تهز «الطقطيقة» التي كانت تصدر طقطقات باتت ملازمة لوقفته، تعلن لقاصدي تلك الأسواق عن وجوده قرب البركة.

شرب كريم السوس بتمهل غريب على غير عادة المارة الذين غالباً ما يجرعونه مستعجلين لضيق الوقت والمكان. بدا شارد الذهن فأمسك كوبه لثوان بعيداً عن شفتيه وراح بنظره بعيداً. إلا أن «السواس» استعجله بحركة على كتفه أرجعته إلى وعيه، فأعاد كوبه من دون أن يكمله ودفع له ثمنه خمسة قروش ثم واصل سيره. ولما أنهى دورة الأسواق تلك، عاد إلى منزله سالكاً طرقات يقصدها مع سارة لأنها طرقات فرعية خفيفة الحركة.

حاول أن يتخيل حياته من دونها، وبدا عاجزاً عن تبديد شعور الخسارة

الذي أصابه بعد أن أخبرته أن عائلتها قررت الرحيل نهائياً بعد يومين.

روت له كيف عاتبت والديها لأنهما لم يخبراها من قبل، وكيف صرخت في وجهيهما لأن قرار الرحيل سيدمر حياتها وهي تريد أن تبقى.

أخبرته بحجج والدها غير المقنعة كما قالت له، حجج تستند إلى أن مصير اليهود مجهول بعد التطورات التي حصلت والحرب الأخيرة بين دول عربية وإسرائيل.

لم تقل سارة لكريم إنها ذاهبة إلى إسرائيل. أخبرته أن العائلة ستهاجر إلى فرنسا، لكنها قالت له وبإصرار وثقة، إنها ستبقى إذا طلب منها ذلك. وإنها على استعداد أن تختفي الآن معه ولا تعود إلى المنزل. لكن كريم بدا مصدوماً وعاجزاً عن تحمل مسؤولية قرار كهذا، وخاف من المضاعفات بين العائلتين ومع أهله. فوالده لطالما أسمعه بأن حلاله هي ابنة عمه، وزواجه يجب أن يتم على سنة الله ورسوله. كما أنه انتهى من دراسته للتو، فكيف له أن يتخذ قراراً بالزواج الآن وليس لديه ما يسمح له بشراء قطعة حلوى؟

في اليوم التالي تقابلا مجدداً، التقيا قرب باتيسري سويس في مقابل كنيسة الكبوشية، ومن هناك اتجها نحو كورنيش البحر. وفي الطريق كررت القول إنها لا تريد أن تغادر وإنها مستعدة للبقاء معه وفي منزل أهله إذا أراد، وإنها ستبحث عن عمل ويتساعدان لتأمين عيشتهما. لكنه، وبحزم من أراد إنهاء التفكير بطرح كهذا، قال لها إن الأمر مستحيل وغير ممكن الآن.

ولما وصلا إلى كورنيش البحر وتوقفا قرب تجمع لصيادي أسماك في منطقة عين المريسة، أخرجت من حقيبة يدها دفتراً صغيراً أبيض وطلبت منه أن يكتب لها عنوانه البريدي الكامل ووعدته بأن تكتب له فور وصولها، وبانتظام. وقبل أن يغادرا الكورنيش عائدين إلى الوادي أبلغته أنها مستعدة للعودة إذا ما أشار إليها بذلك. لكنه لم يعلق ولم يعدها بشيء سوى بأن يراسلها عندما يصله عنوانها.

كان هذا اللقاء هو الأخير بين كريم وسارة فهي لم تأت كما وعدته في مساء ذلك اليوم للقائه قرب كنيسة الكبوشية للوداع الأخير. انتظرها طويلاً ولم تأت. ولما عاد إلى منزله وخرج إلى الشرفة، كانت هنالك حركة في منزل سارة المقابل، لكن إقفال الستائر حجب عنه رؤية ما كان يجري في المنزل. كما أنه لم يستطع أن يرى سوى خيالات صعُب عليه تحديد هوية أصحابها.

وعند منتصف الليل انطفأت الأنوار في المنزل. لكنه بقي على الشرفة علها تخرج بحثاً عنه بعد نوم أهلها، إلا أنها لم تفعل. بقي واقفاً لساعات منتظراً، ومع اقتراب موعد صلاة الفجر دخل عليه والده وطلب منه إطفاء نور الشرفة لأنه يزعج الجيران، وسأله عن سبب سهره إلى هذا الوقت. لم يجبه، دخل وأطفأ النور ونام. وفي صبيحة اليوم التالي كانت الستائر ما تزال مقفلة في منزل سارة ولم يستطع أن يرى أية حركة خلفها. وعندما حل المساء بقيت الأنوار مطفأة، فعرف أنها رحلت.

خلافاً لوعودها وتأكيداتها، لم ترسل سارة أيّة رسالة بعد رحيلها.

وبعد مضي أكثر من ثلاثة عقود على سفرها، ما زال كريم يتحدث عن سارة كما لو أنها غادرت أمس أو هذا الصباح. ويستعيد تلك الفترة كأنها انطبعت بذاكرته بحرفية أحداثها، فعائلة سارة لم تكن تريد مغادرة لبنان لكنها عادت وغادرت.

وسارة من جهتها وعدت ولم تفِ. قالت إنها ستبقى على تواصل ولم تتواصل ولم تتصل. وعدت بأنها سترسل المكاتيب لكنها لم تفعل، وقالت إنها سترسل له عنوانها لكنها لم ترسله. ثم إنه متأكد أنه أعطاها العنوان الصحيح والدقيق، فلا مجال للخطأ في العنوان، فهي لو أرسلت مكتوباً لكان قد وصل حتماً. ثم تحدث عن انتظاراته التي طالت لمكتوبها الأول. فكم تمنى في الفترة الأولى لرحيلها لو تفاجئه وتعود، لأنها لو فعلت لكان

تزوج بها حتماً، فهو لن يدعها ترحل ثانية. تمنى لو يستطيع أن يخبرها عن حجم الخسارة التي شعر بها بعد رحيلها، وكم ندم لأنه استسهل تركها تذهب. فهي لو أرسلت عنوانها لكان فاتحها بالأمر وطلب منها العودة.

يزيغ في عيونه بعيداً، ويهز رأسه ويبتسم، وهو يحرك بكفه غلّة النهار في درج الطاولة الذي أبقاه مفتوحاً نصف فتحة وأسند يده عليه تاركاً لكفه حرية الحركة داخله، ثم عمد إلى تغيير الحديث عند دخول شاب عشريني أتى ليأخذ مكانه في الدكان كي يستريح ويتناول الغداء.

نهض من خلف الطاولة الصغيرة وتقدم وخرج من الدكان، وعندما اقترب من الشاب وضع يده على كتفه وقدمه للحاضرين على أنه ابنه سامي.

حي الثريات

أمسك بوقاً وهرول راكضاً على الدرج الخارجي لمنزله في حي آل المنّ في وادي أبو جميل، وصعد إلى السطح حيث وقف ونظر إلى أعلى، ثم راح ينفخ في البوق. ترددت أصوات متشابهة في تلك الليلة من أكثر من مبنى. ولما نظرت حياة من نافذتها باتجاه أسطح الأبنية المحيطة، رأت رجالاً ينفخون في تلك الأبواق وينظرون باتجاه السماء، عندها أدركت أنه يوم كيبور أو يوم الغفران، فقد سبق لأمها أن أخبرتها قصة هذا الاحتفال الذي يلتزم به كل معارفهم تقريباً وغالبية جيرانهم. وقالت لها إنهم يسمونه أيضاً بروش هاشاناه كما ورد في التوراة كيوم للنفخ، وهو حسب التقليد اليهودي عيد ميلاد العالم وذكرى الخليقة، تساعد فيه أصوات الأبواق المزعجة على إيقاظ الضمائر النائمة.

فصعودهم على الأسطح في تلك الليلة يأتي بعد صيام النهار، وهم يفعلون ذلك لمناجاة الرب وطلب الغفران عن كل ذنوبهم، ويستخدمون الأبواق كتقليد متوارث بهدف إيصال الصوت إلى الرب. ففي مثل هذا اليوم نزل موسى من طور سيناء للمرة الثانية ومعه لوحة الشريعة وأعلن أن الرب غفر لقومه عبادة العجل الذهبي بعد أن غررهم بعبادته الشيطان.

تذكرت وهي تنظر إلى تلك الأجساد المتمايلة، ما فهمته من أمها أن النفخ صلاة من دون كلمات وصراخ يرتفع إلى أعلى حيث كتبت أعمال البشر السيئة والحسنة، فإذا كانت السيئات تتجاوز الحسنات فسيتم تسجيل البشر

في كتاب الممات، لذلك فإن تلك الصلاة هي للغفران والتسجيل في كتاب الحياة للسنة القادمة.

بقيت حياة واقفة على نافذة منزلها، تنقل نظرها من سطح إلى آخر مستعيدة شكل الحاخام يعقوب سكابا بينما كان يشرف، قبل غروب هذا اليوم، على ذبح الدجاج في المناسبة.

فقد أمضى الحاخام اليوم بكامله متنقلاً بسكينه في شوارع الوادي وأحيائه لتلبية طلبات العائلات اليهودية بذبح الديوك على عدد الأفراد الذكور من الأولاد ودجاج على عدد الأفراد البنات، بعد أن يقرأ على الذبيحة بعض التعاويذ لتصبح حلالاً.

كما استعادت منظر الدم على جدار مدخل منزل صديقتها هدى بعد أن نثر والدها دم الطير المذبوح للتو، قرباناً للإله وتكفيراً عن الذنوب، ثم مرر الطير فوق رؤوس أولاده كي يشملهم التكفير عن الذنوب.

كانت حياة قد ذهبت صبيحة هذا اليوم مع والدتها إلى كنيسة مار جريس للمشاركة في قداس الصباح. ولاحظت زحمة الناس في خان البيض في الوادي، حيث تباع الديوك، وهي زحمة لم تألفها في مثل هذا الوقت من اليوم حتى في يوم العطل الرسمية كما هو حال هذا النهار[15]. نظرت إلى الناس من حولها وتساءلت: ألم يبق أحد في منزله؟ فكنيس ماغين أبراهام كان مزدحماً أيضاً، وقد توقفت قليلاً مع أمها أمامه بينما كانتا في طريقهما إلى الكنيسة. وقد تسربت صلوات تراتيل المصلين في الكنيس وقد غطوا رؤوسهم. وقد شرحت لها أمها أنها تراتيل خاصة بهذا اليوم لأنه يوم خشوع عند اليهود يشارك فيه أبناء الطائفة بصلوات خمس، ويعترفون بخطاياهم كما يفعل المسيحيون في الكنيسة، لكن بعض هذه الاعترافات

(15) كان خان البيض يقع خلف كنيسة مار جريس حيث كان درج عريض يؤدي إليه وهو كان قائماً في المكان نفسه تقريباً حيث اكتشفت آثارات رومانية ما زالت أعمدتها ظاهرة للمارة خلف الكنيسة.

خاصة وبعضها عامة.

لكن تلك الأصوات الخارجة من الأبواق، أعادت حياة إلى حيث سرح نظرها وهي تستعيد وقائع هذا اليوم، إلى أسطح تلك الأبنية المقابلة، وإلى ما حدده ضوء القمر الخفيف يومها من ملامح أجساد ترفع رأسها إلى أعلى وتنفخ في تلك الأبواق. إلا أن نداء والدتها الملحّ قطع عليها هذا المشهد السنوي الذي لطالما أثار في داخلها شعوراً غريباً حول المناجاة والحديث إلى الربّ.

دخلت وأمسكت بفستان كانت أمها تخيطه لها لتلبسه في عرس صديقتها هدى الذي حدد موعده بعد انتهاء عيد الغفران للمزيد من التبارك. ولما بدا مقاس الفستان ممتازاً وكل تفاصيله الأخرى كذلك، علقته في خزانتها بانتظار اليوم الكبير لصديقتها الأقرب.

كان هذا الفستان ليوم العرس في الكنيس. أما في يوم الاحتفال الذي يسبق العرس بيوم واحد، فقد قررت ارتداء فستان آخر سبق أن لبسته قبل أسابيع عندما تزوج خالها الأصغر.

فقد دعتها هدى للمشاركة في الاحتفال الذي يقام قبل العرس بيوم في الكنيس للأهل والمقربين فقط. وأخبرتها وهي تضحك أن هذا اليوم هو لفحص الفتاة قبل تزويجها.

ولما لاحظت دهشة صديقتها حياة، ابتسمت وقالت إنه احتفال تقليدي لأضيق الحلقات في العائلتين.

في هذا اليوم ارتدت هدى فستاناً أعدته للمناسبة لكنه عادي، ودخلت على أنغام الطبول لفرقة الكنيس التي كانت تتولى العزف الديني والتقليدي في تلك المراسم، واتجهت إلى بركة في وسط الجهة الأمامية للمعبد، ثم أحاطتها النسوة بشرشف أبيض كبير، نزعت ثيابها ونزلت في البركة حيث الماء مبارك من الحاخام ومصلّى عليه.

ووسط استمرار قرع الطبول، تقدمت باتجاه البركة مجموعة من النسوة من أقرباء العريس وقد رفعن صدراً نحاسياً كبيراً ووضعن عليه منشفة وحذاء وبرنساً، وهي الأغراض التي يرسلها العريس عادة في هذا الاحتفال.

قُدم الصدر للعروس فتناولت البرنس أولاً وبمساعدة بعض النسوة لبسته بعد أن وقفن من حولها لحجب الرؤية. ثم لفت جسدها به وأحكمت ربط زناره حول خصرها. بعد ذلك وضعت المنشفة على رأسها وخرجت من بركة الماء المبارك ولبست الحذاء المصنوع من القماش الأبيض. ومع انتهاء تلك المراسم دارت النسوة حول العروس برقصة خاصة بالمناسبة. ثم بدأ توزيع الحلوى على المدعوين وهي حلوى خاصة مصنوعة من اللوز المطحون جيء بها من المحل المعتمد من قبل اليهود قرب محلات رشاد لبيع البوظة[16]. وقد صنعت على الطريقة اليهودية بحيث لم تخلط فيها الزبدة مع الزيت فهي إما أن تجبل مع الزبدة أو تجبل مع الزيت وليس بالاثنين معاً.

جلست حياة تراقب طقوس هذا الاحتفال، فهي تشارك به للمرة الأولى وقد أخذت لها مكاناً على طرف أحد مقاعد الكنيس الخشبية الكبيرة وفي أقرب نقطة إلى البركة. ولما ارتدت هدى ثيابها وبدأت تتقبل التهاني، توجهت إليها حياة، صعدت عدة درجات تفصل باحة الكنيس عن مذبحه المرتفع قليلاً، قبلتها وهنأتها واستأذنتها المغادرة.

وفي اليوم التالي، توجهت حياة باكراً عند حلاق الحي ميشال قبل أن تشتد الزحمة عنده كما هي الحال عندما يكون هنالك عرس، فهو الحلاق الأشهر والأشطر في الوادي.

ولما شاهدت من على شرفة منزلها المطل على الكنيس انطلاق الحركة فيه،

(16) كان المحل يقع في المنطقة التي أقيم عليها تجمع أبنية الستاركو.

لبست فستانها الجديد وخرجت.

عند وصولها، كانت غالبية المقاعد قد امتلأت بالمدعوين، لكن مقاعد على يمين قلب الكنيس وشماله حيث تتم مراسم العرس، كانت ما تزال فارغة. ولما حاولت الجلوس أتاها أحدهم وأرشدها إلى مكان آخر لأن تلك المقاعد مخصصة لآل كوهين، السلالة الأرفع، بحيث يبقى لهم مكان الصدارة في الكنيس.

ثم بدأ قرع الطبول إيذاناً بوصول العروسين إلى الكنيس الذي زين بالزنبق الأبيض.

لبست هدى فستاناً أبيض متوسط الطول ووضعت على رأسها منديلاً أبيض مطرزاً. أما زوجها إليا فقد وضع على رأسه قلنسوة زرقاء.

ومع وصول العروسين إلى المكان حيث يقف الحاخام، بدأت مراسم العرس، فرفعت خيمة بيضاء أمسك بقواعدها الأربع، أربعةُ شبان من أقرباء العروسين ورفعوها إلى أعلى، كرمز للبركة والوحدة والسقف الواحد. ثم مر العروسان تحتها بعد انحناءة بسيطة. بعدها بدأت صلوات خاصة بالأعراس تتلى باللغة العبرية، في حين رفع شاب وضع على رأسه قلنسوة بيضاء ولف كتفيه بشال أبيض، لفافة نحاسية من قطعتين، كل قطعة منها عبارة عن صفحة ناتئة وقد دونت عليها الوصايا العشر بالعبرية، واحتوت على الأسفار الخمسة الأولى في التوراة، ومررها للبركة قرب رأس العروسين فقبلاها ثم شربا من كأس مشروباً مباركاً مصنوعاً من تمر وزبيب.

بعد انتهاء المراسم خرج العروسان مع الأهل إلى مدخل الكنيس وتقبلوا التهاني.

بعد زواجها بقيت هدى في وادي أبو جميل حيث استأجر زوجها منزلاً صغيراً في شارع متفرع عن الكنيس لجهة مدرسة البوزانسون حيث كانت

ووسط استمرار قرع الطبول، تقدمت باتجاه البركة مجموعة من النسوة من أقرباء العريس وقد رفعن صدراً نحاسياً كبيراً ووضعن عليه منشفة وحذاء وبرنساً، وهي الأغراض التي يرسلها العريس عادة في هذا الاحتفال.

قُدم الصدر للعروس فتناولت البرنس أولاً وبمساعدة بعض النسوة لبسته بعد أن وقفن من حولها لحجب الرؤية. ثم لفت جسدها به وأحكمت ربط زناره حول خصرها. بعد ذلك وضعت المنشفة على رأسها وخرجت من بركة الماء المبارك ولبست الحذاء المصنوع من القماش الأبيض. ومع انتهاء تلك المراسم دارت النسوة حول العروس برقصة خاصة بالمناسبة.

ثم بدأ توزيع الحلوى على المدعوين وهي حلوى خاصة مصنوعة من اللوز المطحون جيء بها من المحل المعتمد من قبل اليهود قرب محلات رشاد لبيع البوظة[16]. وقد صنعت على الطريقة اليهودية بحيث لم تخلط فيها الزبدة مع الزيت فهي إما أن تجبل مع الزبدة أو تجبل مع الزيت وليس بالاثنين معاً.

جلست حياة تراقب طقوس هذا الاحتفال، فهي تشارك به للمرة الأولى وقد أخذت لها مكاناً على طرف أحد مقاعد الكنيس الخشبية الكبيرة وفي أقرب نقطة إلى البركة. ولما ارتدت هدى ثيابها وبدأت تتقبل التهاني، توجهت إليها حياة، صعدت عدة درجات تفصل باحة الكنيس عن مذبحه المرتفع قليلاً، قبلتها وهنأتها واستأذنتها المغادرة.

وفي اليوم التالي، توجهت حياة باكراً عند حلاق الحي ميشال قبل أن تشتد الزحمة عنده كما هي الحال عندما يكون هنالك عرس، فهو الحلاق الأشهر والأشطر في الوادي.

ولما شاهدت من على شرفة منزلها المطل على الكنيس انطلاق الحركة فيه،

(16) كان المحل يقع في المنطقة التي أقيم عليها تجمع أبنية الستاركو.

لبست فستانها الجديد وخرجت.

عند وصولها، كانت غالبية المقاعد قد امتلأت بالمدعوين، لكن مقاعد على يمين قلب الكنيس وشماله حيث تتم مراسم العرس، كانت ما تزال فارغة. ولما حاولت الجلوس أتاها أحدهم وأرشدها إلى مكان آخر لأن تلك المقاعد مخصصة لآل كوهين، السلالة الأرفع، بحيث يبقى لهم مكان الصدارة في الكنيس.

ثم بدأ قرع الطبول إيذاناً بوصول العروسين إلى الكنيس الذي زين بالزنبق الأبيض.

لبست هدى فستاناً أبيض متوسط الطول ووضعت على رأسها منديلاً أبيض مطرزاً. أما زوجها إليا فقد وضع على رأسه قلنسوة زرقاء.

ومع وصول العروسين إلى المكان حيث يقف الحاخام، بدأت مراسم العرس، فرفعت خيمة بيضاء أمسك بقواعدها الأربع، أربعةُ شبان من أقرباء العروسين ورفعوها إلى أعلى، كرمز للبركة والوحدة والسقف الواحد. ثم مر العروسان تحتها بعد انحناءة بسيطة. بعدها بدأت صلوات خاصة بالأعراس تتلى باللغة العبرية، في حين رفع شاب وضع على رأسه قلنسوة بيضاء ولف كتفيه بشال أبيض، لفافة نحاسية من قطعتين، كل قطعة منها عبارة عن صفحة ناتئة وقد دونت عليها الوصايا العشر بالعبرية، واحتوت على الأسفار الخمسة الأولى في التوراة، ومررها للبركة قرب رأس العروسين فقبلاها ثم شربا من كأس مشروباً مباركاً مصنوعاً من تمر وزبيب.

بعد انتهاء المراسم خرج العروسان مع الأهل إلى مدخل الكنيس وتقبلوا التهاني.

بعد زواجها بقيت هدى في وادي أبو جميل حيث استأجر زوجها منزلاً صغيراً في شارع متفرع عن الكنيس لجهة مدرسة البوزانسون حيث كانت

تدرس.

كان المنزل مؤلفاً من غرفة جلوس وغرفة نوم واحدة ومطبخ صغير وحمام، وقد وضعت هدى في غرفة الجلوس خزانة من الموبيليا ذات واجهة زجاجية، عرضت فيها كل الهدايا الزجاجية التي قدمت لها في عرسها، وغالبيتها من الكريستال الذي كان يعتبر من الهدايا القيمة في تلك الفترة. أما والدها فقد أهداها ثريّا من الكريستال أيضاً علقتها في غرفة الجلوس في حين أهداها أهل زوجها وبطلب منها ثريّا جميلة من الكريستال لغرفة النوم.

بقيت حياة تتردد على منزل هدى بعد الزواج. فقد كانت الفتاتان تلتقيان كل يوم تقريباً. فهما منذ صغرهما كانتا في راهبات البوزانسون التي كان لها مدخل من شارع الوادي وآخر من الشارع الموازي الخلفي، حيث خط الترامواي الذي كان يقطع العاصمة من عين الرمانة وحتى الرملة البيضاء[17].

وبعد أشهر على زواجها، أسرّت لها هدى أنها وإليا ينويان الرحيل إلى إسرائيل وكذلك أهله وأهلها. وتمنت عليها ألا تخبر أحداً، لكنها لم تقل لها متى، ووعدتها بإبلاغها عندما تعلم لأن إجراءات الرحيل تأخذ وقتاً لكن العائلة باشرت بها.

وبعد أسابيع قليلة لاحظت حياة أن الثريّا الكبيرة في غرفة الجلوس قد نُزعت وكذلك الأواني الزجاجية في خزانة الموبيليا، فأدركت أن الاستعدادات دخلت مراحلها النهائية. وقد أكدت لها هدى هذا الشيء عندما أخبرتها، وبعد تردد، أن الأغراض شحنت بالفعل.

عبرت الباخرة التي أقلت هدى وزوجها وأهلهما بحر لبنان باتجاه

(17) كان المحل يقع في المنطقة التي أقيم عليها تجمع أبنية الستاركو.

قبرص فجراً. وعلى متنها عشرات الراحلين وصناديق حوت أغراضهم.

كان البحر هادئاً وسط شمس تموزية حارقة. لم تكن الباخرة كبيرة، وهي ليست باخرة ركاب أصلاً، بل باخرة شحن. لكن قصر المسافة بين لبنان وقبرص سمح بنقل ركاب على متنها. بعد ثلاث ساعات من الإبحار وصلت السفينة إلى ميناء لارنكا في قبرص حيث كان شخص مكلف من الحكومة الإسرائيلية ترتيب أمور الركاب مع لوائح بأسمائهم. أمضوا يومهم في قبرص بانتظار نقلهم إلى السفينة المتوجهة إلى إسرائيل. وخرجوا من المرفأ إلى شوارع فرعية حيث اشتروا ما يأكلونه.. وبوصولهم إلى الساحل الإسرائيلي كان جنود وموظفون بانتظارهم مع لوائح بأسمائهم. أنزل الركاب، وبعد التأكد من هوياتهم نقلوا إلى منازل مفروشة في محيط مدينة القدس غير بعيد عن جبل أبوغريب. لم يكن منزل أهلها بعيداً عن منزلها وكذلك منزل أهل إليا فكلهم وضعوا في المستوطنة ذاتها.

في اليوم التالي استلم القادمون الجدد صناديق أغراضهم.

وضعت هدى ما حملته من كريستال في أبرز مكان في الدار. كما علقت ما نقلته من ثريات الكريستال في غرف المنزل الجديد.

وبعد أقل من شهر، قرع ساعي البريد منزل حياة، ناقلاً رسالة باسمها عليها طوابع باليونانية مصدرها قبرص.

كانت تلك الرسالة من هدى وقد كتبتها باللغة الفرنسية. أخبرتها بالتفصيل ما حصل منذ لحظة مغادرة المنزل، ورحلة العبور إلى إسرائيل.

وصفت لها منزلها الجديد وما يحويه من أغراض، وأين وضعت ما نقلته من لبنان. أخبرتها أنها لم تكن الوحيدة التي نقلت مقتنياتها الزجاجية التي يبدو أنها كانت في غالبية الصناديق التي نقلت حتى بات يطلق على الحي اللبناني في تلك المستوطنة اسم حي الثريات لكثرة ما نقل هؤلاء معهم من زجاجيات.

بقيت حياة وسارة على تواصل كلما سمحت الظروف عن طريق البريد، ومن خلال مكتب خاص في قبرص يتولى نزع المظروف الخارجي حيث الأختام الإسرائيلية. فقد كانت هدى تضع رسالتها في مظروفين، واحد عليه العنوان في لبنان والثاني عليه العنوان في قبرص.

وقد بقي هذا التواصل «سراً في بئر» عميقة على مدى سنوات، لأن حياة تعرف خطورة انكشاف أمر تواصلها مع صديقتها في إسرائيل فلم تخبر أحداً. إلا أن رواية «حي الثريات» انتشرت في أرجاء الوادي من دون أن يعرف أحد مصدرها.

إنقطع الاتصال مع هدى كلياً بعد حرب الـ 1967. ولم تعد حياة تتلقى أية رسائل ولم تعد تعرف عن صديقتها شيئاً. وهي تقول إن رسائل هدى ضاعت مع أغراض عديدة تركتها في منزلها في وادي أبو جميل، بعد أن اضطرت لمغادرته مع اندلاع الحرب واشتداد المعارك غير بعيد عن المكان الذي تسكن فيه.

ولما عادت لتتفقد منزلها وجدته مسروقاً ومحتوياته مبعثرة فأخذت ما استطاعت أخذه وتركت الباقي. وهي تتوقع أن تكون رسائل هدى ورسائل أصدقاء آخرين بين تلك التي تلفت مع صور عديدة، منها واحدة جمعتها مع هدى وإليا يوم زفافهما.

أم كلثوم

«كلموني تاني عنك فكروني، صحّوا نار الشوق في قلبي وفي عيوني»، تمتمتها ليزا وهي تنتظر شكيب بينما كان يكمل توضيب سراويل زوجها بعد غسلها وكيها.

ولما نظر إليها مستغرباً هذا الطرب الصباحي، وجدها تتمايل وقد أغمضت عينيها، مرددة مقاطع من أغنية أم كلثوم التي أدتها بصوت منخفض ولكن بإيقاع جميل فاجأ شكيب.

إنحنى شكيب برأسه كي يستطيع أن يراها بعينيه خارج نظارته المثبتة في موقع متقدم من أنفه كما هو حاله دائماً عندما يكون في مغسله، وهو المغسل الوحيد في وادي أبو جميل. انتبهت ليزا إلى تعجب شكيب، فابتسمت خجلاً، ثم سألته عما إذا تابع سهرة أم كلثوم مساء الخميس على إذاعة «صوت العرب» من القاهرة. فقد كانت أغنية « فكروني» أغنية السهرة التي نقلت مباشرة عبر الأثير؟ نظرت إليه منتظرة جوابه. ولما فهمت من شرود عينيه أنه لم يتابعها، ومن حركة يديه أن الأمر لا يعني له شيئاً، قالت له إن من لا يحب أم كلثوم يكون شيئاً قد توقف عن الاكتمال في حياته، ثم ابتسمت للتخفيف من جدية ما أطلقته من حكم على شكيب، وأكملت دندنتها وهي تحمل ثياب زوجها بتأنّ. «هو نفس الشوق وأكثر...هو »... ثم خرجت رافعة صوتها قليلاً وواصلت الغناء.. «فكروني ازاي هو أنا نسيتك؟»..

وقف شكيب متفاجئاً بليزا وقد خرجت من دون أن تدفع له، لكنه لم يلحق بها للمطالبة بما له عليها من مال، لأنها من زبائنه القلائل الذين يسددون مباشرة ومن دون تأخير، وهي بالتأكيد نسيت ولا بد أن تعود.

أمسك بدفتر حساباته ليسجل كي لا ينسى. فتح الدفتر، ومن دون أن ينظر إليه، تابع حركة ليزا من زجاج محله وهي تقطع الطريق من دون أن توقف تمايلها وإن بتحفظ الماشي في الشارع، ثم بدأت تختفي تدريجياً بعد وصولها إلى درج الحوش[18].

في هذه الأثناء نادته جارته ماري التي تسكن في الطابق الأرضي من بناية سنو المقابلة لمحله في شارع فرنسا فتاه نظره. فقد كانت ماري تحضر له القهوة كل يوم عند العاشرة صباحاً حتى بات الجيران يعرفون عندما يسمعونها تصرخ باسمه وبمد الياء وبأعلى صوتها كي تتأكد أنه يسمعها، إنه موعد قهوة شكيب «الكوا». أما هو، ومن خلف الزجاج، فكان يسرع لإعطائها إشارة تؤكد أنه سمعها كي لا تكرر مناداته مجدداً، لأنها في المرة الثانية سترفع صوتها أكثر وتسمع كل سكان الأبنية المحيطة. لكن ماري حتى ولو تأكدت أنه سمعها ورآها كانت تكرر الجملة نفسها ولكن بصوت أقل ارتفاعاً «شكيييييب تعا خود القهوة».

خرج شكيب بجسده النحيل من محله. ومن خلف حديد متشابك وضع على نافذة ماري كما هو حال نوافذ كل الطوابق الأرضية، مد يده وأخذ ركوة القوة من رأس مسكتها بعدما أرجعت أصابعها إلى الآخر كي يستطيع إمساكها من الجزء البارد نسبياً.

وقف قليلاً عله يلمح ليزا مجدداً لكنها كانت قد توارت خلف درج الحوش الأساسي في وادي أبو جميل. فالدرج يؤدي في نهايته إلى ساحة صغيرة

(18) كان في الوادي العديد من التجمعات السكنية المتلاصقة بطريقة دائرية تسمى الحوش تجمع بيوتها الصغيرة ساحة مشتركة.

توصل بدورها شمالاً إلى درج رفيع لبناء قديم من أبنية بيروت القرميدية، ويميناً إلى ممر ضيق ففسحة صغيرة تلفها من كل الاتجاهات منازل من طبقة أو اثنتين تجمعها وتتشارك فيها ساحة واسعة، بلاطها صخري أحمر تشير تضاريسه وتعرجاته إلى قدمه. وفي الجهة المقابلة للساحة ممر ضيق يؤدي إلى شارع وادي أبو جميل الرئيسي، وهو ممر منخفض الارتفاع لوجود منزل فوقه ما يجبر العابرين على الانحناء قليلاً..

كانت ليزا تقطن على يمين تلك الساحة وعلى مستواها الأرضي بينما كانت عائلة يهودية أخرى تقطن الطابق العلوي الذي يصله أصحابه عبر درج خارجي قرب باب مدخل منزل ليزا.

غالباً ما كانت ليزا تسلم سراويل زوجها إلى شكيب «الكوا» مطلع الأسبوع كي تأخذها يوم الأربعاء. وغالباً ما كانت تنتظر في محله في موعد التسليم. فهو لا يلتزم بوقت من شدة الزحمة عليه، فزبائنه كثر ولا من أحد يساعده. لكن الانتظار بالنسبة لليزا لم يكن يزعجها خاصة عندما لا تكون وحدها، ففي محل شكيب دائماً، مجموعة من النسوة تنتظر، ما يحوّل الجلسة إلى جلسة صبحية تستحضر فيها النسوة آخر أخبار الأزواج بداية ومن ثم سكان الحي.

إلا أن حضور ليزا حلقات الانتظار كان مميزاً. فهي فخورة بانتمائها للطائفة اليهودية، وهي عندما تجد شخصاً جديداً في حلقة المنتظرين، تكرر على مسامعه ما سمعته من جدتها عن تاريخ وادي أبو جميل، وهو تاريخ لا أحد يعرف مدى صحته، «فالوادي أيام زمان كان مؤلفاً من مجموعة مغاور سكنها فقراء ولاجئون بحيث سكن اليهود بيوتاً من طين على مرتفع قرب ما عرف في ما بعد بباب إدريس».

لم تكن ليزا تكترث لسؤالها عن مدى صحة ما تقول لأن جدتها التي روت لها تلك الواقعة هي من العارفين بتاريخ الحي وسكانه. وكانت تنهي

حديثها عن مغاور الوادي بالقول إن منزلها الحالي في الحوش قد يكون جزءاً من تلك المغاور التي طورت في ما بعد لتصبح بيوتاً صغيرة متلاصقة ومتشابهة كما قالت لها جدتها.

ولا تنسى ليزا، في كل مرة، الحديث عن أصل السبب في تجمع اليهود في الوادي. «فالجيش الروماني ترك بعض الأسرى من اليهود في بيروت عندما مر فيها، كما قتل الكثيرَ منهم من خلال رميهم في بركة زيت بعد إضرام النار فيها».

مل شكيب تلك الروايات ولا سيّما أنه يشكك فيها، وقال لها مرة ممازحاً بأن الدرس قد حفظ، لكنها لم تكن تكترث. فقد واظبت على تكرار روايتها هذه عن تاريخ وادي أبو جميل والوجود اليهودي فيه. وكانت توضح بتسلسل متشابه دائماً أنها ليست من أصول بيروتية بل من مدينة صيدا. «فصيدا كانت مكان سكن اليهود الأول في لبنان لأنها ممر لأبناء الطائفة خلال رحلات الحج».

وتدعم ليزا مقولتها هذه إزاء أسئلة التشكيك، بالحديث عن وجود مقام تاريخي في محيط مدينة صيدا، فيه رفات أحد الكهنة اليهود ويدعى زوبولون ما يؤكد ما تقول.

كما أن مقاماً آخر موجود في الجنوب اللبناني أشارت إليه ليزا، هو مقام يقع في تلة سجد، ويحوي على رفات «تسيفانيا» أحد الكهنة اليهود. ويؤكد وجوده مسار رحلات الحج هذه كما كانت تقول ليزا وتكرر.

أخبرت الحاضرين أنها ستزور هذا المقام يوم الأحد المقبل مع زوجها وعدد من أبناء الطائفة حيث سينصبون الخيم ويصلّون طلباً للمغفرة من الرب. ورحبت بمن يرغب بالانضمام إلى الرحلة تلك لأنها تعود بالبركة على القائمين بها طيلة العام.

لم تنتظر لمعرفة مدى رغبة الحضور بتلبية دعوتها، وأكملت بالحديث عن

أجدادها الذين عملوا تجاراً، واستخدموا مرفأ صيدا في تبادلاتهم التجارية. فمرفأ صيدا ازدهر قبل مرفأ بيروت كما قالت ليزا بحيث كان يشهد في القديم التبادلات التجارية الأساسية. صمتت قليلاً ولما لم يعلق أي من الحضور، تحدثت عن وجود سابق وكبير لتجار يهود في مدينة صيدا عاشوا في ما يعرف بالحي اليهودي في المدينة.

تلك كانت جملتها الأخيرة المعتادة، وكأنه درس حفظته عن ظهر قلب، لا تفوّت جملة منه. نظر إليها شكيب مطمئناً إلى أنها انتهت. وقال لها ممازحاً إنه لن يدعها تنتظر بعد اليوم. ضحك وضحكت هي معه ثم دفعت وحملت أغراضها وعادت إلى الحوش.

كانت الشمس تسطع بأشعتها على مساحة الحوش كاملة. أخرجت كرسياً وجلست تنتظر عودة زوجها محاولةً ملء الوقت بنزع الورق اليابس من الشتول قرب باب منزلها.

فليزا، كما غيرها من سكان الحوش، رسمت حدود ساحتها الصغيرة أمام بابها بصفائح أخفى الزمن والصدأ ماركة الحليب التي كانت فيها.

وكما غالبية سكان الحوش، زرعت ليزا الورد والخبيز لأن الخبيز يرتفع قليلاً فيغطي الجزء السفلي من جسم الجالس وليس رأسه. فمراقبة الحوش وحركة العائلات فيه والغرباء الذين كانوا يدخلونه، كانت تستهوي السكان.

ومن خلف الشتول، يمكنهم أن يتابعوا حركة الداخل إلى الحوش حتى وصوله إلى المنزل الذي قصده من دون أن ينتبه هو إلى أنه مراقب.

وكان رأس الجالس خلف تلك الشتول غالباً ما يُرى وهو يميل مع اتجاه الزائر وعلى وقع حركته. أما عندما تكون الشتول كثيفة في فصل الربيع، فكانت نصف الرؤوس ترفع فوق حدود تلك المزروعات، لمتابعة الحركة، لأن كثافة الأوراق في الربيع تعيق الرؤية من خلالها.

أما منزل ليزا فيقع في الطابق الأرضي، وهو لذلك معتم في الغالب. ولكي تزيد من كمية الضوء داخله، تفتح بابها على مصراعيه بعد وضع خشبة منخفضة الارتفاع عند العتبة كي لا تدخله الزواحف على أنواعها.

وكانت عندما تفتح الباب، تتحدث بصوت منخفض لأن أصوات شاغلي تلك المنازل تتسرب خارجها نتيجة التفافها الدائري حول بعضها.

حتى إنها عندما تعود إلى منزلها وتريد أن تزور أحد جيرانها، كانت تقف قليلاً عند أسفل الدرج المؤدي إلى الحوش، وترمي أذنيها باتجاه المنزل الذي تود زيارته، فإذا سمعت صوتاً متسللاً من نافذته تعرف أن هذه الجارة في منزلها.

كانت جلسات نسوة الحوش تبدأ ثنائية، وتنتهي بجلسات موسعة مع انضمام آخرين إليها، وهذا ما كان يحصل أيضا ليلاً في فصل الصيف. فعندما يخرج سكان الحوش، كل أمام منزله بعد العشاء ومعهم صواني الشاي أو القهوة، يتبادلون الدعوات، وكان من يقرر تلبيتها يحمل كرسيه ويتقدم باتجاه منزل جاره الداعي..

لكن حركة الحوش وعادات سكانه الليلية تختلف كلياً مساء الخميس. ففي تلك الليلة كانت إذاعة القاهرة تبث سهرة أم كلثوم مباشرة عبر الأثير، وهو يوم تنتظره ليزا وغيرها من الجيران من أسبوع إلى آخر.

في تلك الليلة لم تكن ليزا ترتبط بأي زيارة أو موعد. تعد عشاء زوجها باكراً، ثم وقرابة الثامنة تخرج جهاز الترانزيستور الصغير، تضعه على حافة النافذة قرب باب المدخل بانتظار بدء الحفلة، ثم تضع كرسيها مباشرة تحت النافذة.

كان النقل المباشر يبدأ بتصفيق الحضور وصفيرهم وهتافات من نوع «أيوه يا ستّ» فتعرف ليزا عندها أن أم كلثوم باتت على خشبة المسرح. ومع أول نوطه عزف، تغمض ليزا عينيها وتبدأ بالتمايل، وتدندن الألحان وتردد

الكلمات التي حفظتها غيباً.

وعندما تفتح عينيها كان ذلك بهدف متابعة تمايلات جيرانها في الطوابق العليا والمقابلة لمنزلها، وقد خرج أغلبهم وجلسوا على الكراسي والأدراج أمام منازلهم بعد أن وضعوا أجهزة الراديو على الأرض قرب الأبواب أو على النافذة الصغيرة، تماماً كما فعلت هي.

كان صوت أم كلثوم يلف تلك السهرات بخلاف أيام الأسبوع الأخرى التي تختلط فيها الأصوات والأحاديث الخارجة من كل زاوية من زاويا الحوش.

ومع انتهاء الحفل الغنائي، وإعلان المذيع انتهاء النقل المباشر، يبدأ مشهد توزع الكراسي والجلوس على الدرج بالتلاشي تدريجياً وبصمت وهدوء. فيحمل سكان الحي أجهزة الراديو ويدخلون إلى منازلهم، فتسمع حينها قرقعات متتالية لإغلاق الأبواب.

لكن ليزا غالباً ما كانت تبقى جالسة أمام منزلها بعد انتهاء سهرة أم كلثوم، مسندة ظهرها إلى الحائط قرب الباب، ورأسها على حافة النافذة الصغيرة للدار الأساسية، وكأنها في حالة من السكر.

كان باب ليزا آخر باب يُقفل في الحوش في تلك الليلة. كما أن نور دارها كان آخر نور يطفأ. وعند إطفائه في ساعة متقدمة من تلك الليلة كان الحوش يغرق في الظلام إلا من خيوط ضوء تتسرب من القليل القليل من المنازل التي كانت تترك نوراً داخلياً مضاء.

نربيج الخواجه فرح

أحبت أستير الطبيعة والمناخ الجبلي كثيراً، لكن عائلتها من متوسطي الحال ولم تكن تستطيع أن تستأجر منزلاً صيفياً في بحمدون أو عاليه كما كان يفعل غالبية اليهود.

فهي لو خُيّرت بين البلدتين، لكانت اختارت بحمدون لأن فيها كنيساً جميلاً. أما كنيس عاليه فجميل أيضاً لكنه أقل إتقاناً. واستبعدت مراراً حتى التفكير باحتمال أن تصطاف في دير القمر لو تحسنت حال زوجها، لأنها بلدة شوفية بعيدة نسبياً على الرغم من أن طبيعتها وطقسها وكنيسها من الروائع.

وكبديل عن منزل جبلي تحول أحوالها دون الحصول عليه، نشرت على شرفة منزلها في بيروت أوعية فخارية رتّبتها بطريقة تسمح لها بالتجول بينها، وزرعتها بكل أنواع الشتول، من بينها شتول تكبر كالأشجار المتوسطة وأخرى تزهر وتبقى خضراء طيلة فصل الشتاء.

ورفعت على «درابزون» شرفتها الحديدي أوعية مستطيلة زرعت فيها الخبيز والورد. وبات منظر شرفة أستير الخضراء مكملاً للخضار المقابل في قصر فرعون الأثري. فمنزل أستير يقع في منطقة زقاق البلاط في النزلة المؤدية إلى شارع وادي أبو جميل على شمال قصر فرعون.

أما الخواجة فرح، زوج أستير، فقد كان يعمل في إحدى الدوائر الرسمية موظفاً عادياً، وهو الذي كان يتولى ريّ المزروعات على شرفة منزله بعد

غروب الشمس.

ومع تكاثر الأحواض التي زرعتها زوجته، عمد إلى تبديل خزان المياه على «التتخيتة» داخل المنزل بواحد أكبر حجماً. واشترى نربيجاً يسمح له بالوصول إلى كل الأحواض التي انتشرت على الشرفة الرئيسية في المنزل، والتي كانت تلف واجهته الأساسية.

وعندما ينتهي من مهمة الريّ، يجلس مطمئناً إلى أنه نفذ المهمة، منتظراً انتهاء تحضير زوجته للنرجيلة. وباتت رائحة التبغ المحترق المتسللة إلى منازل الجيران المقابلة، إشارة إلى بدء سهرة الخواجة وإعلاناً بالترحيب بمن يرغب بالانضمام إلى تلك الجلسة في حديقة آل فرح الجميلة.

كانت ليلى، ابنة جيران الخواجة فرح الكبرى، تحب هي الأخرى جلسات الشرفات المسائية. وقد ثبتت كرسياً على شرفة منزلها تجلس عليه مساء لمتابعة أحاديث جيرانها المشتتة، والتي تصدر من شرفات عدة. وتتحول جلسة الشرفة هذه عند ليلى صيفاً إلى مكان الجلوس المفضل.

وليلى تسكن في البناء المقابل لبناء الخواجة فرح، وعلى نفس المستوى. وهي تكاد تعرف عدد الأوراق الجديدة في كل شتلة عند آل فرح لكثرة ما كانت تمضي وقتاً في مراقبتها. فقد توقفت ليلى عن الذهاب إلى المدرسة بعد مرض والدتها، وباتت لا تخرج كثيراً حتى تحولت شرفتها إلى متنفسها شبه الوحيد.

لم يكن على شرفة منزل ليلى سوى شجرة كاوتشوك كبرت بشكل عشوائي نتيجة الإهمال. فجميلة والدة ليلى لم تكن تحب الشتول، وكانت تعلل ذلك، رداً على أسئلة ابنتها والجيران، بضيق المساحة والخشية من تكاثر الحشرات.

وقد جاءت أستير يوماً بمقصها ومن دون أن يطلب منها أحد، وقلّمت تلك الكاوتشوكة في شهر التقليم في شباط، علها تكبر بطريقة أنظم.

فتلك الشجرة تطل على شرفتها وهي رغبت حتى في تنظيم المنظر المحيط. ورغم العلاقة التي تربطها بجارتها لم تنجح في إقناعها بنثر بعض البزور في أحواض وعدتها بأن تؤمنها لها للمزيد من الإقناع، لأن الورد على الشرفة جميل ويضيف حياة إلى المكان. حتى إنها وفي زيارتها اليومية لجميلة باتت تكرر الاقتراح والعروض والإغراءات، لكن الجواب بقي ثابتاً.

كانت العلاقة بين الجارتين قد توطدت عندما مرضت جميلة بداء الروماتيزم، ما جعل حركتها صعبة. فزيارات أستير لجارتها أصبحت شبه يومية بعد مرضها ولا سيّما قبل توجهها إلى السوق لسؤالها عما إذا كانت تحتاج شيئاً.

أما الخواجة فرح فلم يكن أقل حناناً على جيرانه. فهو أيضاً بات يمر بانتظام للاطمئنان وللسؤال عن وضع الماء عند جيرانه ولا سيّما في فصل الصيف. فجميلة كانت تنقطع دائماً من الماء لأن خزان منزلها صغير بحجم «تتخيتتها»، والقانون في تلك الفترة لم يكن يسمح بنشر خزانات المياه على أسطح البنايات، ويحصرها داخل المنازل، ما حال دون تكبير حجم الخزان. وغالباً ما كان الخواجة فرح يمد النربيج باتجاه منزل جيرانه لمدهم بالماء.

لم تكن ليلى وحيدة. فقد كان لديها ثلاثة أشقاء هي أكبرهم، تهتم بهم بعد عودتهم من المدرسة وتتولى تدريسهم قبل أن يخرجوا للعب مع أولاد الخواجة فرح.

وكانت أستير غالباً ما تدعو الأطفال إلى منزلها للتخفيف عن جارتها ولا سيّما عندما يبدو عليها التعب. أما ليلى فقد كانت تزور منزل الخواجة فرح لاستعجال أشقائها للعودة ولا تمانع عندما تُدعى للجلوس على الشرفة. كما أنها لم تكن تمانع في الانضمام إلى مائدة جيرانها نزولاً عند إصرارهم في حال صادف وجودها مع موعد العشاء، لأنها تحب طقوس هذه الموائد. فالخواجة فرح يرتدي القلنسوة قبل الجلوس إلى الطاولة، وكذلك يفعل

أبناؤه الصبية، ثم يعمد إلى سكب مشروب في قدح صغير، لون السائل فيه أقرب إلى البني، يرتشف منه القليل ويمرره على أفراد عائلته. ولما عرض عليها المشروب في المرة الأولى ترددت رغم قول الخواجة فرح إنه مشروب مبارك.

يومها أمسكت ليلى بالكأس بحذر الخائف أن يكون فيه شيء من الكحول المحرم في الإسلام. ولما أدركت أستير ذلك، قالت لها إنه مجرد مشروب مصنوع من البلح والزبيب. وعلى مائدة العشاء شرحت لها كيفية تحضيره. فهي تضع الزبيب والتمر داخل وعاء وتترك الخليط كي يخمر. ثم توزعه على زجاجات صغيرة بعد عصره، فيصبح جاهزاً للشرب. وهو يسكب في كأس واحد صغير ويلف على الحاضرين قبل العشاء أو الغداء، تماماً كما كان يفعل الآباء الأوائل في الصحراء، لمقاومة العطش والجوع.

معاملة آل فرح لجيرانهم تحولت إلى مضرب مثل في الحي. حتى عزرا، البائع اليهودي المتجول، كان ينادي على ليلى عندما تكون عنده شتول يمكن أن تحبها زبونته الدائمة أستير، بعد أن اشترت ليلى منه يوما شتلة غاردينيا صغيرة هدية لجارتها.

كان عزرا بائعاً موسمياً تختلف بضاعته حسب الفصول، ففي الشتاء كان يبيع القماش والأزرار والخيطان، وكل لوازم الخياطة. أما في مواسم الخضار صيفاً، فقد كان يبيعها على أنواعها. لكنه لم يكن يحمل صندوقاً يضع فيه أغراضه كما يفعل غالبية الباعة المتجولين. كما أنه لم يكن يلف القماش حول كتفه، إنما كان لديه حمار وضع على جانبيه صندوقين لحفظ توازنه وزيادة الكمية المعروضة للبيع.

وقد كان يجره في الغالب إلا عندما يفرغ الصندوقان. حتى بات ركوبه على حماره إشارة منه إلى نفاد بضاعته.

اعتاد السكان على عزرا، وكانت مناداته مميزة في كل الفصول وبلكنة

حلبية عُرف بها غالبية سكان وادي أبو جميل من اليهود، كان يمشي ويردد: «معانا خيطان، معانا أزرار، معانا..».

حتى بات يخصص بعض الأشخاص بمناداة مميزة، منهم ليلى، فهو عندما كان يصل قرب منزلها مقابل قصر فرعون، يقف وينادي «يلا على البندورة يا ندورة...» ثم يتوقف قليلاً وينتظر حتى تطل ليلى على الشرفة، قبل أن يستأنف تعداد ما يحمل، ثم يعمد إلى ربط الحبل الملفوف على عنق الحمار بعمود الكهرباء عند مدخل الزاروب المؤدي إلى منزل ليلى...

وغالباً ما كانت ليلى تستمهله الدفع لليوم التالي، وغالباً ما كان يقبل وبطيبة خاطر، لكنه لم يكن ينسى أبداً ما له رغم أنه لا يسجل الديون.

كان وصول عزرا إلى الزاروب مناسبة لالتقاء الجيران، وكانت ليلى وأستير بين الحاضرين يومياً ولا سيّما عندما يكون ما يحمله عزرا خضاراً وشتولاً.

لكن اختفاء أستير في أحد الأيام أثار الشكوك لدى ليلى. ظنت أنها تعبة أو مريضة وقررت الانتظار حتى فترة الظهيرة للاطمئنان إليها. لكن سكون الحركة في المنزل بقي مسيطراً طيلة اليوم، فتوقعت أن تكون العائلة قصدت أقرباء لها في بحمدون أو عاليه. إلا أنها سرعان ما استبعدت هذا الاحتمال، لأن الفترة لم تكن فترة عطلة.

لليوم الثاني، ساد المنزل سكون مطبق. وفي صبيحة هذا اليوم، حين تحلق الجيران حول عزرا سألته ليلى عما إذا كان قد رأى الست أستير اليوم أو أمس. وقبل أن يجيب تدخل أحد الجيران وقال إنهم رحلوا، فهو شاهدهم يشحنون كل أثاث منزلهم فجراً قبل يومين.

يومها لم تشترِ ليلى شيئاً من عزرا، كانت قد أمسكت ببعض حبات البندورة لكنها وعندما سمعت جارها يقول هذا، رمت كل شيء وأسرعت عائدة الى المنزل لتخبر والدتها. لكن الوالدة لم تصدق، وقالت إنهم ربما نقلوا

منزلهم. ثم استبعدت هذا الاحتمال لأن أستير لا يمكن أن تفعل هذا من دون أن تخبر جيرانها.

غادر الخواجة فرح إلى فلسطين على الأرجح. شوهد فجراً يشحن عفشه وكان جوابه لمن صادفه وسأله أنه ينقل منزله لكنه عملياً رحل. وقد كان من الأوائل الذين رحلوا قبل النكبة وقيام دولة إسرائيل بعدة سنوات.

وبعد سنوات قليلة تزوجت ليلى وانتقلت للسكن في منطقة كركول الدروز. وعند وفاة والديها وسفر أشقائها إلى البرازيل للعمل عند عمهم، باتت هي الموكلة متابعة أملاك العائلة ولا سيّما المستحقات المتأتية عن تأجير مبنى تملكه في منطقة المعرض في وسط بيروت.

بين المستأجرين إسحق ليفي تاجر الجلود الذي أتى إلى لبنان مطلع الأربعينات من فلسطين حيث تقيم عائلته. ومثله مثل الكثير من التجار اليهود قرر الانتقال إلى لبنان بهدف العمل فيه.

كان إسحق أحب مستأجر الى قلب ليلى، لأنه وقبل كل شيء صديق آل فرح الذين أرشدوه إلى محل والد ليلى عندما عرضه للإيجار. ولأنه أيضاً، أول من يسدد بدل إيجاره. فعندما تصل ليلى إلى محله في بداية الشهر، تجده قد وضع المبلغ في مغلف بانتظارها. حتى أنه كان يلاحق المستأجرين المتخلفين من جيرانه. فيجمع لها بدل الإيجارات بحيث باتت تؤخر مجيئها إلى المبنى لإعطائه الوقت الكافي لجمع مستحقاتها.

كانت تلك الفترة، منتصف الأربعينات، تشهد رحلات كثيرة من بيروت إلى فلسطين. وقد قررت ليلى حينها القيام بتلك الرحلة مع مجموعة من الجيران والأصدقاء. وعندما أسرّت إلى إسحق بنيّتها، أعطاها عنوان أخيه في تلّ أبيب وطلب منها بإلحاح أن تتصل به.

وبوصولها إلى طبريا، اتصلت ليلى به وأخبرته أنها تحمل له سلاماً من شقيقه في لبنان وأنها في زيارة لعدة أيام إلى فلسطين. تواعدا على اللقاء

وقابلها حيث ساحت معه في تل أبيب، ودهشت بخضارها، كما فاجأها جمال بيت لحم والقدس.

اشترت التذكارات للأصحاب، صلباناً من خشب مدموغ من الخلف تأكيداً على قدمها.

بعضها مرصع بالصفد القديم أيضاً.

ولما عادت إلى لبنان، قصدت إسحق وأخبرته عن أحوال شقيقه ونصيحته له بالعودة إلى فلسطين لأن العمل بدأ يزدهر. وقالت له ممازحة إن شقيقه أوصاها بالاهتمام به..وأخرجت من حقيبة يدها علبة نحاسية صغيرة فيها رقاقة كتبت عليها الوصايا العشر بالعبرية والعربية كان يباع مثلها في لبنان ولكنها اختارتها هدية له. ثم نصحته بأن يضعها في مكان ظاهر في محله لإبعاد العين وللبركة.

لكنها فوجئت عندما قال لها إنه يريد أن يضعها في مكان خفيّ كي لا يبدي أحد إعجابه بها لأنه عندها سيضطر إلى إعطائه اياها.

ظنت أنه يمازحها فقالت له إن الهدية لا تُهدى، وفوجئت بشرحه لنظرية عند اليهود لا تحبذ إبقاء الشيء إذا ما استحلاه أحد، لأنه عندها يصبح فأل شر.

ضحكت سلمى لتلك النظرية ووافقته الرأي بوجوب ألا يضع لفافة النحاس تلك خارج درجه بعد أن أقنعها بأن كثيراً من اليهود يعتقدون بذلك، من دون أن يعرف مصدر هذه المقولة الفعلي وخلفياتها التاريخية..

لكن إسحق غادر عائداً إلى فلسطين بعد إعلان قيام دولة إسرائيل.

أتت ليلى كالعادة في بداية الشهر لتحصيل مالها، فدفع لها بدله وما حصله لها من المبنى. وعندما جلست قليلاً لترتاح أبلغها أنه راحل، عازياً السبب إلى الظروف التي تغيرت وإلى إلحاح العائلة هناك وهو إلحاح لم يعد يطاق.

أبلغها أن الأمر قد يتم في أي وقت بعد أن ينتهي من تصفية موجودات

محله، وتمنى عليها ألا تعتب عليه إذا جاءت ورأت الباب مقفلاً ولم تجده.

ثم عرض عليها إيجاراً مسبقاً لشهر كامل، لأنه لم ينذرها قبل فترة معقولة تسمح لها بتأجيره سريعاً، لكنها رفضت وقالت إنها ستتردد على المحل علّها تنجح في لقائه ثانية قبل أن يرحل نهائياً.

وبعد أيام قليلة، جاءت في عزّ النهار على أمل رؤيته، لكن باب المحل الأساسي كان مقفلاً فأدركت عندها أنه غادر. وقفت ثواني ثم قصدت محل القماش الملاصق وطلبت قلماً وورقة، كتبت عليها «محل للإيجار» وخرجت من دون كلام، ورفعتها على الباب الزجاجي للمحل الذي كان يشغله إسحق.

لم تمض أيام قليلة حتى جاء شخص من آل يموت واستأجر المحل وحوله إلى محل لبيع الزجاجيات والأدوات المنزلية.

ومع تحسن أسعار العقارات باعت ليلى محلاتها، الواحد تلو الآخر بعد أن ملت ملاحقة المستأجرين لتسديد بدلات الإيجار، واستهوتها مغريات بنك أنترا للمودعين فاشترت أسهماً بما تملك من سيولة. وهي اليوم لا تملك سوى ورقة بأسهمها بعد أن خسرت كل رصيدها عند إفلاس المصرف منتصف السبعينات.

كي تكون مثل الآخرين عليك أن تكون أفضل منهم

يصف وجهه كأنه واقف أمامه الآن، أو وكأنه مستعد لرسمه وقادر على ذلك.

يقول إن ملامحه حادة، أنفه أقرب إلى الاستدارة في رأسه، عيناه صغيرتان، عسليتان، وجهه مستدير، شعره الناعم يتدلى قليلاً على جبينه لكنه يخفي أذنيه، له سالفان يعرضان كلما اقتربا من جهة الذقن..أما فمه فصغير، وعندما يبتسم تكاد عيناه تختفيان لأن بشرته البيضاء ذات النمش الخفيف مشدودة بشكل لافت، ما حال دون إخفاء شرايين صغيرة زرقاء، تبرزها بشرة الوجه الفاتحة.

إلا أن ماكسي عيديد الذي كانت نظرته تخفي ذكاء حاداً، كان شديد التهذيب ولم يكن كثير الكلام. لكن جملاً غريبة المضمون وغير مفهومة الخلفيات تنفلت منه أحياناً، ومن دون أي سياق، منها مثلاً «يلي مثلنا تعو لعنا».

كان وليد، صديق ماكسي قد سمع هذه الجملة مرات عدة قبلاً. فقد قالتها ديزيريه جارة أمه اليهودية في إحدى جلسات القهوة الصباحية. يومها ظن أنها تقال للمداعبة لأنها أرفقت بضحكات عالية من قبل الحضور.

أما ماكسي فقد قالها بجدية مطلقة عندما وقف مع مجموعة شباب في وادي أبو جميل، يتناقشون في جمال البنات بين الطوائف. لمس وليد شعور تعال عند رفيقه وانغلاقاً على مجتمع يظنه أعضاؤه كاملاً، مكتفياً بما لديه كما

قال وليد لوالده على جلسة العشاء في تلك الليلة.

لم يشاطره والده الرأي لأن بين يهود الوادي كثيراً من أصدقائه المنفتحين والقريبين من الآخرين.«أما ماكسي فما يزال شاباً لم يختبر الحياة بعد، وعندما ينضج ما فيه الكفاية سوف يكون له رأي آخر، لأن عشرة اليهود جميلة» كما قال له والده.

لم يكن وليد يشك في تلك العشرة الطيّبة. فقد كانت مشاريعه مع ماكسي كثيرة، فهما كانا يذهبان بانتظام إلى سينما أمبير في البلد لمتابعة آخر الأفلام. وفي الصيف كانا يذهبان إلى الحمام الفرنسي قرب فندق السان جورج حالياً، كما كانا يشاركان في غالبية سهرات الحي الشبابية.

مع العلم أن ماكسي كان أقل مشاركة بالمشاريع من وليد، فهو أقرب إلى الجدية منه إلى اللهو ويعطي دروسه ساعات طويلة من الوقت، بخلاف وليد الذي كان ينهي عامه الدراسي بصعوبة مَنْ قرر أن ينجح فقط لا أن يتفوق، ويمضي وقته في اللهو، واثقاً من وسامته بحيث بات يلعب على وترها، فجمع حوله من بين صبايا الحي معجبات كثراً. وكان ماكسي عندما يرفض الانضمام إلى مشروع نزهة أو سهرة، يتذرع بدرسه ويقول مازحاً «الإنسان كي يكون مثل الآخرين عليه أن يكون أفضل منهم».

وبخلاف قول «يلّي مثلنا تعو لعنّا» بدا وليد حائراً من معنى ما يكرره ماكسي لتبرير بقائه في المنزل. وفي إحدى المرات عندما زاره وليد واقترح عليه مرافقته إلى سهرة عند صديق مشترك، رفض لأن لديه امتحاناً في الرياضيات بعد ثلاثة أيام. ولما حاول إقناعه بالخروج لأن لديه ما يكفي من الوقت للتحضير لامتحانه، كرر ماكسي القول بأنه يريد أن يثبت أنه أفضل من غيره.

وفي طريق العودة إلى منزله، ثارت في رأس وليد تساؤلات لم يجد لها جواباً، إذ كيف يمكن أن يكون الإنسان مثل الآخرين وفي نفس الوقت

أفضل منهم، ولماذا هذا الهاجس بأن يكون المرء أفضل من غيره؟ ولما شارك والده تلك الأسئلة لم يقتنع بما قاله والده مبرراً بأنه «شعور الأقليات الخائفين من التهميش، لأنهم في سعيهم لفرض وجودهم، يحاولون أن يكونوا مميزين في ما يقومون به، أكان في الدراسة أو التجارة أو الثقافة. فهذا هو سبيل أيّة أقلية لفرض مكانتها في المجتمع». لم يعلق وليد على ما قاله والده مستغرباً هذا التحدي الذي يضع ماكسي نفسه أمامه بينما الحياة تبدو له أقل تعقيداً.

لم تمض سنوات قليلة على توطد علاقة وليد بماكسي بعد أن بات يتفهم سلوكه ونمط حياته وبعض أقواله الغريبة، حتى اختفى. لم يعد أحد يراه. ولم يقل قبل الرحيل إنه يستعد للمغادرة.

فقد ذهب وليد يوماً إلى منزله لزيارته، وعندما فتحت والدته الباب، ابتسمت وسألته «أتريد أن تسأل عن ماكسي؟» لكنها لم تنتظر جوابه وقالت «ذهب إلى أميركا لإكمال دراسته». بدت والدة ماكسي تستعجل إغلاق الباب.

وقف وليد قليلاً، محاولاً سرقة نظرة إلى داخل المنزل في حركة عفوية للتثبت مما قالته، كأنه كان يتوقع أن يراه في الداخل لعل في الأمر عقاباً له بحرمانه من رؤية أصحابه أو الخروج بعد فعلة شائنة فعلها.

بقيت والدة ماكسي واقفة مبتسمة، تنتظر استدارة الشاب إيذانا بالعودة من حيث أتى. ولما لم يفعل أنهت الحديث بطلب نقل السلام إلى أهله، وإن من غير معرفة كما قالت وهي تغلق الباب.

كان ماكسي قد ردد على مسامع وليد أنه سيسافر حتماً لإكمال دراسته في الخارج، وأنه لذلك بحاجة لأعلى علامات في امتحاناته في المدرسة ما يسهل عليه الأمر.

كما أن وليد يعرف أن عائلة ماكسي من الميسورين، وأنها مثلها مثل غالبية ميسوري الطائفة، كانت تفضل أن ترسل أولادها للدراسة في الخارج، في

أوروبا أو في أميركا. كما كان يدرك أن صفوف مدرسة الأليانس اليهودية تنتهي في المرحلة التكميلية ما يجبر الطلاب على الانتقال إلى مدارس أخرى لمتابعة الدراسة الثانوية أو السفر إلى الخارج، وهو ما أعطى تبريراً أو ربما سبباً لسفر الشباب من أبناء الطائفة.

استغرب وليد أن تكون وجهة ماكسي أميركا، فهو درس في الأليانس التي أحدث تأسيسها في الأربعينات فرقاً نوعياً في مستوى تعليم أبناء الطائفة، والتي كانت اللغة الفرنسية هي اللغة الأساسية فيها. فلماذا لم يختر فرنسا مثلاً؟

كما أن ماكسي كان يعرف اللغة العبرية، إذ كانت تدّرس في الأليانس بمعدل ثلاث ساعات في الأسبوع. ولقد نَصَح وليد عدة مرات بأن يحاول أن يدرس في الأليانس لأن مستواها أفضل من مدرسة السان شارل حيث يتابع تحصيله العلمي. ولما استغرب احتمال قبول أشخاص من طوائف أخرى في مدرسة لليهود، فهم وليد أن الأمر ممكن وأن درس اللغة العبرية يصبح عندها اختيارياً.

استعاد وليد سريعاً أحاديثه الأخيرة مع ماكسي بعد أن أقفلت والدته الباب، قاطعة الطريق على طرح أي سؤال.

ثم استدار وبقي لثوان واقفاً يفكر برفيقه محاولاً التذكر عما إذا كان قد ألمح له في أي من لقاءاتهم أنو ينوي السفر قريباً؟

لم يستطع التذكر، وإن كان قد استبعد هذا الاحتمال فذاكرته جيدة. ثم هرول على الدرج وخرج من المبنى القريب من منزله واسترجع صورة والدة ماكسي وكيف استعجلت إقفال الباب، مستغرباً سلوكها هذا وهو الذي زارهم مرات عدة وكانت في كل مرة تقابله بكل ود.

عُرفت والدة ماكسي في الحي بأناقتها، وبشعرها الكستنائي الناعم المصفف بترتيب دائماً بمساعدة من السيشوارات التي أنزلت للأسواق حديثاً في تلك الفترة للحفاظ على شكل التصفيفة خلال ساعات النهار.

وكانت تسير كأنها تمشي على رؤوس الأصابع، وهي كانت لطيفة مع أبناء الحي لكنها لا تختلط كثيراً إلا مع عائلات محدودة من سكان الوادي، غالبيتهم من اليهود.

لم تكن كثيرة التردد على الجيران لكنها عندما تصادفهم في الشارع كانت تتوقف قليلاً للحديث معهم وسؤالهم عن الأحوال والأولاد، من دون تطفل، لأنها بشخصيتها كانت شديدة التحفظ، وكان ماكسي يشبهها إلى حد بعيد.

أثار الخبر الشكوك لدى وليد، عاد أدراجه من منزل ماكسي وهو يتحدث إلى نفسه ويتساءل كيف يمكن أن يكون ماكسي قد ذهب إلى أميركا من دون أن يخبره، ولماذا لم يودعه؟

لام وليد نفسه على هذه الصداقة التي لا يمكن لطرفها الآخر أن يُخطِر بسفر؟ لماذا؟

شعر أن ماكسي لن يعود، وأن الوجهة كانت إسرائيل وليس أميركا وإلا لماذا كل هذا التكتم؟

تذكّر أن ماكسي، وفي الفترة القليلة الفاصلة عن سفره لم يبد رغبة بالمشاركة في كل مشاريع الشلة، خفف من حركته كثيراً. وقد سأله وليد يوماً عن السبب، وهل أحد من الأصدقاء يزعجه بشيء؟ لكن ماكسي نفى وأعاد السبب إلى عدم الرغبة وكم الدرس المتراكم لا غير.

وتكراراً، سأل وليد نفسه هل كان هذا التراجع في الحضور تمهيداً للمغادرة؟ وحتى لا ينتبه إلى ذلك أحد؟

أسئلة كثيرة دارت في رأس وليد في تلك الليلة. كان يمشي ويؤشر بيديه ويهز برأسه من غير إدراك. وقد صادفه شقيقه في الشارع وسأله ضاحكاً عن سبب هذا الجنون؟ ولما وصلا إلى المنزل، بادر شقيق وليد الأهل بالقول إن ابنهم فقد عقله لأنه كان يتجادل مع خياله. ضحك وليد عندما رأى شقيقه

يقلده، كما ضحكت العائلة سائلة عن السبب. وقد أمضت العائلة تلك الليلة تناقش أمر رحيل ماكسي أقرب أصدقاء وليد إليه.

بقي وليد ضمن شلة وادي أبو جميل، وبينها عدد من اليهود، لكنه اتخذ قراراً بعدم التقرب من أحد منهم أو التعلق به، فهو تعلم درساً مفاده أن صحبة اليهود جميلة، كما كان والده يردد على مسامعه، لكن هؤلاء لا يصادِقون إلا أبناء ملتهم وسرعان ما يختفون؟ وما زاد قناعته بصحة قراره أن هذه الشلة كانت تتناقص باستمرار. فحتى شولي، شقيقة ماكسي التي كان بينها وبين وليد نوع من الاستلطاف، كانت ترفض الحديث عن أخيها سوى أنه في الولايات المتحدة لإكمال دراسته.

كان وليد معجباً بشولي. فهي جميلة كوالدتها وأنيقة في حركاتها. وقد كانت تشارك بمشاريع الشلة أحياناً مع أخيها. ومن ثم بعد مغادرته باتت أقرب إلى أفراد المجموعة.

راح وليد وشولي يترافقان إلى سهرات الحي عدة مرات في الشهر. واعتادا اللقاء عصر كل يوم في شارع فرنسا بين الرابعة والخامسة عصراً.

لم تكن شولي هي اليهودية الوحيدة التي أعجب بها وليد في شبابه. فقد خرج مع أكثر من فتاة يهودية بينهن ليديا مزراحي وقد كانت جميلة جداً أيضاً. كما أنه كان معجباً بجمال سوزي أشكينازي، وهي من عائلة يهودية ثرية جداً، تسكن في مبنى جميل من عدة طبقات كان يعرف بمبنى أشكينازي قرب محلات عزيز في منطقة القنطاري عند تخوم وادي أبو جميل.

كانت سوزي وحيدة أهلها، تتردد دائماً على مسبح السان جورج حيث كان وليد يقابلها أحياناً كثيرة قبل أن تتوطد علاقتهما ويترافقا إلى الحفلات سوياً. لكنها اقترنت بشاب يهودي من آل فارحي.

وعلى الرغم من زواجها بقيت متابعة أخبار سوزي محور اهتمام وليد إلى أن رحلت مباشرة بعد النكبة عام 1948. وقد أبلغه دافيد، صديق والده بخبر

انتقال كل العائلة إلى ميلانو، فهو يعرفها ويعرف أهلها وقد زارها مودعاً.
كان دافيد جليس عشاء السبت في منزل وليد. وفي تلك الليلة أبلغ ديفيد أصدقاءه أن الدولة اللبنانية اتخذت قراراً حظرت فيه العمل في نادي مكابي الذي أسسه اليهود عام 1924 في وادي أبو جميل، وبنوه في أرض متممة للأرض حيث الكنيس اليهودي ماغين أبراهام. وقد كان دافيد عضواً في النادي وقائداً كشفياً فيه. انتقد دافيد في تلك الجلسة قرار السلطة اللبنانية تجميد العمل في نادي مكابي، كما لام رؤساء الطائفة ومسؤولي النادي لأنهم يتحملون جزءاً كبيراً من المسؤولية بعد أن قرروا قبل عدة سنوات إلحاق النادي بـ «مكابي إسرائيل» ومقرها فلسطين، ما مهد للإقفال.

كان وليد يعرف هذا النادي تماماً، فصديقه ماكسي عضو في فريق كرة الطائرة التابع له بينما كان هو عضواً في فريق كرة الطائرة لشباب الوادي من غير اليهود. وقد تحول فريق نادي مكابي إلى واحد من أهم الفرق الرياضية، حتى أنه هزم فريق الأنترانيك الأرمني المعروف باحترافه.

استغرب والد وليد قرار إقفال النادي ولا سيّما أن دافيد توسع في الحديث عن نشاطه في كل المجالات الرياضية والفنية والثقافية فلماذا هذا القرار؟ أما القول إن اقتصاره على أبناء الطائفة يثير الريبة، فهذا أمر مستغرب أيضاً كما قال دافيد في تلك السهرة لأن هدف النادي تأمين التواصل بين أبناء الطائفة وليست له أهداف سياسية.

انتظر وليد خروج دافيد ليعبر عن رأيه لأنه لا يريد أن يخيفه أو يثير لديه الشكوك. فهو يعتقد أن خلفيات القرار هي الخوف من احتكاكات مذهبية على خلفية سياسية، خاصة أن فرقة الكشافة اليهودية في نادي مكابي، تحولت إلى شبه ميليشيا تحت عنوان حماية اليهود في الحي، وزُودت لهذه الغاية بعصي لاستخدامها عند الحاجة بعد خروج التظاهرات ضد قرار تقسيم فلسطين كما قال وليد لوالده.

غاب دافيد يومين وعاد لزيارة صديقه وأخبره بحضور وليد، أن وفداً من مجلس الطائفة زار وزارة الداخلية للاستفسار عن قرار المنع، فسمع أن لا شيء ضد النادي لكونه نادياً لليهود، إنما القرار يشمل حظر الفرق الكشفية في كل لبنان منعاً للاحتكاكات المذهبية.

أخبر دافيد أصدقاءه أن القرار شمل أيضاً جمعية النهضة التي تأسست في أوساط شباب الشيعة والغساسنة التي تأسست في أوساط الروم والنجادة في أوساط السنة وفرقة الكتائب الكشفية في أوساط الموارنة.

لم يعلق والد وليد على ما سمع للتو، ونظر إلى ابنه مستغرباً وكأنه يسأله التدقيق أو التعليق ولا سيّما أن وليد سبق أن أخبر والده أن التوتر المتصاعد على خلفية تطورات القضية الفلسطينية دفع أبناء الطائفة اليهودية في لبنان إلى التفكير في كيفية حماية الحي عبر حراسة ليلية لعناصر الكشافة بعد تجهيزهم بعصيّ.

ولما لم يُبدِ وليد رغبة بالمشاركة في الحديث سأل الوالد دافيد عن صحة ما أخبره به ابنه، فسمع تبريراً يعيد تزويد أعضاء النادي بالعصي إلى الخوف الذي يسود أبناء الطائفة بفعل تصاعد الشعور بالعداء لليهود بعد قيام دولة إسرائيل. لكن هذا القرار طوي بعد أن سمع وفد مجلس الطائفة من مسؤولي وزارة الداخلية تطمينات بتعزيز الوجود الأمني للدرك وباستحداث مركز جديد في وادي أبو جميل.

كان نادي مكابي عملياً قد فقد الكثير من أعضائه بفعل الهجرة. وجاء تعليق العمل فيه في عز الرحيل. ومع انفراط عقد فريق كرة الطائرة في النادي، انفرط عقد فريق الحي المقابل لأن لا منافس لمواجهته وإن كان نادي مكابي يتعاطى مع فريق الحي على أن المباراة معه هي التدرب فقط.

فَقَدَ وليد عملياً كل رفاقه اليهود خلال السنوات التي تلت، وكان آخرهم دافيد الذي أتى مودعاً والده قبل أن يغادر إلى المكسيك عند أشقائه.

لم يحاول أحد من أصدقاء وليد الاتصال به ولم يلتق أحداً من اليهود إلا بعد انتهاء الحرب عندما قرر جيرار، صديقه القديم، الاحتفال بعيد ميلاده الخمسين. كان جيرار وهو من أبناء وادي أبو جميل من الطائفة المسيحية قد غادر لبنان باكراً للعلم ثم للعمل، وقرر بعد مغادرته بسنوات طويلة، أن يحتفل بعيد ميلاده في المهجر وأن يدعو كل أصدقائه السابقين بمن فيهم أصدقاؤه من اليهود. فهو وبفعل وجوده في الخارج بقي على اتصال بهم، حتى أولئك الذين غادروا إلى إسرائيل، ومن بينهم أحد الفنانين ويدعى آلان.

لم يأت إلى ذلك اللقاء العديد من أصدقاء وليد المقربين، لكنه التقى بمجموعة من شباب الحي كانت قد غادرت تباعاً. ولما دخل إلى قاعة الاحتفال في أحد الفنادق في مدينة كان جنوب فرنسا، تعرف بصعوبة على هؤلاء الاشخاص، فقد تغيرت ملامحهم.

كان وليد يدرك أنه هو أيضاً قد تغير فلم يعد شعره بنفس الكثافة التي كان عليها أيام الشباب، وهو بات يرفع خصلات شعره الأبيض إلى الخلف لإخفاء لمعان رقعة واسعة في رأسه تساقط الشعر منها مع مرور الوقت.

كما أن سالفيه، وحسب موضة التسعينات كانا عاليين إلى حدود أعلى الأذن، ولم يعودا غليظين يتقدمان حتى منتصف الخدين تقريباً كما كان حال الموضة منتصف الخمسينات. أما النمش فقد نما في وجهه الأبيض، بينما تغير شكل جسده كلياً بعدما تضاعف وزنه..

تقدم ببطء، منتظراً أن يتعرف أحد عليه، لكن الشخص الوحيد الذي عرفه كان صديقه الداعي لهذا اللقاء، والذي لم تنقطع زياراته إلى لبنان بين هدنة وأخرى خلال الحرب.

تقدم منه وتعانقا، ثم لف يده حول كتفه وتقدم وإياه لتعريفه بالأصدقاء القدامى.

مر على الحلقات وألقى التحية من دون أن يتعرف على أحد، وبينما كان يدور بعينيه على الحضور شعر بيد على كتفه وسمع صوتاً يسميه باسمه، ولما التفت تأكد أن الوجه مألوف. وقف وليد يحدق في ملامح هذا الشخص الباسم، وضع كفاً على خده وهو يحاول أن يتذكر. وتدريجياً استعاد ذلك الوجه، إنه ابن الخواجة أستاذ الجامعة الأميركية الذي كان يسكن البناء المقابل لمنزله. ابتسم وهز رأسه للتأكيد على أنه تعرف إليه، لكنه استمهله لتذكر الاسم، أغمض عينيه ووضع يده على جبينه محاولاً أن يتذكر. لم ينتظر الرجل كثيراً وقال له « سولومون ». فتح وليد عينيه وهز برأسه ثم مد يده فتصافحا وتعانقا وضحكا من دون أن يجدا شيئاً يقولانه في تلك اللحظات.

بقي الحديث عاماً عن أيام الوادي والنوادي الرياضية التي كانا عضوين فيها من مواقع متنافسة. وبينما كان الاثنان يستعيدان ذكريات أيام الصبا، تقدم رجل منهما وابتسم لوليد من دون أن يعرف عن نفسه. وقف وليد الوقفة نفسها التي وقفها عندما قدمّه صديقه إلى سولومون، لكن عينيه وقعتا على نجمة داود وضعها هذا الرجل على سترته.

وضع الرجل يده عليها بعد أن لاحظ ارتباك وليد، وأبلغه أن صاحب العيد تمنى عليه أن ينزعها لأنها قد تستفز بعض الحضور وسأله عما إذا كانت تزعجه؟ فوجئ وليد بالسؤال، لكنه سارع إلى القول، وهو يحاول ألا يوتر الأجواء، إنه يأتي من لبنان وإن هذه النجمة ترتفع في قلب العلم الإسرائيلي في شريط من القرى اللبنانية المحتلة في الجنوب.

ابتسم حامل النجمة المسدسة الأضلاع، وانسحب من دون أن يتمكن وليد من تذكر هويته ومن دون أن يبادر إلى السؤال عن هويته..

تمحور الحديث في تلك الجلسة حول لبنان والحياة فيه.

بعضهم تحدث عن حسن حظه لأنه غادر في الوقت المناسب بحيث تمكن

من تسييل ممتلكاته قبل انهيار الأسعار واشتداد المعارك وتوسعها، والبعض الآخر تحدث عن رغبة العيش مجدداً في لبنان إذا تحسنت الأحوال..

منهم من قال إن مغادرة اليهود لم تكن بسبب اضطهاد لحق بهم إنما خوفاً من انعكاسات صراع هو أكبر من الدولة اللبنانية ومن قدرة اللبنانيين على التصدي له.

كثيرون تذكروا عادات أهالي وادي أبو جميل والحياة «الحلوة» والبائعين الجوالين وسوق الخضار وأسواق البلد، وتلك الزواريب التي كانت تطلق عليها أسماء العائلات التي كانت تقطنها، زاروب آل المن، زاروب آل فارحي، زاروب آل مزراحي وغيرها. منهم من أبدى رغبة بالعودة ومنهم من قال إنه عاد فعلاً بعد الحرب لتفقد ممتلكاته أو لزيارة أصدقائه، مستفيداً من جواز سفر أجنبي تمكن من الحصول عليه في بلد المهجر.

سمع وليد أحدهم يروي كيف أرسل ابنته إلى بيروت بعد العام 2000 لقضاء عطلة فصل الصيف بعد أن أصرت على تعلم اللغة العربية في كندا حيث تعيش العائلة. ثم، كيف أبلغته بعد عودتها إلى كندا أن لبنان سيكون وجهتها الرئيسية في عطلها دائماً. تحدث هذا الرجل عن قراره العودة إلى لبنان للعيش فيه بعد تقاعده من عمله الحالي، إذا سمحت الظروف بذلك. وأمام دهشة الحاضرين وتشكيكهم، قلّل من هذا الاحتمال لأن ابنه وبخلاف ابنته لا يرغب بتعلم اللغة العربية ولا بزيارة لبنان.

في تلك الجلسة، علم وليد أن بعض يهود لبنان أسسوا موقعاً على الأنترنيت لإعادة وصل ما انقطع بينهم بعد أن تشتتوا في أصقاع الأرض. ظنّ أنه من خلاله، يستطيع الاتصال بأصدقائه السابقين، لكن هذا الموقع الإلكتروني هو خاص بهم ومرمز لحصر مستخدميه بأبناء الطائفة، وقد شكل وسيلة للتواصل بين يهود لبنان المنتشرين في كل أرجاء العالم. كما علم أن فيلماً وثائقياً يجري إعداده عن يهود لبنان، هو عبارة عن شهادات

من سبق أن عاش فيه من أبناء الطائفة، فتحمس عله يرى من عرفهم أيام الشباب.

شكل هذا اللقاء بالنسبة لوليد أول صلة بفترة ظنّ أنه لن يعود إليها ثانية. وعاد إلى لبنان منتظراً عرض الفيلم في مهرجان خاص من تلك المهرجانات المتعددة التي يعرفها لبنان، لكن ذلك لم يحصل. فالفيلم لم يعرض في بيروت.

وبعد سنوات قليلة على عرض الفيلم غير التجاري في أوروبا، تمكن وليد من الحصول على نسخة منه.

جمع في منزله عدداً من أصدقائه من سكان وادي أبو جميل السابقين، وحضر معهم هذا الوثائقي.

استعاد بعضهم وجوهاً قابلها معد الفيلم، وهو لبناني غادر بعد اندلاع الحرب الأهلية. استمع وليد إلى تعليقات الحضوركلما ظهرعلى الشاشة الصغيرة من تذكروا وجهه، لكنه بقي صامتاً متفاجئاً بحنين من استمع إليهم وهم يروون أيام عيشتهم في لبنان..

مايجر مايك

عاش محمود كل حياته في وادي أبو جميل. ولد في أحيائها وبقي فيها بعد الزواج، وهو نادراً ما يخرج منها لأنه يعمل في الوادي أيضاً. فهو صاحب دكان صغير ورثه عن أبيه.

يروي أنه عاش بين اليهود ولم يكن يفرق بين الطوائف. وقد كان لديه الكثير من الأصدقاء من المسيحيين. لكن بين شلته الضيقة عدداً كبير من اليهود، فهم الأكثرية في الوادي. كما كانت تربط والده بيهود وادي أبو جميل علاقات صداقة وتبادل زيارات.

يذكر محمود أن أحد الحاخامين الذين خدموا في «سيناغوغ» العاصمة اللبنانية ولعبوا دوراً أساسياً في تشجيع الناس على الرحيل، كان يجلس أمام محل والده، على كرسي صغير، يرقب المارة ويتابع حركة الشارع. وقد فاتحه ذات يوم بإمكانية تأمين هجرته إذا كان يرغب بذلك، فالأوضاع في المنطقة لا تنذر باستقرار، إنما بخضات لن يكون لبنان بعيداً عنها نتيجة تركيبته الهشة كما كان يقول. ولما استفسر أبو محمود عن وجهة الهجرة المقترحة، أبلغه الحاخام أنها قبرص بداية ومن ثم إسرائيل.

كان أبو محمود صاحب الدكان مسلماً، وكان عدد المسلمين في الوادي قليلاً. وهو تمتع بعلاقات جيدة مع جيرانه على الرغم من أن اليهود، وحسب ما هو شائع، لا يشترون إلا من اليهود. وعندما توفي صديقاه تباعاً، واحد من آل مزراحي وآخر من آل المنّ دفع مساعدة مالية لتأمين مراسم الدفن،

لأن الحاخام رفض المساعدة، فهو كان على خلاف معهما ورفض الاعتراف بهما لأسباب بقيت مجهولة. إلا أن أبو محمود توقع أن يكون السبب في قبول الرجلين تزويج ابنتيهما لمسيحيين بعد أن غيرا دينهما.

أخبار هذه المساعدة المالية انتشرت في الحي وأثارت استغراب البعض، لجهة اضطرار يهودي أن يقبل مالاً من مسلم، مع أن أبناء الطائفة من سكان الحي لم يبدوا كثير تعاطف مع الرجلين قبل وفاتهما بعد أن تجاهلا نصائح الحاخام ودفعا بالتالي إلى قرار يحرم الزواج من خارج الطائفة خاصة أن النساء هن الأصل، فالأولاد يتبعون دين المرأة عند اليهود وأية خطوة تؤدي إلى خسارة أي فرد من أبناء الطائفة غير مقبولة، خاصة في وضع كوضع اليهود في لبنان حيث هم أقل الأقليات...

توفي أبو محمود مطلع السبعينات، وأكمل أولاده مكانه في نفس الدكان. لكن الحي في تلك الفترة كان قد فرغ تقريباً من اليهود إلا القليل القليل ممن قرر البقاء. وجاءت حرب السنتين التي دارت على تخوم تلك المنطقة واجتياح المقاتلين لها، ليهجر سكانها من كل الطوائف.

دخل المسلحون المنازل وعبثوا بمحتوياتها، حتى تحولت وادي أبو جميل إلى خط تماس ومنطقة شبه مهجورة. ومع انتهاء حرب السنتين عاد عدد قليل من سكان الوادي من غير اليهود.

تطورت الأحداث وتطور العمل الفدائي من لبنان. لاحت في الأفق أجواء حرب طاحنة. صعّدت إسرائيل من تهديداتها. وبدا أن الاستعدادات لاجتياح بري واسع قد خرجت إلى العلن، فالصحف والتصريحات والمواقف باتت تتحدث عن هذا الموضوع.

كانت الغارات على بيروت قد تكثفت.

لم يكترث محمود لتلك الأخبار، فهو اعتاد الخضات منذ حرب العام 1975، لكنه عندما قرأ عنوان صحيفة بيروتية في حزيران عام 1982 عن

إطلاق الرصاص على السفير الإسرائيلي في لندن توقع حصول شيء كبير.

في ذلك اليوم قرر مضاعفة مشترياته للمحل لعل وعسى... ركب سيارته وتوجه إلى صبرا حيث يتبضع عادة. كدس المعلبات وزجاجات الماء والخبز وعاد إلى محله في الوادي على وقع هدير الطائرات الإسرائيلية التي خرجت إلى الأجواء اللبنانية منذرة بعظائم الأمور.

وبعد ساعات قليلة بدأت تلك الطائرات ترمي حممها على الجامعة العربية والمدينة الرياضية، حيث مخازن السلاح والذخيرة لحركة فتح. وكانت الغارات على الجنوب تتواصل هي الأخرى وعلى غالبية المخيمات والمواقع الفلسطينية.

بدأت الإذاعات تتحدث عن تقدم بري للجيش الإسرائيلي. انقطعت الكهرباء ولم يستطع محمود في ذلك اليوم رؤية نشرة الأخبار على تلفزيون لبنان للتأكد فعلاً من أن إسرائيل تتقدم.

خاف على أولاده واحتار إلى أين يتجه، لكنه بيروتي وليس لديه مكان آخر ينقل عائلته إليه.

كما أنه خاف صرف ما ادخره من مال على شقة في المنطقة الشرقية من العاصمة حيث كانت العائلات البيروتية الميسورة تلجأ، لأنها المكان الأكثر أمناً بفعل الحلف بين إسرائيل والقوات اللبنانية التي كانت تسيطر على المناطق المسيحية بين المتحف ومنطقة البربارة شمالاً...حتى إن إسرائيل نصبت مرابض مدفعية لها في ضواحي بيروت الشرقية قصفت منها العاصمة اللبنانية بيروت.

وبينما كان حائراً من أمره، مهموماً وقلقاً على عائلته، دخل أحد جيرانه للتبضع خشية أن يحول تطور الأمور دون وصول المواد الغذائية الى العاصمة.

فرح محمود لهذه الزيارة لأن جاره كان مسيساً، تصله كل صباح جريدة

اليوم، ويوصف بأنه محلل الحي. وهو كان يمشي بين أبناء الوادي فخوراً بتلك النظرة إليه، نظرة العارف ببواطن الأمور.

إنهال محمود عليه بالأسئلة حول الاحتمالات وما يمكن أن يحصل لبيروت، فهو لا يستطيع نقل عائلته خارج العاصمة كما فعل كثيرون إذ لا مكان آخر يلجأ إليه.

طمأنه الجار الى أن بيروت بمأمن، وأخبره عن مقالة قرأها هذا الصباح تؤكد استناداً إلى مصادر دبلوماسية أن إسرائيل لن تتخطى نهر الأولي إلى الشمال من مدينة صيدا. فهي لو فعلت تكون قد تخطت الخط الأحمر. لم يفهم محمود معنى الخط الأحمر، على الرغم أنه سبق أن سمعه خلال الحرب الأهلية مرات ومرات. فمرة قيل إن سقوط سوق الغرب في الجبل خط أحمر لأنها تحسم رجحان أي من الفريقين المتقاتلين، لأن موقعها استراتيجي. ومرة قيل إن إقفال طريق الشام الدولية خط أحمر، ومرة أخرى أعلن أن تخطي إسرائيل الشريط الحدودي عند حدود الليطاني خط أحمر، فما هو هذا الخط؟... حاول الجار العارف شرح أبعاد الخط الأحمر ومعانيه. لكن محمود لم يفهم، واستفسر عما إذا كان هذا الخط مرسوماً ما قبل الدول على خريطة أم ماذا؟ وماذا لو تخطته إسرائيل؟ ولما أطال الجار الشرح لم يعد محمود ينصت وشرد في أفكاره وقلقه.

لم يمر على هذا النقاش يومان حتى تخطت إسرائيل الخط الأحمر، وعبرت نهر الأولي ووصلت إلى العاصمة اللبنانية بيروت. راجع محمود جاره العارف، فشرح له الأخير الخلفيات الدينية لذلك، لأن الخط الأحمر ليس فقط سياسياً. توتر محمود من مبررات الجار الدائمة عندما يخطئ في التقدير. شرح له ما قرأه في إحدى الصحف من أن الجنود الإسرائيليين، وعندما وصلوا إلى الأولي طلبوا موافقة الحاخامين لتخطيه، لأنهم بذلك يتخطون حدود أرض إسرائيل التوراتية.

لم يعر محمود انتباهاً كبيراً لما سمع ولا سيّما أن جاره كان يستشيط غضباً من أطماع إسرائيل التي وصلت إلى حد اعتبار الجهة الجنوبية حتى الأولي أراضي إسرائيلية تاريخية. وكرر له أن تخطي الأولي أمر مستجد وأن تحليله الأولي دقيق، وإلا لماذا لم يأخذ الجيش الإسرائيلي إذن تخطي الأولي قبل بدء الاجتياح؟

أحكم الجيش الإسرائيلي الطوق على العاصمة اللبنانية بيروت، وقطع كل المعابر المؤدية إليها إلا واحداً هو معبر غاليري سمعان إلى الجنوب من العاصمة اللبنانية. أطلقت الطائرات الحربية الإسرائيلية المناشير فوق العاصمة تطلب من الناس إخلاءها. وحملت المناشير خرائط الطرق التي على الناس سلوكها. حمل محمود أحد هذه المناشير. أقفل دكانه الذي بدأ يفرغ من محتوياته، وهرول مسرعاً إلى منزله.

صرخت زوجته بوجهه ودعته لرميها لأنها تحمل سموماً، هكذا قالت لها جارتها مريم وحذرتها من عواقب لمسها. ثم حملت إليه وعاء القمامة، هزته مرات عدة تحت يده لتثير انتباهه، لكنه لم يرمها، وبقي يحدق فيها ويقرأ حروفها حتى ضربت يديه بحافّه الوعاء فسقط المنشور فيه. ثم طلبت منه الإسراع في غسل يديه، وسارعت بسكب المطهرات عليها.

توقعت الزوجة بدء الاحمرار بين لحظة وأخرى على جلدة يد محمود، لكن قرع باب المنزل قطع عليها قلق التسمم. فتحت الباب ووجدت قارئ الصحف العارف بالأمور.

لم يرغب بالدخول وأردف سريعاً أنه مغادر عند صديق له في المنطقة الشرقية، وحذرهما من أن الأمور تتجه نحو التأزم، ونصحهما بالرحيل، فهو قرأ للتو في إحدى الصحف المحلية ترجمة لنصوص التوراة. انتظر ثواني لمعرفة ما إذا كان لدى جيرانه رغبة في أن يكمل، ولما رآهما ينتظران، قال لهما بداية إنه لم يعد يذكر النص بالدقة لكنه مستخرج من قول من موسى

ليوشاع. وهذا القول هو نصيحة بعدم الدخول إلى أية مدينة قبل تدميرها كي لا يتكرر ما حصل في مصر عندما دخلوا واعتنقوا الأديان المحلية، نظراً لقوة المدينة بالنسبة لهؤلاء الرعاة الجدد.

ارتكز العارف ببواطن الأمور على ما قرأه ليتوقع قصفاً تدميرياً واجتياحاً للعاصمة، وإلا لماذا تطلب إسرائيل من الناس إخلاء العاصمة؟

بدأت بيروت تفرغ من سكانها، وكان مشهد الازدحام على معبر غاليري سمعان مستديرة الصياد للخارجين مع حقائبهم سيراً على الأقدام هو الطاغي.

قطعت إسرائيل المياه والكهرباء عن العاصمة. ومنعت دخول المواد الغذائية ولا سيّما الطحين لتشديد الضغط وفرض الاستسلام على ياسر عرفات ومنظمة التحرير.

كان تفتيش الخارجين من العاصمة يتم سريعاً، مع العلم أن أناساً كثراً أوقفوا على ذاك المعبر وما زال مصيرهم مجهولاً حتى الآن. أما تفتيش العائدين فقد كان دقيقاً منعاً لإدخال أي شيء إلى العاصمة المحاصرة.

وبعد شهر على حصار بيروت، نفد الطحين من الأفران في محيط منزل محمود. وفرغ دكانه من المواد الغذائية من معلبات وأجبان مصنعة وغيرها، فقرر التوجه إلى المنطقة الشرقية لشراء بعض الحاجات للعائلة. اشترى خبزاً ومعلبات وأجباناً ووضعها في حقيبة يد كبيرة، لكن كل محتويات تلك الحقيبة صودرت.

عاد إلى منزله فارغ اليدين، وأخبر زوجته بما حصل معه على الحاجز الإسرائيلي، وما شاهده أمام عينيه. وروى لها كيف أفرغ الجنود الإسرائيليون زجاجات الماء التي كان يحاول البعض نقلها. كانت تفتح وتفرغ أمام أعين حامليها.

لازم محمود منزله. وكان يتردد على دكانه حيث كان سكان الحي

يجتمعون لسماع الأخبار، وقد وضع أكياس رمل عند مدخل محله لحماية من بالداخل من شظايا القذائف، ما شجع الناس على التجمع فيه. كانت الأخبار تتحدث يومياً عن غارات تستهدف مخابئ محتملة لياسر عرفات الذي كن ينجو في كل مرة من محاولة استهدافه. أبرز هذه الغارات تلك التي استهدفت مبنى عكر في الصنائع بعد أن غادره بدقائق.. يومها أنزل البناء بقنبلة فراغية قتلت كل من كان في داخله وعددهم بالعشرات..فرغت الشوارع في بيروت يومها إلا من سيارات الإسعاف..

كان الحصار الإسرائيلي على العاصمة يشتد للمزيد من الضغط. وفي أحد تلك الأيام سارع محمود إلى منزله لإبلاغ زوجته باحتمال حصول انفراج، فهو سمع على الراديو للتو أن واشنطن أوفدت شخصاً من أصل لبناني اسمه فيليب حبيب في محاولة لإيجاد حل. وفي اليوم التالي بدأت وسائل الإعلام تتناقل مضمون ما حمله حبيب من اقتراح يتعلق بخروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت عبر البحر إلى دول عربية جرى التنسيق معها لإيواء هؤلاء المقاتلين. ويقضي الاقتراح أيضاً بأن يخرج هؤلاء بسلاحهم الفردي.

لكن ما حير محمود أن وصول حبيب ولقاءه مع المسؤولين تلاه اشتداد كبير في القصف بحيث عمدت إسرائيل إلى قصف بيروت بشكل واسع وعنيف وغير مسبوق، من البر والبحر والجو، وعلى مدى أيام ثلاثة متواصلة.

فهم محمود في ما بعد أن القصف هذا كان للضغط على عرفات لأن الأخير، وبعد جنون الأيام الثلاثة، أبلغ رئيس الحكومة في تلك الفترة شفيق الوزان الموافقة بشرط عدم دخول إسرائيل إلى بيروت، وبشرط الحصول على ضمانات بألا تقتحم المخيمات الفلسطينية وبأن يترك المقاتلون الباقون في حال سبيلهم داخل مخيماتهم. حصل عرفات على تلك الضمانات وبدأ الرحيل.

قُسّم المقاتلون المغادرون مجموعات، ورحلوا على مدى أيام عدة عبر مرفأ بيروت.

كانت نقطة التجمع ساحة حبيب أبي شهلا قرب مخيم مار الياس الفلسطيني في منطقة الأونيسكو في بيروت، ومنها نقلوا بالشاحنات إلى المرفأ، ومنه ببواخر إلى الدول العربية التي وافقت على استقبالهم.

خرج محمود مع غيره من سكان الحي لوداع الفلسطينيين المغادرين في مشهد تكرر على طول الطريق المؤدي إلى مرفأ بيروت. لم يصدق أن هذا يحصل بالفعل وبدا قلقاً على ما يمكن أن تحمله الأيام المقبلة.

بينما لازمت زوجته اعتصام النساء في الجامعة الأميركية ضد الاجتياح الإسرائيلي، وهو اعتصام تحدثت عنه كل وسائل الإعلام الأجنبية لأنه في مرحلة من مراحل حصار بيروت تحول إلى إضراب عن الطعام.

وفي 14 أيلول حصل ما لم يكن متوقعاً، فقد اغتيل الرئيس المنتخب بشير الجميل قائد الميلشيات المتحالفة مع إسرائيل. لم تمض ساعات على الاغتيال حتى دخلت القوات الإسرائيلية إلى بيروت ومعها القوات اللبنانية.

ارتعب محمود من تلك التطورات، وانتابه الخوف، خاصة بعدما سمع عن مجزرة حصلت في مخيمي صبرا وشاتيلا.استيقظ باكراً ذات صباح ووضع الموجة على إذاعة مونتي كارلو. لم يصدق مضمون ما كان المذيع يقوله بصوت متهدج حزين.

إسترسل المذيع بوصف الحالة داخل المخيم، الجثث المنتفخة، المتراكمة على جانبي الطريق الضيق داخل المخيم وفي منازله، نساء ورجال ذبحوا وكدست جثثهم عند مدخل المخيم وفي داخله.

وضع محمود رأسه بين يديه وبكى، وتمنى لو يستطيع أحد أن يلقن إسرائيل درساً على فعلتها.

لم تمض ساعات قليلة على دخول إسرائيل بيروت وتجوالها فيها بحرية،

وكأن المهمة انتهت، حتى انطلقت العمليات ضد القوات الإسرائيلية.

حصلت عملية الرمل الظريف. قرأ تفاصيلها في صحيفة **السفير** في اليوم التالي. هجوم على دورية إسرائيلية وهستيريا في صفوف الجنود الإسرائيليين. بعدها سمع عن شاب تقدم من جنود إسرائيليين جلسوا في مقهى الوينبي في الحمرا، وعند أقرب نقطة إليهم شهر مسدساً وأطلق النار عليهم عن قرب ثم رمى المسدس وفر.

توالت أخبار العمليات ضد القوات الإسرائيلية، ومنها واحدة قرب محطة أيوب لبيع المحروقات في منطقة زقاق البلاط، حيث تعرض تجمع للجنود الإسرائيليين لقذائف آر بي جي. ثم حصلت عملية أخرى قرب حديقة الصنائع، وهي العملية التي لا يمكن لمحمود أن ينسى تاريخها أبداً لأن اسم شقيقه دُسّ في تلك العملية وجاءت القوات الإسرائيلية تبحث عنه.

كان محمود داخل دكانه يسمع الأخبار عبر الإذاعة اللبنانية، مصدره الوحيد في تلك الفترة. كان يسمع أحياناً صوت لبنان التي يملكها حزب الكتائب لأن إرسالها كان قوياً لكنها كانت تثير أعصابه. أما إذاعة صوت فلسطين التي كانت تبث من الفاكهاني قد قصفت من الجو وتوقفت، أو ضعف إرسالها، بحيث لم يعد يسمعها في دكانه الصغير. فقد كانت منطقة الفاكهاني معقل حركة فتح والمقر الرئيسي لياسر عرفات، وهي تعرضت لسلسة غارات جوية منذ بدء الاجتياح في الرابع من حزيران عام 1982.

لم تنقل الإذاعة اللبنانية أية أخبار عن انفجار سمعه للتو، وكان قريباً جداً، لم تقل شيئاً عن طبيعة الاشتباك الذي تلاه، لكن المعلومات التى وردت بالتواتر أشارت إلى أن عملية استهدفت دورية إسرائيلية أو تجمعاً للقوات الإسرائيلية في منطقة الصنائع.

كان دكان محمود يشهد زحمة جيران أتوا لتتبع الأخبار، فرحين بانطلاق

عمليات المقاومة بعد أن كان بلوغ بيروت سريعاً، ولم يستغرق أكثر من يومين. بدأت الروايات تتوالى عن تلك العملية، فمنهم من قال إن سيارة مرت مسرعة أمام تجمع للقوات الإسرائيلية في منطقة الصنائع ورمت عليهم قنبلة. والبعض الآخر تحدث عن قنبلتين رمتهما سيارة فرت مسرعة من دون أن تتمكن القوات الإسرائيلية من اللحاق بها وسط هستيريا أصابت الجنود فعمدوا إلى إطلاق النار في كل اتجاه.

وبينما كان النقاش على أشده في دكان محمود، جاء سعد جار محمود في مبنى عيتاني في الوادي، وأبلغه أن المبنى بمنازله كافة اقتحم من قبل القوات الإسرائيلية، وأن الجنود الإسرائيليين يسألون عن شقيقه بين طوابقه لأنهم لم يجدوه في المنزل.

تحدث سعد بسرعة وهو يتلفت خلفه لربما الجنود وراءه، ونصح محمود بالفرار. لم تمض سوى ربع ساعة على نصيحة سعد حتى توقف جيبان إسرائيليان أمام الدكان الصغير المؤلف من واجهتين ومن مدخل واحد.

نزل الجنود، وأخذ بعضهم استحكامات في محيط المكان بينما دخل اثنان الدكان بينهم ضابط طويل أقرب إلى السمرة منه إلى البياض، شاب في العقد الثالث على الأرجح. لم يكن يضع خوذة على رأسه بخلاف الجنود في الخارج، لكنه كان يرتدي السترة الواقية ويحمل بندقيته من طراز أم 16، وعلى خصره مسدس وفي يده جهاز كان يخش خشة الأجهزة العسكرية، وتصدح منه أحياناً أصوات تتحدث بلغة لا يفهمها محمود لكنه تذكر رنتها من أيام الوادي.

تقدم الضابط من مدخل محل محمود، وقف ثواني على الباب قبل أن يدخل ويطلب من الجميع الخروج بلغة عربية وبلكنة لبنانية واضحة قال «لبرا كلكن».

خرج من كان داخل المحل، نهض محمود من خلف الطاولة للتوجه إلى

الباب إلا أن الضابط أشّر إليه بالبقاء، ثم رفع يده وأومأ له بالجلوس. فاجأ هذا الضابط الجميع في الدكان بلغته العربية ولكنته اللبنانية.

وبعد أن فرغ المحل، دخل جندي آخر إليه، من عمر الضابط تقريباً، لكنه مستدير الوجه، أشقر الشعر، أبيض الوجه، ويحمل بندقيته على كتفه خلف رقبته، تماماً كما اعتاد محمود أن يرى الجنود الإسرائيليين في الصور، يحملون سلاحهم بطريقةٍ خاصة، فطول الحزام الذي يمسك البندقية من رأسها حتى أخمصها يجعلها تتدلى إلى مستوى الخصر وبمتناول كف اليد الممدودة.

تقدم الضابط باتجاه عمود يقطع الدكان إلى قسمين وهو جزء من أساس البناء، أسند ظهره عليه ورفع رجله ووضعها على براد ألبان وأجبان كان فارغاً بفعل استمرار انقطاع التيار الكهربائي خلال أيام الحصار، وتلف كل موجوداته.

نظر الضابط إلى محمود وابتسم، ثم تحدث إلى زميله بالعبرية والتفت إلى محمود مجدداً.

نزع نظارته الشمسية، وقال «كيفك يا محمود؟ عرفتني؟ أنا مايك».

«مايك ؟» سأل محمود مستغرباً.

«نعم، أنا الماجير مايك ابن دايفيد بلسيانو؟» قالها الضابط ببطء. انتظر قليلاً ليرى ردة فعل محمود ثم سأله: «هل تذكر دافيد؟ جارك في البناية حيث تسكن؟ هل نسيت ابنه مايك الذي كنت تلعب معه؟». انتظر قليلاً ردة فعل محمود ثم قال: «أنا هو؟ أنا مايك يا محمود».

كان محمود شديد الاضطراب، فباله مشغول على أخيه، وعما إذا كان قد جرى توقيفه أم لا، رغم علمه أن شقيقه لم يعد يتردد إلى المنزل منذ دخول القوات الإسرائيلية إلى بيروت. ولكن أشقاءه الآخرين كانوا في المنزل، فهل اعتقل الإسرائيليون أحداً منهم؟

لكن محمود، وأمام نظرات الماجر المترقبة، قال بصوت متردد «نعم تذكرت، طبعاً تذكرت، ولو، الخواجة دافيد، ومايك وشقيقك جاك».

تذكر محمود بالفعل مايك، فهو من أبناء جيله، كانا جارين يتبادلان السلام وأطراف الكلام وأحياناً كان محمود يشارك في حلقات النقاش في الشارع أوقات النزهات. كانت تلك الحلقات تدور على بنات الحي، ولم يكن لها مضمون سياسي. كما أنهما كانا يلعبان أحياناً كثيرة سوياً عندما كانا صغيرين مع أولاد البناية في باحة صغيرة أمامها.

بقي محمود يهز رأسه نزولاً للتأكيد أنه تذكره. وارتسمت على وجهه ابتسامة حذرة، سرعان ما أخفاها لما لم تصدر أية ردة فعل عن الماجر مايك.. فقد بقي مايك يحدق في عيني محمود بعدما أكد الأخير أنه تذكره ثم قال له: «والله زمان يا محمود».

هز محمود رأسه مبتسماً لكنه لم يطمئن بعد إلى هذه الزيارة وأهدافها. فالجنود في الخارج يأخذون استحكامات، فهل هم هنا لتوقيفه ويحاولون تهدئته كي يسلم بالأمر؟

أكمل مايك بسلسلة أسئلة عن الوالد وما حل به، ثم نظر إلى الجندي الثاني الذي دخل معه الدكان وقال له بالعربية :«كان أبو محمود آدمياً، فهو دفع مرة المال لمساعدة عائلتي شخصين يهوديين لدفنهما».

دهش محمود كيف تذكر مايك هذه الرواية وتعجب أكثر لأن الماجر تحدث بالعربية، وقد بدا الجندي الثاني فاهماً لما سمع للتو، فمن هو هذا الجندي؟ هل هو من أصل لبناني أيضاً؟

استدارت عينا محمود عجباً لما حصل أمامه للتو، ولا سيّما عندما نظر الجندي إليه وقال له بالعربية وبلكنة لبنانية أيضاً: «طيب وأنا ؟ تذكرتني يا محمود؟ أنا فادي هل تذكر؟» ولما بدا أن محمود لم يتذكر فادي هذا، قال له: «أنا فادي ابن موسى فارحي؟ الصيدلاني الذي كان يملك تلك الصيدلية؟»

أشار إليها فادي بأصبعه وقد تحولت إلى محل لبيع الأقمشة.

لم يعلق محمود، وهز رأسه أيضاً بالإيجاب، مع ابتسامة حذرة لم يستطع رسمها إلا بصعوبة. ثم أكمل فادي حديثه وقال: «كنا أطفالاً، الآن نحن في جيش الدفاع الإسرائيلي وأنت في حركة فتح». التفت محمود إلى الماجر مايك فرآه يحدق به منتظراً ردة فعله.

أنكر محمود انتماءه إلى فتح بصوت مرتجف، عندها تدخل الماجر مايك وطمأنه بأن هنالك «من أوصل أخباراً عن شقيقه بأنه فتحاوي وبأنه يكدس السلاح ويسلح المخربين ضدنا، وبأنه مسؤول عن التخطيط للعملية التي حصلت للتو ضد تجمع إسرائيلي في منطقة الصنائع».

وأبلغه أن الأخبار التي وصلت للجيش الإسرائيلي تشير إلى أن شقيقه هو الذي رمى القنبلة واتجه جنوباً باتجاه الوادي بعد فعلته هذه، وأنهم هنا بحثاً عنه. ثم سأله: «هل تعرف مكانه؟».

ولما نفى محمود علمه بمكان تواجد أخيه نظر مايك إلى فادي وأومأ إليه بالمغادرة.

استدار فادي وخرج. ثم خرج الماجر مايك فلحقهما محمود للتأكد من مغادرتهما.

صعدا إلى الجيب، جلس مايك قرب السائق الذي تعرف إليه محمود أيضاً، فهو جاك هارون ابن الحي كذلك، لكن هارون لم يحاول السلام على محمود أو التعريف بنفسه كما فعل الآخران، اكتفى بالنظر إليه من دون أي إيماءة وجه، ولا ابتسامة ولا شيء آخر، كأنه لم يكن يرغب أن يتعرف محمود إليه.

بقي فادي واقفاً لثوان، ثم قفز بحركة سريعة إلى الخلف واستقر في المقعد وراء الماجر. تحدث مايك على الجهاز بالعبرية، وضع نظارته وأعطى إشارة الانطلاق.

وقف محمود على الرصيف مذهولاً بما جرى. استعاد شريط طفولته. تذكر فادي جيداً فقد كان يحب الموسيقى، وكان منزله في مقابل منزله تماماً. يجلس خلف أورغ إلكتروني ويعزف ويغني. فهو الوحيد الذي امتلك آلة موسيقية كهربائية حديثة في الحي. يومها كان البيانو الإلكتريك كما كان يسمى، جديداً.

أما مايك فهو جاره في الطابق الأرضي في البناء نفسه. والده كان أستاذاً في مدرسة الأليانس اليهودية، وأمه شديدة الوسواس على نظافة البيت وشكل الأولاد. كانت ظريفة كما يتذكرها. وقد أقامت علاقات جيرة جيدة مع الجميع، إلا أنها كانت تنزعج من بشير، أحد أولاد الجيران، لأنه كان يضرب مايك وجاك ابنها الثاني من دون سبب، فهو أكبر منهما وشيطان، وقد كانت تشتكيه دائماً عند أهله.

تذكر محمود رحيل مايك وجاك باكراً من لبنان. قالت والدتهما للجيران يومها إنهما ذهبا للدراسة في الولايات المتحدة، لكن الإشاعات كانت تقول إنهما ذهبا إلى إسرائيل لإتمام الخدمة العسكرية.

لم تمض سنوات قليلة حتى غادر الرجل مع زوجته إلى وجهة غير معلنة، ومن دون إخطار أحد.

لم يخبر فادي ومايك محمود أنهما مع مجموعة من الجيش الإسرائيلي اقتحموا، قبل الدخول إلى دكانه، المبنى الذي يقطن فيه أهله. فتشوا المبنى طابقاً طابقاً ودخلوا إلى منزل أبو وليد أيضاً والد بشير الذي كان يضرب أولاد جيرانه بينهم مايك.

أخبر أبو وليد جاره محمود أنهم كانوا يبحثون عن السلاح ويسألون عن شقيقه لأنه، كما قالوا، أحد المخربين من حركة فتح.

قرعوا باب أبو وليد وضربوه بأعقاب البنادق وصرخوا «هنا جيش الدفاع الإسرائيلي افتح، افتح الباب». كرروا هذه العبارة عدة مرات. تقدم

أبو وليد وفتح الباب، دخل الجنود مسرعين وبدؤوا تفتيش المنزل وطرح الأسئلة. ثم وقف عدد من الجنود بينهم ضابط يرتدي نظارات شمسية ينتظرون انتهاء تفتيش المنزل.

التفت أبو وليد إلى زوجته ووجدها تحدق بالضابط الإسرائيلي الذي كان يبتسم لها.

كان جندي آخر قد ابتسم لها، لكنها ظنت أنه يحاول طمأنتها كما أخبرت أبو وليد بعد خروجهم.

تحدث الجنديان مع بعضهما بالعبرية لكنهما صمتا بعد ذلك.

أنهى الجنود أعمال التفتيش من دون العثور على سلاح وخرجوا. نظر الضابط صاحب النظارات إلى أبو وليد قبل مغادرته، وقال له بالعربية وبلكنة لبنانية «انتبه، التعامل مع المخربين يعرضك للخطر».

أقفل أبو وليد الباب وراء الجنود، فأسرعت زوجته إلى سؤاله عما إذا تذكر هذين الشابين؟ ولما نفى، قالت له إنها متأكدة أن أحدهما هو مايك ابن أستير بانسيليانو؟ والثاني هو فادي الشاب الذي كان يقطن في المبنى المقابل.

بعد مداهمة المبنى وخروج القوة الإسرائيلية من الحي، تجمع الجيران لتبادل الاطمئنان. وتبين أن المجموعة الإسرائيلية أوقفت أحد أشقاء محمود واسمه يونس، مع العلم أنه ليس الشخص الذي كانت تسأل عنه على أنه مدبر عملية الصنائع التي أدت إلى سقوط إسرائيليين بين قتلى وجرحى.

كان يونس داخل سيارته من نوع كمارو، يحاول الهرب ويصرخ لشقيقته كي تنزل لملاقاته بعدما علم ببدء مداهمة بعض أبنية الحي.

اعترضه الإسرائيليون، عصبوا عينيه وربطوا يديه، ورموه في الجيب العسكري.

رأت شقيقة محمود عملية توقيف أخيها من الشرفة، كانت تصرخ

لإفلاته، لكن الجنود صعدوا مسرعين إلى منزلها وخلعوا الباب ودخلوا.

ارتابت الصبية لاقتحام شقتها، وخافت من توقيفها بعدما تابعت الصراخ والعويل على أثر اعتقال شقيقها، ووعدت نفسها أنها لن تدعهم يعتقلونها فقررت قتلهم والموت. حملت مسدساً كان في المنزل ولما اقتحموا البيت كان في يدها. لكنها كانت ترتجف إلى حد أضحك الضابط الإسرائيلي كما روت لمحمود.

ضحك الضابط، وهو على الأرجح مايك حسب وصف شقيقته له، وقال لها بالعربية وبلكنة لبنانية: «شو عمتعملي؟ أنت لا تفهمين، أنت غبية مثلك مثل كل الشعوب العربية».

ضحك الجندي كثيراً وخرج، وبقيت هي واقفة والمسدس بيدها، جامدة في مكانها وكأنها أصيبت بصدمة منعتها من التقدم أو التراجع أو الحراك، بعدما أدركت بالفعل أن شقيقها اعتقل للتو وأنها قد لا تراه ثانية.

بعد ثمانية وعشرين عاماً على تلك الواقعة، وعلى مداهمة المجموعة الإسرائيلية لأحد أحياء الوادي على خلفية البحث عن مدبر عملية الصنائع، وبمحض الصدفة وفي مجلس خاص وضيق، تحدثت باسمة كيف أن الحزب اللبناني الذي كانت تناضل في صفوفه قرر، وبعد ساعات على دخول إسرائيل إلى بيروت، تنفيذ عمليات ضد قواتها. وروت كيف كلفت برصد تمركز القوات الإسرائيلية في محيط منزلها في محلة الوتوات قرب الصنائع.

فقد قرع باب منزلها أحد كوادر الحزب وبقي واقفاً على الباب، مستعجلاً الحديث إلى زوجها حازم أحد المسؤولين العسكريين في الحزب. وأمامها، أمره بانطلاق العمليات ضد القوات الإسرائيلية وبسرعة وفوراً إذا أمكن.

بعدها ذهبت باسمة مع شقيقتها ترصدان تلك التجمعات وعادتا بخريطة واضحة عنها ولا سيّما في محيط سكنها في منطقة الظريف. وبين تلك التجمعات العسكرية، تجمع للدبابات الإسرائيلية قرب حديقة الصنائع

في بيروت. فقر الرأي على أنه الهدف الأسهل لأنه محاط بطرقات عدة ومكشوف ما يسهل التواري بعد العملية.

قرر حازم التوجه بسيارته مع اثنين من الحزبيين المولجين البقاء في بيروت، بانتظار توجهات الحزب لمرحلة ما بعد سقوط العاصمة في أيدي القوات الإسرائيلية، بعد أن كانا يقاتلان على محاور رأس النبع في العاصمة حيث حاولت إسرائيل عند بدء الاجتياح التقدم باتجاه العاصمة ولم تستطع.

انطلق الثلاثة بالسيارة وحمل حازم قنبلة يدوية بعد أن نزع منها صمّام الأمان، وكذلك فعل الشاب الثاني الذي جلس في المقعد الخلفي لجهة اليمين. ولما مرت السيارة قرب التجمع العسكري في الصنائع، رمى الاثنان القنبلتين وأسرعت السيارة بعد هستيريا إطلاق الرصاص يميناً وشمالاً من قبل الإسرائيليين. واتجهت باتجاه برج المر شمالاً ثم دارت دورة قبل أن تعود إلى نقطة الانطلاق في منطقة الوتوات. ويبدو أن رصد حركة السيارة والتحقيق الإسرائيلي مع الناس في المكان أشار الى أن السيارة توجهت إلى منطقة وادي أبو جميل، بينما الواقع لم يكن كذلك. ويبدو أن أحد المتعاملين مع الجيش الإسرائيلي وشى بمحمود الفتحاوي المعروف، فتوجهت القوة الإسرائيلية وعلى رأسها مايك لتوقيفه، ولما لم تجد الشخص المعني أوقفت شقيقه الذي ما يزال مفقوداً حتى يومنا هذا.

الخاتمة
وحيدة وادي أبو جميل

في ما تقدم روايات عن عدد من يهود لبنان. غادروا في فترات ومراحل متعددة ولم يبق منهم إلا ما رسموا في ذاكرة من عايشوهم. لكن العمل اليوم على يهود لبنان من خلال يهود لبنان المقيمين فيه، يصطدم بصعوبة لقاء من بقي منهم، وهم بالعشرات.

فغالبية من بقي من يهود لبنان لا ترغب بالحديث. وإذا نجحت وحصلت على اسم ورقم هاتف أحدهم، تصطدم إما بوعد بلقاء لاحق لا تنجح المحاولات المتكررة في إتمامه، وإما بصوت يبلغك أنك أخطأت الرقم عندما تعلمه بأهداف اتصالك، وإما برفض قاطع بإتمام أي لقاء.

قال أحد اللبنانيين من الطائفة اليهودية، بعد تدخل صديق مشترك، محاولاً إقناعه بالحديث، إنه كان يستطيع أن يحقق ثروة لو استجاب لكل المحاولات التي حصلت معه لإجراء مقابلة أو المساعدة في بحث جامعي، أو المشاركة في فيلم وثائقي عن يهود لبنان. وإنه اتخذ قراراً بعدم التحدث بصفته يهودياً أو عن يهود لبنان منذ انتهاء الحرب الأهلية. تلك التطورات فرضت عليهم، كما على اليهود الذين يحبون لبنان ولا يرغبون بمغادرته، لا إلى إسرائيل ولا إلى أي مكان آخر، التحفظ في حياتهم وعدم إبراز وجوههم أو هويتهم.

وقد فتحت عيشة التكتم التي يلتزمها من بقي من يهود لبنان فيه، المجال واسعاً أمام الروايات حول أحوالهم. منها مثلاً أنهم غيروا ديانتهم وأسماء

عائلاتهم وانتقلوا للعيش في المناطق ذات الأغلبية المسيحية، وأن أكثرية هؤلاء من النساء المتزوجات من طوائف أخرى. ومنها أيضاً أن محيطاً ضيقاً يعرف بهويتهم الفعلية ويتكتم عليها بتمنّ منهم. ومن يقر بوجود جار أو صديق يهودي، يخفض صوته تلقائياً وبشكل لا إرادي ليعطي مضمون ما يقول بعداً استثنائياً، وكأنه يريد أن يوحي أنه أخطأ في التفوه به أو أنه لا يريد أن يجري تناقله.

كان لتلك الطائفة وما يزال ممثل أو رئيس «جالية» كما يوصف أحياناً في الإعلام. وقد أطل هؤلاء مرات عدة وإن قليلة في الإعلام العالمي، ونادراً جداً في الإعلام المحلي. أبرزهم من عائلة لا تثير الشك في انتمائها، وقد بقي كل سنوات الحرب في لبنان لكنه عاد وغادر بعيد انتهائها إلى أوروبا.

كان تاجراً يملك محلاً في شارع رئيسي، يقع قرب أحد خطوط التماس السابقة في العاصمة اللبنانية بيروت.

المحل يحمل اسم عائلته وقد أعاد طلاء واجهته الأساسية باللون الأصفر واسم العائلة باللون الأسود، مباشرة بعد إزالة المعابر وعودة هذا الشارع إلى حركته السابقة للحرب الأهلية اللبنانية.

إلا أن المحل الذي كان مكتباً تجارياً أكثر منه محلاً لبيع مقتنيات محددة، عاد وأقفل بعد أشهر قليلة على فتحه. وبقيت واجهته الحديدية مقفلة لفترة طويلة قبل أن يتحول إلى مطعم.

بقي الصمت يلف أحوال تلك الطائفة ومن بقي منها في لبنان لسنوات بعد مغادرة ممثلها، إلى أن ظهر شخص آخر في الصحافة الأجنبية، مقدماً نفسه على أنه ممثل للطائفة في لبنان متحدثاً عن مصير الكنيس والمقابر اليهودية، لا سيّما مقبرة السوديكو في العاصمة.

ويُهمس أيضاً باسم محام يهودي أو اثنين يتابعان شؤون أملاك يهود هاجروا ولم يسيّلوا كامل ممتلكاتهم، ويتابعان أيضاً شؤون من بقي منهم.

لكن عيشة التكتم التي فرضها اليهود على أنفسهم في لبنان، أو فرضتها الظروف عليهم لها استثناء واحد مفاجئ في الشكل والمضمون. هذا الاستثناء شكلته حالة اليهودية اللبنانية ليزا التي اكتشفتها الصحافة نهاية العام 2006، فقابلتها وصورتها وحادثتها من دون تردد من قبلها بالظهور على الشاشات وعلى صفحات الجرائد والمجلات. وقد لبت ليزا، وهي في منتصف العقد السابع تقريباً، غالبية طلبات الكلام معها في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، وإن بدت شديدة التحفظ في الحديث عن بعض محطات حياتها ولا سيّما خلال الحرب.

وأكثر ما يثير الاستغراب في حالة ليزا أنها اليهودية الوحيدة التي ما تزال تعيش في وادي أبو جميل، بعدما عادت إلى منزلها فيه بعد الحرب.

كما أنها واحدة من بين مجموعة محدودة جداً من سكان الوادي الأصليين، لا يبلغ عددهم عدد أصابع اليد الواحدة، الذين استرجعوا أملاكهم وعادوا للسكن في منازلهم. لكن الاستغراب الذي تثيره قراءة مقابلة مع ليزا، أو رؤية تحقيق تلفزيوني عنها، يتحول إلى صدمة عند الوصول إلى منزلها حيث تعيش وحيدة مع قططها.

يقع المبنى في شارع متفرع من شارع وادي أبو جميل الرئيسي، ليس بعيداً عن الكنيس حيث تشهد المنطقة حركة عمران واسعة لأبنية جديدة فخمة وأعمال ترميم للقديم على طراز الهندسة المعمارية نفسها التي سادت في الخمسينات.

إلا أن أعمال الترميم التي طالت غالبية المباني القديمة في تلك المنطقة استثنت المبنى الذي تقطن فيه ليزا. وما تزال آثار حرب الشوارع الطاحنة التي شهدتها تلك المنطقة واضحة على المبنى.

ليس هذا البناء من الداخل أفضل حالاً مما هي عليه واجهته الخارجية. وتشهد جدرانه الداخلية على هوية المسلحين الذين اتخذوا منه متراساً أو

موقعاً عسكرياً خلال حرب السنتين بين عامي 1975 و1976. كما تشهد تلك الجدران على هوية المهجرين الذين شغلوا أبنية عدة في تلك المنطقة المهجورة بسبب الحرب، ومن بينها هذا البناء، بعد أن هجروا من الجنوب بفعل اجتياح إسرائيل سنة 1978.

كما أن صور مرشحين للانتخابات النيابية التي جرت عام 1992 للمرة الأولى بعد انتهاء الحرب الأهلية، ما تزال أمام مدخل بعض المنازل، بينها صورة أحد المرشحين عن مقعد الأقليات من الأكراد.

ما تزال تلك الصورة تحتفظ بألوانها، وقد وقف المرشح الشاب الذي لم يوفق، لا في تلك الدورة الانتخابية ولا في الدورة التي تلتها، وهو ينظر جانباً، راسماً على ثغرة ابتسامة ثقة مكملة للشعار الذي كتب في أسفل الصورة: «الكرد لأجل لبنان».

واحتلت صور زعماء ميليشيات سيطرت على المنطقة، مساحات واسعة من جدران المبنى الداخلية. وكتبت تحتها شعارات عديدة من نوع الشعارات التي شوهدت في محاور بيروت والمناطق خلال الحرب، ممهورة بأسماء المقاتلين الحركية على الجدران. فهؤلاء أرادوا «تأريخ» وجودهم في هذه الأمكنة، بحيث تعددت الأسماء مرفقة بعبارة «.. مر من هنا». وفي بعض الأحيان حلت أسماء مجموعاتهم، وفي غالبيتها مجموعات تحمل أسماء كبار «شهداء» هذا الطرف أو ذاك على أنها «مرت من هنا».

لم يكن عنوان منزل ليزا التفصيلي ضرورياً للوصول إليها. فالمنطقة أصلاً غير مأهولة إلا من عمال ورش البناء الممتدة شمال الطريق المؤدي إلى وادي أبو جميل ويمينه وفي طوله وعرضه. وكان يكفي أن يسأل صاحب الحانة الصغيرة الوحيدة في شارع وادي أبو جميل عن ليزا كي يتم الوصول إليها، فهو اعتاد زيارات الصحافيين للسؤال عنها بعد أن خرج وجودها في هذه المنطقة إلى العلن.

ومن بين سيارات العمال المتوقفة داخل مدخل بناء ليزا بعد أن دمرت القذائف واجهته الأساسية، وتحولت وظيفته من مدخل وممر إلى موقف للسيارات، أمكن الوصول إلى الدرج المؤدي إلى طبقاته العليا. وقد ساعد تسرب الضوء من فجوات الحائط الخلفي التي أحدثها القصف، في تحديد موقع السلم الداخلي المؤدي إلى طبقاته العليا بعد أن لف الظلام المدخل. وكانت تلك الفجوات منظراً مرافقاً في كل طابق من طوابق هذا المبنى وعاملاً مساعداً للرؤية.

وقد اتخذ بعض العمال من التابعية السورية في مشروع سوليدير لإعادة إعمار وسط بيروت، من شقة أو اثنتين في البناء، مأوى لهم بعد أن غطوا فجوات الجدران والنوافذ المشرعة بالنايلون العازل من دون اكتراث لوجود أو عدم وجود باب رئيسي للشقة بحيث اسندوا لوحاً خشبياً على الجهة العليا من الحائط لإقفال المرور إلى المنزل وللإشارة إلى أن الشقة مأهولة. في حين تعلو أكياس القمامة المتراكمة في بعض الطوابق بعد أن حولها العمال إلى مكان يرمون فيه نفاياتهم لأن الشركات التي تتولى رفع النفايات من العاصمة اللبنانية بيروت لم تضع مستوعبات لها في المنطقة على اعتبار أنها غير مأهولة.

الطابق الرابع حيث تسكن ليزا يبدو وضعه من الخارج أحسن حالاً لأن شقة ليزا وتلك التي تقابلها مقفلتان بباب. وقد أبقت ليزا على آيات قرآنية رفعت فوق عتبة بابها من قبل من سكن منزلها قبل أن تعود إليه منتصف التسعينات.

تلك الآيات القرآنية دفعتنا لطرق الباب المقابل، لكن أحداً لم يجب، ومع تكرار المحاولة فتحت امرأة باب المنزل الذي استبعدنا أن يكون مكان سكن ليزا لأن الآيات القرآنية عند مدخله تشير إلى أنه لمسلم. كان الباب الذي فتح للتو غير محكم الإقفال بسبب التقادم واهتراء أجزاء عدة منه،

وقد أحدث دفعه إلى خلف صوتاً يحدثه عادة صدأ الوصلات الحديدية للأبواب.

بقيت تلك السيدة واقفة محدقة بالزائرين، تنتظر إيضاحاً عن أهداف الزيارة وهوية من يقصدون. استمر الصمت دقائق، وكذلك تبادل النظرات بانتظار التأكد أن أحداً لن يهم بفتح الباب المقابل وخشية إثارة الريبة عند تلك المرأة عند سؤالها عن ليزا.

تقدمت تلك السيدة خارج عتبة منزلها وابتسمت كاشفة عن أسنان أكلها الإهمال. ثم رددت كلمات باللغة الفرنسية تستوضح عما إذا كنا صحافيين. لكن الابتسامة تحولت إلى ضحكة عندما تأكدت من هويتنا فدعتنا للدخول، مستغربة أننا لم نتعرف إليها، وهي التي أطلت في مقابلات عدة على الشاشة الصغيرة مؤخراً.

ارتدت ليزا في ذلك اليوم الصيفي سروالاً أسود تدلى تحت ركبتيها بقليل. أما سترتها فحمراء اللون. وسارعت لتبرير كشفها عن زنديها بالقول إن حرّ بيروت بات يحسب له حساب وأنها نزعت للتو قميصاً يغطي كتفيها ترتديه عند خروجها من المنزل لشراء حاجياتها، مطلقة ضحكة واكبت وضع كفها الصغير على ثغرها لتغطي أسنانها. وقد غارت عيناها المكحلتان بين تجاعيد حفرتها سنواتها السبعون.

لكن ليزا التي لا يشير وضع منزلها إلى إمكانية التبرج أو الرغبة بذلك، لم تترك شيْب شعرها ظاهراً، فصبغته باللون الأحمر. وهي مررت أصابع يديها مرات عدة بين خصل شعرها لترتيبه معتذرة أنها كانت قد وصلت للتو وقد أنهكها صعود الدرج. وروت كيف وقعت قبل أشهر عدة وفقدت منذ تلك الحادثة القدرة على السير المستقيم بسبب أوجاع غزت ركبتيها والورك لأسباب لا تعرفها وربما لنقص في الغذاء كما قالت وهي تضحك، معيدة كفها إلى فمها لتغطية اهتراء الأسنان.

تقدمنا بحذر الداخل إلى منزل للمرة الأولى، لمقابلة شخص تثير ظروف عيشه الاستغراب والدهشة، بحيث لم يعد وجود يهودية تتكلم بهذه السهولة لأشخاص لا تعرفهم، مثار استغرابنا كما كان الحال قبل أن نقصدها ونصل المكان. فقد تحول استغرابنا إلى دهشة إزاء وجود شخص يعيش في بناء لا يوحي لا من خارجه ولا من داخله أنه مسكون، فكيف إذا كان الشاغل امرأة يهودية وتقطن بمفردها.

أول ما يطالع الشخص عندما يفتح باب شقة ليزا الرئيسي، باب في آخر الممر، لونه أقرب إلى السواد بسبب حريق سابق ربما، أو بسبب عدم طلائه منذ زمن طويل، أو بسبب ما يمكن للزمن أن يكون قد راكم من غبار تحول مع الوقت إلى غلاف استبدل لون الباب الأصلي وجعله أقرب إلى اللون البني.

خطوة أولى إلى الداخل تكشف غرفة على يمين الباب الرئيسي مباشرة، وضعت فيها كنبة قديمة ممزقة في منتصفها، لونها أقرب إلى الأسود، لكن لا شيء يؤكد أنه لونها الأصلي لأن اللون الفاتح للقماش في مكان جانبي يجعل من الصعوبة بمكان تحديده.

وعلى الطرف غير الممزق من الكنبة استراحت صينية فيها حبتان من البطاطس وحبتان من البندورة وبصلة صغيرة وإلى جانبها ربطة من الخبز العربي بدت طازجة لم تفتح بعد.

ولا يبدو أن تلك الكنبة حافظت على وظيفتها بعد أن تحول الجزء الصالح منها للجلوس إلى مكان لوضع الخضار.

كما احتلت طاولة صغيرة غير مستقيمة، بفعل تفاوت طول قوائمها، صدر تلك الغرفة. وبدت عليها أغلفة مكعبات جبنة صفراء كانت أربع قطط تلتهم القليل الذي بقي منها.

دخلت ليزا وراءنا إلى تلك الغرفة فرحة بقططها، وللحظة نسيت

وجودنا وبدأت تداعب تلك القطط وتتحدث معها، ثم نظرت إلينا وكأنها استدركت وجودنا، وبدأت تعرفنا عليها فسمت الواحدة تلو الأخرى، ناقلة يديها من رأس قطة إلى أخرى من دون أن ترفعها قبل أن تشدها إلى وجهها وترسم قبلة على أعلى الرأس.

لكنها عندما وصلت إلى «عنتر» الأكبر حجماً، شكته وهي تضحك من قلبها لأنه «لا يترك مجالاً لغيره»، فهو يكاد يأكل كل ما تجلبه لقططها لولا مراقبتها له. ثم وبحركة سريعة، لفت كفها حول بطنه ورمته أرضاً وانحنت وحادثته ودعته للاعتدال في الأكل وهي تداعبه وتقبله وتسرق نظرات باتجاهنا كي لا يفلت منها، محاولة إفهامنا أنه المفضل لديها.

وبحركة خفيفة أخرى، وقفت وحملته بيد واحدة وشدته باتجاه خصرها وبقيت ترمق أشقاءه وهي تبتسم راضية أنها أمنت لهم حصة من جبنة صفراء لم يبق منها سوى القليل.

بقيت لدقائق تراقب القطط وهي تلتهم ما وضعته على الطاولة، تنظر إليها وإلى عنتر وقد أمسكته بإحكام رغم محاولاته الإفلات.

في تلك الغرفة أيضاً وضعت ليزا «نملية» صغيرة لم يبق منها أية درفة أو زجاج أو منخل كما هو حال النمليات القديمة التي كان الأكل يُحفظ فيها قبل انتشار الثلاجات. وفي داخل تلك النملية وضعت علب كبريت وشموع للاستعانة بها عند انقطاع التيار الكهربائي.

ثم وبحركة مفاجئة خرجت ليزا مع «عنتر» من تلك الغرفة ودعتنا للدخول إلى غرفة المنزل الثانية حيث يمكننا الجلوس كما قالت وأردفت موضحة ومعتذرة أن المنزل صغير ومؤلف من غرفتين فقط..

لحقنا بها ودخلنا «الغرفة الثانية» وقد بدت غرفة نومها حيث وضعت سريراً غطته بشرشف أبيض، وإلى جانبه خزانة صغيرة صفراء قديمة وأخرى كبيرة يشير لونها ووضعها الخارجي إلى أن فتح إحدى درفها قد

يؤدي إلى انهيارها.

وعلى خشبة رفيعة طويلة يبدو أنها كانت ظهراً لخزانة أخرى لم يبق منها سوى هذا اللوح الخشبي، رفعت ليزا صورة بالألوان بدت جديدة بعض الشيء، لرضيع يبتسم. وقد شكلت الصورة تلك، العنصر الملون الوحيد في هذا المكان. كما رفعت مقابل سريرها لوحة حائط عليها روزنامة العام وصورة بالألوان، بدت حديثة، لوجهها وقد كحلت عيونها وابتسمت لملتقطها. ولما أبدينا إعجابنا بها أخبرتنا أن ملتقطها مصور رافق صحافية جاءت لمقابلتها، صورها ووعدها بإرسال الصور لاحقاً، وقد وفى بوعده. حتى باتت ليزا تتعاطى مع تلك الصورة كأنها التحفة الوحيدة لها في المنزل، تشير إليها بأصبعها وتقول وهي تضحك خجلاً «كنت ألقّب بجميلة الحي».

نهضت عن حافة سريرها وخرجت إلى شرفة الغرفة التي تطل على الشارع وعلى مبانٍ قديمة رممتها شركة سوليدير لكنها غير مأهولة بعد. ودعتنا لرؤية ما زرعته.

فقد كبرت في إحدى علب حليب «التاترا» التنك شتلة حبق. وفي الثانية شتلة من الخبيز. لكن نبتة أخرى احتلت المكان تجاهلتها ليزا في جولة التعريف على مقتنياتها على تلك الشرفة، ربما لأن تلك النبتة نمت بمفردها بين الحائط الخارجي لغرفة نومها وأرض الشرفة. فالتصدع الذي أصاب المبنى نتيجة القصف سمح بتسلل الماء بين الجدران وبروز نبتات برية في أكثر من زاوية من زوايا تلك الشرفة. حيث وضعت ليزا أيضاً كرسيين من البلاستيك وطاولة صغيرة عليها منفضة امتلأت بأعقاب السجائر.

وبعد كلام عن الحبق الذي «يبقى أخضر طيلة الفصول» أدخلت ليزا الكرسيين ودعتنا للجلوس عليهما، أما من بقي منا واقفاً فأشرت إليه للجلوس بقربها على حافة السرير.

ثم أشعلت سيجارة وكررت بالفرنسية ما قالته للتو من أن أهالي وادي أبو جميل كانوا يقولون إنها الجمال بعينه، ثم صمتت قليلاً وهي تنظر إلينا منتظرة تعليقاً يؤكد ما تقول. ولما فعلنا ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة. ثم ومن على طاولة صغيرة حيث وضعت تلفزيوناً صغيراً بالأبيض والأسود، قد يكون من أصغر الأحجام، سحبت مرآة صغيرة لم يبق منها سوى نثرات قليلة من المرايا بعد أن تحطم جزؤها الأساسي، ونظرت إلى وجهها في بقايا تلك المرآة وقالت إنها تحب لون شعرها الأحمر، ولما لم تسمع أي تعليق من قبلنا سألتنا رأينا، ثم وضعت المرآة ونظرت إلى الجالسين وبدأت تروي قصتها حتى قبل أن تُسأل. «أنا من يهود لبنان، لم أغادر على الرغم من رجاء أشقائي لي بالالتحاق بهم في أوروبا، لكنني أنا وشقيقي لم نفعل». ثم أخبرتنا كيف توفي شقيقها قبل سنوات وتمكنت بمساعدة أحد سكان الحي القدماء والذي ما زال يحتفظ بدكانه الصغير الذي ورثه عن أبيه، بدفنه في مدافن اليهود في صيدا حيث دفنت أمها ووالدها أيضاً.

يومها، وبينما كانت تنتحب لفقدها شقيقها وآخر من بقي لها في لبنان، نظرت إلى الأشخاص الذين رافقوها وعددهم أقل من خمسة، كلهم من المسلمين، وطلبت منهم أن يقرؤوا الفاتحة عن روحه عوض «أن يدفن من دون أية صلاة». وهكذا حصل، قرأ هؤلاء الفاتحة وأتموا الدفن وفق المراسم الإسلامية.

أخبرت ليزا تلك الواقعة بسرعة قياسية. ولم تستجب للأسئلة المتكررة لها عن ظروف ذلك الدفن وأثر غياب شقيقها وتفاصيل تتعلق بمرضه. وكأن ما تفوهت به للتو قصة لم تكن ترغب بالبوح بها، أو لم تكن ترغب بالتوقف عندها. فابتسامتها كانت ما تزال حاضرة حتى وهي تروي روايتها وكأنها تتحدث عن أحد آخر وليس عنها أو عن شقيقها. وكانت ضحكات خفيفة تنفلت منها وهي تتحدث عن ذاك اليوم، من دون أن تنسى طرح

الأسئلة المشتتة والمتعددة المضامين لتغيير الحديث. ثم أبدت اهتماماً فجائياً بهويتنا وطائفتنا والمنطقة التي نأتي منها ومكان سكننا وغيرها من الأسئلة التي كانت ترمى بشكل متتال لا يترك مجالاً للهرب من الإجابة.

كنا نستجيب لأسئلتها لأننا كنا نريد أن تستجيب بدورها لما حملناه لها من استفسارات، لكنها كانت ترد بما تريد أن تقول بغض النظر عن مضمون الأسئلة المطروحة عليها. وعندما تجد أن لا مفر من الإجابة كانت تتحدث بتفاصيل عامة بديهية عن الحرب وما سبقها من وئام بين الناس وعن حبها وتعلقها بلبنان.

فقد هجرت ليزا من منزلها في أثناء الحرب وعاشت عند أصدقاء لها لكنها لم ترغب في تفصيل تلك الفترة وفي الحديث عن أسباب بقائها مع شقيقها الوحيد في لبنان رغم رحيل العائلة ووفاة الأم والأب. وكأن حياتها تنقسم إلى قسمين، قسم يتعلق بحياتها قبل الحرب تحب إلى درجة العشق الحديث عنه وعن الأيام التي مضت «عندما كانت الطوائف تتعايش من دون تفرقة وعندما كان الجميع يمارس طقوسه من دون خوف». أما القسم الثاني فهو المتصل بحياة ما بعد الحرب وكأن الحرب لم تمر عليها.

أخبرتنا كيف كان أشقاؤها يتصلون بها على هاتف جارها « الدكنجي » الذي ترعرع في الحي وعرف والديها وأشقاءها. وكيف كانوا يرجونها المغادرة حتى إنهم أرسلوا لها مرتين تذكرة سفر لكنها لم تستخدمها..

أما لماذا لا تغادر الآن؟ فلأن صلتها انقطعت مع أشقائها بعد أن طلبت منهم عدم الاتصال بها كما تقول. فقد صادرت عناصر ميليشيات محلية في إحدى المرات رسالة من شقيقها وأخذتها عند مسؤول المنطقة، علها تشير إلى علاقة جاسوسية لها مع الخارج. لكن تدخل جيرانها من المهجرين المقربين من تلك الميلشيات المحلية، أعاد الأمور إلى نصابها. وقد استردت ليزا الرسالة بعد أن نزعت من مظروفها وقُرئت. ثم وبعد هذه الحادثة

طلبت من أشقائها ألا يتصلوا بها وألا يرسلوا أية رسائل لأن ذلك يثير الشكوك حولها. وقد توقف بالفعل اتصال أشقائها بها كما تقول.

صمتت ليزا قليلاً وعادت للحديث عن مناطقنا وطوائفنا وكيف أن لها أصدقاء من تلك المناطق والطوائف. وكانت تكمل حديثها عن الماضي بشغف وتسلسل يستحيل مقاطعته. بحيث بات يصعب الحديث معها عن بعض ظروف حياتها وَكيفية تأمين معيشتها وعن عيشة التهجير التي خبرتها أثناء الحرب.

أما جوابها عن أسباب بقائها في لبنان رغم فرادة قصتها، فقد كان واحداً متكرراً، أنها تنتظر تعويضاً عن منزلها الحالي وعن محل استملكته شركة سوليدير في وسط بيروت. وروت كيف راجعت مرجعيات سياسية لبنانية، قصدت منازلها وطلبت منها المساعدة في المسائل المتعلقة بتعويضها من قبل الشركة التي استملكت المنطقة.

وأمام نظرات التشكيك في روايتها لأن غالبية السكان سوّت أوضاعها قبل سنوات، استخدمت هاتفنا النقال للاتصال بمحام أعطاها رقمه أحد الزعماء السياسيين اللبنانيين كي يساعدها في متابعة شؤون أملاكها مع شركة سوليدير.

أخرجت دفتراً صغيراً من درج صغير في ما كان يوماً طاولة سرير صغيرة. وفي هذا الدفتر وضعت قلماً وأوراقاً صغيرة كتبت عليها أرقاماً تقول إنها تعود لصحافيين جاؤوا لمقابلتها.

ثم طلبت منا أن نتأكد من أن إحدى القصاصات التي سحبتها، هي بالفعل تلك التي كتب عليها رقم الأستاذ فلان، المحامي الذي أعطيت رقمه. ولما تأكدت أنه هو بالفعل، طلبت مساعدتنا في طلب الرقم لأنها لا تملك نظارات طبية لتقويم ضعف نظرها. ولما رد المحامي على الطرف الآخر سارعت إلى التعريف عن نفسها على أنها ليزا من يهود لبنان، وأنها

حصلت على رقمه من الزعيم الفلاني وأن الأخير يوصيه بمساعدتها. وكان رفعها لصوتها من حين لآخر أثناء المحادثة، يشير إلى أنها لم تسمح له بأي تعليق قبل عرض تفاصيل قصتها.

جلسنا نتابع حديثها الهاتفي وحركات رأسها المتواصلة، وفهمنا من خلال ترددها لما يقول أنه طلب منها الاتصال به ثانية لأنه حالياً خارج العاصمة ولا يعرف متى يعود.

أقفلت من دون أن تعلق، وقالت إنها ستراجع السياسي الذي أعطاها رقم الهاتف من جديد عله يتصل هو به ويساعدها في تحديد موعد. ولما استبعدنا أن يستقبلها هذا السياسي من جديد، قالت إنه كان شديد الود معها وإنه أرسل مرافقه كي يشتري لها علبة حليب عندما رآها تمشي عرجاء ونصحها بالإكثار من الكالسيوم لأنه حاجة لعظامها في هذا العمر، وحادثها عن اليهود وأخبرها كيف أن هنالك مقابر لهم في منطقته تعود لألفي عام.

لا تخرج ليزا من الوادي إلا لمراجعة على علاقة بأملاكها كما تقول، وتنفي وجود أقارب لها أو أصدقاء تزورهم. وتتحدث عن امرأة يهودية كانت تعرفها، تسكن في أول شارع الحمرا لكنها توفيت. وهي لا تنسى يوم ارتعبت عندما قرع باب منزلها بقوة في صباح يوم خريفي باكر. ولما صرخت تسأل من الطارق، عرّف نجل جار تلك المرأة المتوفية عن نفسه. وقد كان والده يملك صيدلية في نفس البناء. ولما فتحت الباب مستغربة زيارته لها في هذا الوقت، أخبرها أن صديقتها توفيت، وأن الوفاة حصلت منذ عدة أيام لأن رائحة جثتها دلت عليها. وأبلغها أن والده أرسله للحصول على رقم لجمعية يهودية أو أية جهة يمكن أن ترفع الجثة وتتمم مراسم دفنها.

إلا أن ليزا نفت معرفتها بأي من أفراد الطائفة ونصحته بالاتصال بأقرب مطرانية مسيحية علهم يساعدون. وقد عرفت ليزا في ما بعد أن مطرانية السريان أمنت دفن تلك المرأة لكنها لم تخض بتفاصيل إضافية،

خاتمة الحديث عن تلك الواقعة بالقول إن تلك المرأة كانت المرأة اليهودية الوحيدة التي كانت تعرفها. ومنذ وفاتها لم تعد على صلة بأي من اليهود في لبنان.

أما من تتحدث عنهم كثيراً وبتفاصيل وافية ومن دون سؤال، فهم جيرانها السابقون من المهجرين الشيعة في الوادي. فقد كانوا يحبونها كما تقول وهي ما زالتِ تزورهم من حين لآخر في منازلهم في بيروت وخارجها. وتقصدهم للمعايدة في أعيادهم ولا سيّما في عيد الفطر السعيد بعد شهر الصوم في رمضان وفي عيد الأضحى. وتقول إن أصدقاءها من الذين سكنوا الوادي بعد أن هجروا من الجنوب كانوا يعايدونها في أعيادها ولا سيّما في عيد الغفران.

تقول إنها لا تعرف التعصب، على الرغم من أن عائلتها كانت متدينة. فقد كان جدها حاخاماً ووالدها كان ممارساً يذهب إلى الكنيس بانتظام، ويطبق الطقوس اليهودية في المنزل عند الأكل وفي أوقات الصلاة.

وعند سؤالها عن الرموز الدينية التي بحوزتها وهل بقي شيء منها؟ تقول إنها احتفظت بتلك الرموز لكنها رمتها لاحقاً بعد أن خبأتها خلف الخزانة في غرفة نومها لسنوات طويلة ثم عمدت إلى التخلص منها خشية أن تجر عليها المشاكل لأن الجميع كان يعرف أنها يهودية، لا بل اليهودية الوحيدة الباقية في الوادي وهي كانت تشعر أنها تثير استغراب الجميع، ما يثير قلقها خاصة عندما تحصل تطورات سياسية وأمنية معينة.

تكثر ليزا، وهي تتحدث، من استخدام كلمات باللغة الفرنسية، وتقول إنها لا تعرف العبرية لأنها في الأساس لم تجدها لغة سهلة وهي لم تتعلم منها بالتالي إلا حروف الأبجدية في مدرسة الأليانس.

وتروي أنها أغرمت بشاب من الطائفة الدرزية كان اسمه أكرم، بينما كانت تعمل في محل أقمشة يملكه يهودي في مدينة عاليه حيث كانت

تصطاف مع عائلتها. إلا أن زاك صاحب المحل نصحها بألا تتورط أكثر مع هذا الشاب لأن الدروز لا يتزوجون إلا من أبناء طائفتهم وكانت تجيبه ضاحكة «هل تعتقد أنه لو وافق لكانت قبلت أمي؟».

كانت أمها تريد أن تزوجها من أحد أبناء طائفتها، فهي كانت جميلة ومن عائلة حاخامات، لكن هجرة الشباب المبكرة حالت دون ارتباطها.

لا ترغب ليزا كثيراً في الحديث عن طفولتها. وعندما تقاطَع بسؤال لا يعجبها، تكمل ما بدأته من دون اكتراث.

وهي تنقذ نفسها من بعض الأسئلة بأن تذهب للكلام في الأوضاع العامة. فهي تملك راديو صغيراً تستمع من خلاله إلى الأخبار ولا سيّما عند انقطاع الكهرباء. لكنه عتيق وبحاجة إلى تبديل لأن موجات الإف إم عليه معطلة بعد أن كُسر الزر الذي يبدل بين الموجتين المتوسطة والإف إم، لذلك فهي تستمع كثيراً إلى إذاعة لندن وإذاعة مونتي كارلو على الموجة المتوسطة وفي الصباح لأن الإرسال يكون واضحاً.

أما على شاشتها الصغيرة التي تعود صناعتها لبدايات نزول الشاشة الصغيرة إلى الأسواق، فتتابع ليزا المحطات الأرضية فقط وتحديداً تلك التي يلتقطها هوائي شاشتها الصغير البدائي. وبواسطته يمكن أن تلتقط محطات محلية تتابع من خلالها مجريات الأحداث والأخبار والبرامج السياسية. لكن ليزا لا تعطي رأيها بأي سياسي أو بأي حدث إنما تسأل عن أبعاد الأحداث ومعانيها. وهي تمضي وقتها في متابعة المسلسلات. أما أحب شهر على قلبها فهو شهر رمضان لأن صيغة بث المسلسلات تصبح يومية. وقد فصّلت ليزا في حديثها وقائع مسلسل أسمهان الذي اعتبرته من أجمل ما شاهدت.

كررت ليزا عرض إعداد القهوة لنا عندما هممنا بالخروج، محاولة إبقاءنا فترة أطول. وعتبت على زميلة لنا لأنها لم تشرب من قنينة سفن أب فتحتها لها خصيصاً عند وصولنا عندما أبدت تجاوباً نزولاً عند إلحاح ليزا علينا

لشرب «البارد». وتركتها كما هي في مكانها الذي وضعتها ليزا عليه، وهو طاولة لتمليس الملابس لم تكن عليها أي مكواة وقد اهترأ قماشها وأكل الصدأ أجزاءها الظاهرة.

وكما أثناء الدخول، كذلك أثناء الخروج، فإن حديث ليزا هو عن قططها التي تواكبها كيفما سارت وقد دخلت جميعها غرفة نومها بعد أن التهمت ما وضعته لها على الطاولةِ في الغرفة الثانية.

وعندما وقفت على الباب مودعة وحولها قططها الأربع، دعتنا لزيارة ثانية ولاصطحابها إلى أحد مقاهي بيروت الشعبية على البحر لأنها تحب بحر بيروت. وأخبرتنا كم فرحت عندما اصطحبتها صحافية أجنبية إلى هذا المقهى المعروف في العاصمة اللبنانية. فوعدناها بأن نفعل.

وفي الدرج المتصدع الذي قادنا إلى خارج هذا المبنى، استرجعنا حديثاً مشتتاً غير متجانس عن كل شيء وعن لا شيء. فقد بقي الظرف من دون تفسير وبقيت حالة ليزا التي تختصر أقلية بقيت في لبنان مثالاً لا يعني شيئاً بالمعنى العام، فلا نموذج آخر سواها، وبالتالي فإن قصة ليزا لا تعكس حالة عامة. كأن تلك الزيارة هي خارج الزمان والمكان لشخص قرر أن يعيش في ماضيه ويبقى فيه ولا يغادره على الأقل أمام من يسأله أن يفعل. فهي زيارة لشخص فريد وحيد، ليس له مثيل في لبنان لأن غالبية اليهود اللبنانيين تعيش في لبنان من دون ضجيج أو إشارات لوجودها.

وكأن اختتام هذا الكتاب بقصة ليزا لا يخرج عن سياقه أبداً، فهو كتاب عن قصص أشخاص كانوا في لبنان ورحلوا، ولم يبق منهم في بلدهم سوى روايات في ذاكرة من عرفهم. وكذلك هو حال ليزا التي توقفت قصصها ورواياتها عند ماض عاشته وترفض وصله بحاضر كأنها موجودة فيه بجسدها فقط لكنها قررت أن تغيب عن وقائعه...